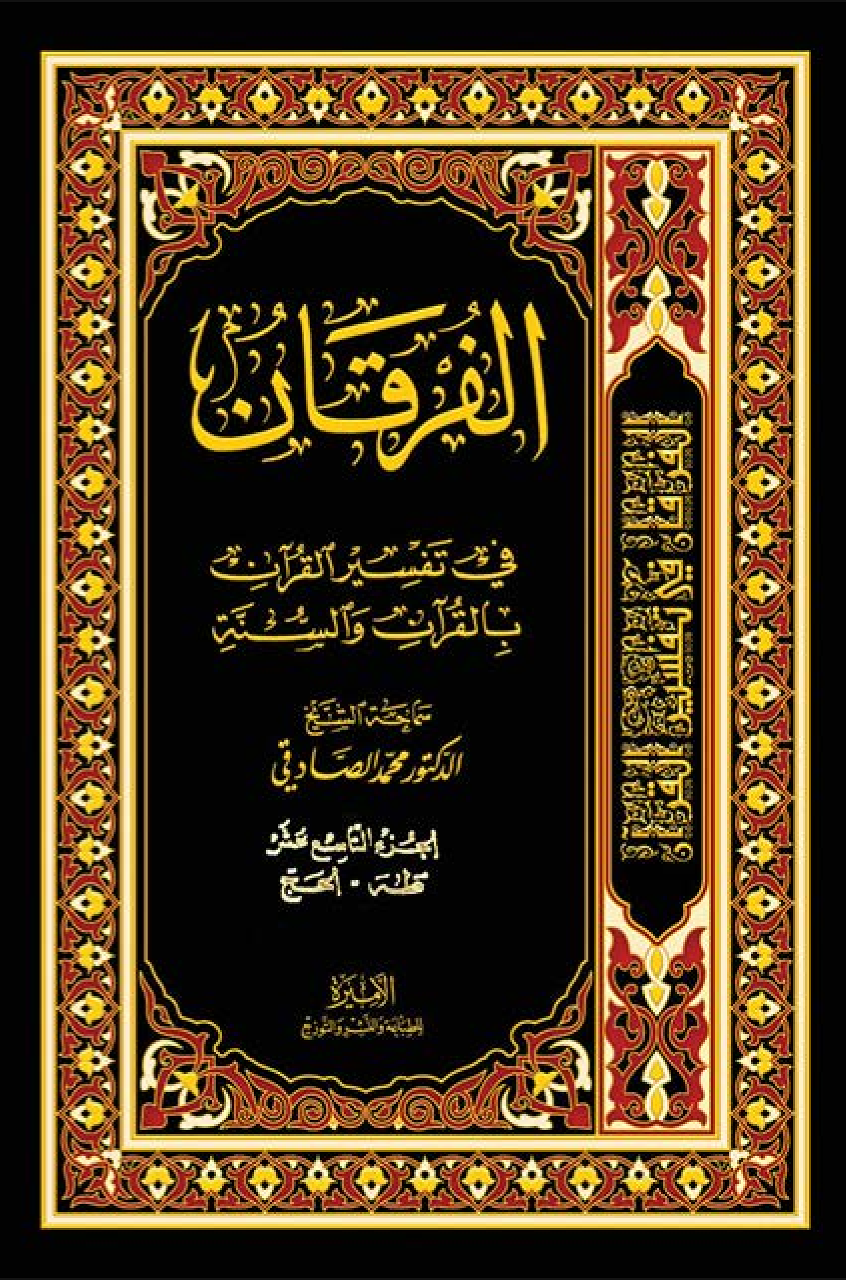

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء التاسع عشر
طه - الحج
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء التاسع عشر

تتمة سورة طه - سورة الأنبياء

سورة الحج

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



٢٠

تتمة

سُورَةُ طٰهٰ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ
هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى
كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا
وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ
شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا
خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا
كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ
﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ
وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ
ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ
وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ
﴿٦١﴾ فَتَنَـٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ
يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾
فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟
يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا

حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾:

هنا يخاطب موسى في ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ إذ عرف أنه الأصل في هذه الرسالة، وذلك السؤال تهكم في الحوار، وتراه دهرياً ناكراً لألوهية الله لقوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ وقوله هنا ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ ناكراً لربهما الذي لا يصدقه ربّاً لنفسه، وفي القصص ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[1]؟ وهذا ظاهر الحال من قاله.

---

(١) وكذلك في المؤمن ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا...﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

أم إنه ناكر لربوبيته وعبوديته دون ألوهيته، ولا دليل عليه إلا تأويل عليل!.

إنه ناكر للربوبية العالمية ككل فضلاً عن ربوبية رب العالمين لنفسه فيقول هنا «ومن ربكما يا موسى» ثم في الشعراء ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] استنكاراً للربوبية العالمية التي يقولها موسى وهارون لربهما.

وعلى أية حال فهذه النخوة الجاهلية هي من شيم الفراعنة، وكما واجهه آذِنُه أوّل مرة بكلمته الهازئة اللاذعة «أما وجد رب العالمين من يرسله غيرك»؟[٢].

أجل وهم كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون على فرعون عليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصيّ فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزّه فقال: ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلّا ألقي عليهما أساورة من ذهب؟ إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه، ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان وأن يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٣.

(٢) البحار ١٣ : ١٣٧ يسوق القصة مرفوعة.. حتى انتهى إلى قصر فرعون الذي هو فيه فقعد على بابه وعليه مدرعة من صوف ومعه عصاه فلما خرج الآذن قال له موسى: استأذن لي على فرعون فلم يلتفت إليه فمكث بذلك ما شاء الله يسأله أن يستأذن له فلما أكثر عليه قال له: أما وجد... فغضب موسى فضرب الباب بعصاه فلم يبق بينه وبين فرعون باب إلا انفتح حتى نظر إليه فرعون وهو في مجلسه فقال: أدخلوه فدخل عليه...

واضمحل الأنباء ولما وجب للقابلين أجور المبتلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين»[١].

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾:

تعريف جامع خاصر حاصر برب العالمين، فإن كان فرعون شيئاً شملته ربوبية رب العالمين وهدايته، وإن لم يكن شيئاً، فما للّاشيء أن يعارض في الربوبية رب كل شيء؟.

ذلك إجمال من تفصيل الشعراء: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ... رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ... رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

و﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ هي الربوبية الشاملة لكل خلق ولكل هدىً، فليس الخالق غير الهادي - لو كان - ربّاً، وليس الهادي غير الخالق - لو كان - ربّاً، والرب هو الذي يجمع بينهما بصورة شاملة كاملة دون إبقاء.

فـ ﴿رَبُّنَا﴾ هنا جواب عن ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ ثم ﴿ٱلَّذِىٓ...﴾ يتخطى فيه بربوبيته إلى كل شيء ومنه فرعون وملأه، وهذه بلاغة بارعة في الحوار أن يتبنى ما يبتني عليه الخصم دون زيادة ولا نقيصة، فلما قالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ قدماه في صلته بالرب، ثم لمّا قلب الأمر فحوّل إليهما: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ تحوّلا قائلين ﴿رَبُّنَا﴾ ولكنه في مواصفة تعرف به أنه رب كلّ شيء ومنه فرعون وملأه.

وترى ﴿خَلْقَهُۥ﴾ مصدر؟ وهو فعل الرب، لا يعطيه لأي شيء حتى أفضل الكائنات! أم هو المخلوق؟ وكيف يُعطى مخلوق لمخلوق!.

---

(١) البحار ١٣ : ١٤١ عن نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٢٣-٢٨.

إنه اسم المصدر، وإعطاء الخلق لكل شيء هو إيجاده عطية منه ربانية، وحاصل الإيجاد هو الوجود، وحاصل الخلق هو المخلوق، فالوجود المخلوق هو المعني من ﴿خَلْقَهُۥ﴾.

وترى ما هو الشيء الذي يُعطى خلقه، فإن كانت العطية قبل وجوده فليس شيئاً حتى يُعطى خلقَه، وإن كان بعد وجوده فهو تحصيل للحاصل، إذاً فلا حاصل لـ ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾؟

الشيء هنا هو الكائن مستقلاً، وإطلاق كلمة الشيء عليه باعتبار الأول دون الفعلية، فمثله كمثل قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

ثم الشيء إن كان هو المادة الأولية للكون فإعطاء خلقه هو إيجاده لا من شيء، وإن كانت المواد الأخرى المتحولة عنها، ثم كل عن الأخرى، فإعطاء خلقه هو تحويره وتغييره، فهو خلْقه من شيء خلَقه قبله، فهناك شيء أول شيّأ سائر الأشياء منه على اختلاف ذراتها وجزئياتها وعناصرها.

ومن ثم ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ تعني تراخي الهدى رتبياً عن الخلق وزمنياً على طول الخط ما دام الكون كائناً، والهدى لزام الخلق عطاءً وإلا فضلال يخالف حكمة الخلق ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[2] ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[3].

فالهدى لزام الخلق بعده، ومهما كان معه زمناً فإنه بعده رتبيّاً، و﴿ثُمَّ﴾ هنا تدل على التأخر رُتبيّاً أو زمنياً أم فيهما، فمن الهدى ما لا يصل إليها الخلق إلا بعد شروط تتطلب زمناً بعيداً، ومنها ما هي له منذ خلق، هدًى

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٧٨.
(٣) سورة الأعلى، الآيات: ١-٣.

أولى هي التي تخطو بالخلق إلى مراتب أخرى، فكل خلق يعيش هدى تناسب حاله والهدف من خلقه، وليس الضلال في كون أو شرعة أم تطبيقها إلّا تخلّفاً من النسناس الذين يعارضون شريعة الناس ويعرقلون السير على السالكين سبيل الهدى، ثم الهدى هنا بعد الخلق تعم التسوية والتقدير كما في آيتي الأعلى، وهي ككل تعم الهدى التكوينية في كل شيء، وهي القوانين المحكّمة على كل شيء، هندسياً وكيماوياً وفيزيائياً أما هيه، والغريزية في أصحابها، ثم الفطرية والعقلية في العقلاء، ومن ثم الهدى التشريعية لهم، وعلى ضوئها تكوينية أخرى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[(١)].

ثم و﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كما تعني هدى كلّ إلى الكمال اللائق به الهادف له، كذلك هدى كلّ إلى الآخر تكميلاً له أو تكاملاً به فـ ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[(٢)].

فقد هدى الخلق ككل منذ البداية حتى النهاية بما تزاح به العلل، ويتكامل معه الخلق، من سلامة الأعضاء واعتدال الأجزاء وترتيب المشاعر والحواس ومواقع الأسماع والأبصار، لكلّ على حسبه وبمستواه، وذلك هو الخلق الحكيم سبحان الخلاق العظيم.

ومثالاً على تلك الهدى الشاملة هدى الأرض لتسجيل الصور والأصوات: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾[(٣)] ثم هدى النحل إلى هندسة بيوتها واستجلاب عسلها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ ومن ثم كل وحي إلى كل حي وميت من الكائنات تهتدي به إلى ما خلقت لأجله تكوينياً وتشريعياً من مختلف طرق التكامل مادياً[(٤)] ومعنوياً.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٢) سورة الملك، الآية: ٣.
(٣) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.
(٤) نور الثقلين ٣: ٣٨١ في الكافي عن محمد بن مسلم قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول=

وقد تعني ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ مثلث الهدى، ثانيتها هدى كل شيء إلى ربه فـ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] والثالثة هدى العقلاء - بإحكام الخلق في كل شيء - إلى الخالق الحكيم، إذاً فـ ﴿هَدَىٰ﴾ تعني كل شيء إلى شيئه، وبعض الشيء إلى مخلوقية سائر الأشياء بدلالة عقلية، فما من هدى تكوينية أو تشريعية أو شرعية فعلية أم مستقبلة إلا وهي من الله، كما خلقُ كل شيء من الله، ثم لغير الله الاختلاق والضلال، كما له الخلق والهدى فـ «الخير كله بيديه والشر ليس إليه».

فقد كان ذلك الجواب الحاسم القاصم للطاغية تعريفاً عريقاً برب العالمين حيث جمع كل جوانب الربوبية لربهما كربِّ العالمين، سلباً لسائر الربوبيات المدّعاة، فإن الكل فقيرة في ذاتها فضلاً عن إعطاء خلق أم هدى لسواها! فالخلق بهداه الواسعة الشاسعة، والشاملة كل كائن من الذرة وما دونها وما فوقها، من الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة، مشمول لـ ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

هذا الكون الكبير المؤلّف مما لا يُحصى من الذرات والخلايا، كل ذرة فيه تنبض وكل خلية تحيا، وكل كائن يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى.. تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة في كينونتها أو غريزتها أو فطرتها وعقليتها، بلا تعارض كوني ولا خلل ولا فتور.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾:

لما أفحم الطاغية بهذه الحجة البالغة المحلقة على الأصول الثلاثة، انتقل في حواره إلى واجهة أخرى، استبعاداً لها: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾

= الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] قال: ليس شيء من خلق الله إلا وهو يعرف من شكله الذكر من الأنثى، قلت: ما يعني ثم هدى؟ قال: هداه للنكاح والسفاح من شكله.
أقول: هذه هدًى لبقاء النسل كمصداق من المصاديق المادية للهدى.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

والبال هو الفكر والحال، الحال التي يكترث بها كما يقال: ما باليت بكذا بالةً، أي ما اكترثت به، والحال التي ينطوي عليها الإنسان فيقال: خطر ببالي.

فهنا استبعاد أول في بال الفكر للقرون الأولى، إذ كانت الأكثرية المطلقة منهم مشركين، فإذا كان التوحيد حقاً فما بال القرون الأولى إذ كانوا مشركين؟ سناداً في إبطال الحق إلى الأكثرية الساحقة من القرون الأولى كأنها حجة تدمغ بالغة الحجة.

ثم استبعاد ثان، أن لو كان التوحيد حقاً وأن العذاب على من كذب وتولى، فما حال القرون الأولى التي مضت وضلت في الأرض، فهو كقيلة لهم أخرى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ... قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[1].

ما شأن القرون التي مضت، أين ذهبت، وكيف ومتى عذبت؟

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾:

لماذا لم يؤمنوا؟ ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾! وكيف يتواجدون حتى يعذبوا؟ ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ﴾ ما كتبه عليهم من أعمالهم فهي ثابتة في أنفسهم وفي أماكنهم وسائر الشهود ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ...﴾[2].

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ عما خلق وهدى، وعما أمات وأحيى، فهو عالم بخلقه على أية حال، ثم ﴿وَلَا يَنسَى﴾ بعدما علم، علم دائب لا حول عنه ولا خلل فيه ولا نقص يعتريه.

فالخالق كل شيء، الهادي كلًّا إلى شيئه بما أعدّ له من طاقات وإمكانيات، كيف يضل عن فعله أو ينسى؟.

---

(١) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

ولماذا ﴿رَبِّي﴾ دون «ربك» أو «ربنا» أو «رَبِّ الْعالَمِينَ»؟ لعله تأشير إلى أن الربوبية الخاصة التي تجعل لمثلي علماً هكذا، فأفحمك بجملة قاطعة، إنها بأحرى أن تحلّق علماً على القرون الأولى وسواها.

إذاً فليس ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ تحويلاً للجواب إلى ربه، علماً بأنه تعالى ليس ليجيبه، بل هو جواب حاسم إن ربي لا يضل عما خلق وهدى ولا ينسى، لأنه ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

ومن هداه الفطرية، وهي بال القرون الأولى مهما تخلفوا عنها، ومن هداه تسجيل أقوالهم وأعمالهم والحفاظ على أرواحهم بأجسادهم بعد موتهم كما قبله، فلا يضلون عن علمه ولا ينسون، فهو هو يجازيهم يوم القيامة بما كسبوا وما الله بغافل عما يعملون.

ومن ثم يذكر لربه مواصفات تؤكّد علمه المحيط وجزاءه الأوفى لكل من سعى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾:

«كم» فيها لا تختص بحاضر الإنسان زمن الخطاب كقضية واقعية، بل الخطاب فيها وأمثالها قضية حقيقية تشمل مثلث الزمان حاضراً ومستقبلاً وغابراً، منذ سكن إنسان الأرض وإلى يوم الدين.

فلقد كانت الأرض قبلكم ولم تكن مهداً، ثم الله جعلها لكم مهداً: متحركة بحراك دائب، فكما مهد الطفل يحركه لإراحته، وهو مربوط بربطتين تربطانه والطفل عن السقوط والتبعثر، كذلك مهد الأرض فإنها مربوطة برباطات منها القوة الجاذبية العامة، تربطها وأطفالها عن السقوط في هوّات الأجواء البعيدة، وهي متحركة بحركات عدة متداخلة لطيفة حنونة، لحد لا ندرك منها إلا كلّ رياحة.

ومن ثم هي مهد المهاد ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾[(١)] حيث مهدت لحياة الإنسان بسائر الأحياء المستخدمة لصالح الإنسان، فمهدت للإنسان كل حاجيات حياته، مهداً حانياً على طفولة الإنسان يضمه ويرعاه، وتمهده - إن سلك فيها سبيل ربه - للحياة الأخرى، وهي أحرى من الأولى وأرقى.

فـ ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ لا تختص بالسبل الحيوانية لحياته، بل وإنسانية الحياة هي الأهم الأحرى، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[(٢)].

وكذلك الأمر في ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾: نابتات نباتية وحيوانية وإنسانية أما هيه: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا...﴾[(٣)].

و﴿أَزْوَاجًا﴾ هنا تعم الذكورة والأنوثة كظاهرة مطردة في كافة الأحياء الثلاثة الأرضية، والنبات يحمل في الغالب خلايا التذكير والتأنيث معاً في نبتة واحدة، وأحياناً يكون اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية، وبذلك يتم التناسق في نواميس الحياة ويطرد في كل الفصائل والأنواع.

وقد جمعت الآية عطية الخلق والهدى، الناحية منحى هدى الإنسان إلى غايته القصوى، أعطى الأرض خلقها ثم هداها بتمهيدها لطفولتها التي تحتضنها بمهدها، وسلك سبلها ثم هداها إن سبّلها لإنسانها في مختلف سؤله روحية ومادية، وأنزل من السماء ماءً ثم هداه وهدى الأرض إن أخرج منها أزواجاً من نبات شتى.

---

(١) سورة النبأ، الآيتان: ٦، ٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٣) سورة نوح، الآية: ١٧.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾:

﴿كُلُوا۟﴾ من نباته الشتى ﴿وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ منها، أن في ذلك الإنعام لكم وللأنعام ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ تدل على توحيد الله والحياة الأخرى وما بينهما ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾.

و﴿ٱلنُّهَىٰ﴾ جمع النّهية وهي العقل الناهي عن القبائح كلها، حيث التاء هنا للمبالغة كما في العلّامة، فلم يقل «أولي العقول» حيث العقل منه مدخول لا يَنهى بل ويُنهى بناهية النفس ومن ناحيتها، أم لا يَنهى ولا يُنهى، بتلة بطلة كأن لا كون لها ولا كيان، فلا تستعمل لصالح الحياة ولا طالحها، كالعقول المجنونة، أو المحجوبة عن فاعلياتها.

وهذه الآيات إنما هي ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ تلك العقول الناضجة الناتجة عن تعقلات وتنهيات عن الهوى، فالعقل ما عبد به الرحمن واكتسب الجنان، فالذي في معاوية وكل طاغية هو النكراء والشيطنة، حيث تستخدمه الهوى وتربطه بنفسها فيصبح صاحبه كله هوىً دون أية نهى، ورسل الله وأئمة الهدى هم أفضل أولي النهى(١).

فما من عقل مستقيم يتأمل ذلك النظام البارع العظيم متطلعاً، ثم لا

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٨٢ في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤] قال: نحن والله أولوا النهى، قلت: ما معنى أولي النهي؟ قال: ما أخبر الله به رسوله مما يكون بعده من ادعاء أبي فلان الخلافة والقيام بها والآخر من بعده وثالث من بعدهما وبني أمية فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان كما أخبر الله به نبيه وكما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً وكما انتهى إلينا من علي فيما يكون من بعده من الملك في بني أمية وغيرهم فهذه الآية التي ذكرها الله في الكتاب ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ الذي انتهى إلينا علم ذلك كله فصبرنا لأمر الله عز وجل فنحن قوام الله على خلقه وخزانه على دينه نخزنه ونستره ونكتم به من عدونا كما كتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أذن الله له في الهجرة وجاهد المشركين فنحن على منهاج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يأذن لنا في إظهار دينه بالسيف وندعو الناس إليه فنصيرهم عليه عوداً كما صيرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدواً»..

يطّلع فيه على آيات تدله على الخالق الهادي الحكيم ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ سبحان الخلاق العظيم!

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾:

«كم» في هذه الثلاث تعم كافة الأنسال الإنسانية الحالية الباقية إلى يوم الدين، والسابقة المنقرضة.

وهذه الآية تحمل رباطات ثلاث بين الإنسان ومهده المسبّل له في مختلف مراحله، قبل الدنيا وفيها وبعدها، وما أجمله تعبيراً عبيراً عن مثلث الكيان للإنسان، عبرة للمعتبر، وتبصرة للمتبصّر!.

وهنا «خلقنا» دليل أنه ليس من تتمة المقال لموسى، وعلَّ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ...﴾ أيضاً هكذا، فلحدّ «لا ينسى» هي من حوار موسى، ثم الآيات الثلاث الأخرى تلحيقات تكملها في هذه الشرعة الأخرى.

وقد تكون هذه الثلاث في آيتنا تعنيها السجدتان فيما عنت وعنتا فالسجدة الأولى: اللهم إنك منها خلقتنا، ورفع رأسك: ومنها أخرجتنا، فقد تعنيهما ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ والسجدة الثانية: وإليها تعيدنا، ورفع رأسك من الثانية: ومنها تخرجنا مرة أخرى»(١).

ثم ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ تعني تناسل الذرية إلى جنب الإنسان الأول، مهما بان البون بين الخلقين من تراب، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ إعادة ما خلق منها فيها ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ إخراج لما خلق منها وأعيد فيها، و«كم» في هذه الثلاث تعني جزئي الكيان الإنساني جسداً وروحاً وهي أحرى أن تعينها «كم» فقد خلقنا بأرواحنا وأجسادنا من الأرض منذ البداية في تناسل الذرية،

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٨٢ في العلل بإسناده إلى أحمد بن علي الراهب، قال قال رجل لأمير المؤمنين عليه السلام يا بن عم خير خلق الله ما يعني السجدة الأولى فقال: تأويله اللهم.

فالإنسان الأول خلق جسمه من تراب ثم روحه المنفوخ فيه سلالة من الجسم نفسه، ثم الإنسان عبر التناسل مادة أرضية حتى الجنين ومن ثم ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[1] روحه المنفوخ فيه هو إنشاؤه خلقاً آخر، سلالة من جسمه، وعلى حد المروي عن أئمتنا هو «جسم رقيق قد ألبس قالباً كثيفاً».

فجسم الإنسان الظاهر وجسمه المثالي، بروحه النباتي والحيواني والانساني، إنه في هذه الخماسية مخرج من الأرض ثم يعاد فيها ثم يخرج منها مرة أخرى كما الأولى، بالأجزاء الأصيلة التي عاشها طول الحياة وكما يناسب الحياة الأخرى.

فهنالك أمر محفوظ من كل نفس في هذه المراحل الثلاث، وعلّه النطفة التي خلق منها كل نفس بالروح المنفوخ فيها بعد اكتمالها جنيناً، فالخارج من الأرض يوم الحشر هو المخلوق منها في البداية، وسائر الأجزاء البدنية بين الخلق والحشر زيادات لا تعني حشراً ولا يعنيها الحشر، حيث القصد إيصال الجزاء إلى الروح ببدنها الذي عاشته طول الحياة، دون الأجزاء الأخرى التي هي أصول لنفوس آخرين أم فروع لكل نفس هي ضيف تأتي وتروح، والأدلة العقلية والنقلية الثابتة كتاباً وسنّة لا تثبت أكثر من حشر الروح ببدن مّا هو بأحرى الجزء الأصيل الذي عاشه طول الحياة بما فيها حياة التكليف.

وهذه عظة وعبرة لأولي النهى وكما قرأها رسول الهدى ﷺ على بنته حين دفنها ثم قال: بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله»[2].

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾:

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٠٢ - أخرج أحمد والحاكم عن أبي أمامة قال لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ في القبر قال رسول الله ﷺ: منها خلقناكم... بسم الله...».

وترى ما هي ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ ولم تبرز في هذا المجال إلا آيتان، ثعبان العصا واليد البيضاء:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[١] وهنالك آيات بجنب آية طه تذكر ما أرِيَه فرعون بجميع الآيات[٢] ومنها آية مضت من طه نفسها[٣].

﴿ءَايَٰتِنَا﴾ هنا وفي سواها تعني التسع التي أرسل بها موسى إلى فرعون وملئه على طول الخط، لا فحسب في بداية الرسالة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾[٤] ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾[٥].

وأما ﴿كُلَّهَا﴾ فقد تعني كل التسع المقررة للطاغية، أم أنها نماذج من كافة الآيات البصرية التي أعطيها رسل الله، مهما اختلفت عنها أشكالها أم توافقت، أم أنها مثلثة الآيات، على التوحيد والنبوة والمعاد، عقلية بصيرية وحسية بصرية، فـ ﴿كُلَّهَا﴾ هي الكل الجمعي، دون استغراق الأفراد منها، موزّعة على كافة الرسل.

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.

(٢) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا...﴾ [الأعراف: ١٠٣] (١٠: ١٠) و(١١: ١٢).

(٣) وهي ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه: ٤٢] فإنه ذهاب رسالي إلى فرعون وملئه ككل، دون بدايتها حتى تخص بالآيتين النموذجيتين.

(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ١٠١، ١٠٢.

(٥) سورة النمل، الآيتان: ١٢، ١٣.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بها ﴿وَأَبَىٰ﴾ عنها، ناسباً لها إلى سحر دونما آية برهنة:

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾:

هنا ﴿بِسِحْرِكَ﴾ دليل أنه أراه من آيات الله، فيهدده: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ وكما في الأعراف: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ...﴾[1].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا﴾ استفهام إنكار بكل استكبار ﴿لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؟.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[2]. ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[3].

و﴿لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ نموذجة تعني هذه كلها، أن تستلبونا سلطاننا فلنخرج من أرضنا إذ لسنا نعيش تحت سلطتكم ولا أن نبدل ديننا، وذلك إمحاء لنا عن كياننا، واجتثاث لجذور حيوياتنا.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ مماثلة في أصل السحر ولكنا نحن الغالبون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[4] في سحرهم سحره فتطلَّب موسى في البداية أن يرسل معه بني إسرائيل، والطاغية يقتِّل أبناءهم ويستحيي

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٠٦-١١١.
(٢) سورة يونس، الآية: ٧٨.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ٤٠.

نساءهم خوفاً من تكاثرهم فتغلّبهم، ثم ظهور آية خارقة بيده، لذلك خاف على ملكه، وهذه الثلاث قاهرة باهرة على فرعون وملئه.

فهنا الطاغية يتهم موسى سياسياً لإثارة الساسة والرعية ومن يحبون أرض الوطن، وفي نفس الوقت يتهمه دينيّاً ﴿لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾(١) - وفي الغافر - يجمع بينهما: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾(٢).

وهما من أهم ما يهم كل أمّة، تمسكاً بمبدأي العقيدة والقومية، وحين تجتمعان فهنالك الطامة الكبرى على من يعارضهما، وهكذا يكيد فرعون أمام موسى بمسمع ومرأى حاشيته وشعبه، تفلتاً عن برهانه، وتلفتاً إلى ما يصرفهم عنه علّهم يثبتون ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾(٣).

ثم وليعارضه - على زعمه - يتطلب إليه أن يجعل موعداً لمغالبته في سحره!:

﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ لمعارضة السحر ومغالبته ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ موعداً لا يعذر أحد منا عن حضوره، ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ وسطاً بين الطرفين، سوياً دون ارتفاع ولا انخفاض، فإن السُّوى هي المستوي طرفاه، وهو يعم استواءه في نفسه وبالنسبة للطرفين في المباراة.

ونرى الطاغية في ذلك الكيد الأكيد يستحكم موعده زماناً ومكاناً سُوى، ولكي يخيّل إلى شعبه أنه على شيء، وإلا فلماذا أصل الموعد، ثم لماذا التأكد من زمانه ومكانه العام لتكون المظاهرة في مشهد ومسرح عام؟.

إنه يستحكمه اعتماداً على شايع قدرته وبالغها عند شعبه، فلأن موسى وليد بينهم فلا بد أنه تلميذهم.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧٨.

(٢) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٣) سورة غافر، الآية: ٣٧.

وقد كان ذلك بإشارة من حاشيته: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾﴾[1].

وهذه طبيعة الحال ممن يعارض البرهان، فليس على موسى أن يتطلب ذلك الذي طلبوه لأنه على حجته الباهرة القاهرة، ثم على استعداد تام ليكرر لهم حجته يوم حشرهم لتتمّ عليهم كلهم، فلذلك يجاوبهم من فوره:

﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾﴾:

وقد اختار موسى لتلك المباراة أفضل وقت في أجمع يوم: ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ العيد الشعبي العام حيث الناس فيه يحشرون، إضافة إلى ندائه العام أن يجمعوا فيه لهذه المباراة من سحرة ومن الناس ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾[2].

ثم ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ ليكون الوقت ضاحياً في أوضح فترة من فترات النهار وأشدها تجمعاً يوم الزينة، لا في الصباح الباكر والجميع لمّا يغادروا البيوت، ولا في الظهيرة إذ قد يعوقهم الحرّ أم حاجة الغذاء، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أم من وضوح الرؤية، وإنما وسطاً بين الظهيرة والمساء. وذلك مربع[3] من الحائطة الفائقة لتجمّع أكثر عدد ممكن لمسرح المباراة، وليعلم فرعون وقومه أن موسى أحرص منه وأحرى بتلك المباراة، وأن ما عنده أقوى مما عند فرعون من قوة في ذلك الصراع.

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١١١، ١١٢.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٣٨ - ٤٠.

(٣) وهو أن الموعد يوم الزينة - وقد دعي السحرة - ودعي معهم الناس - وأن يحشر الناس ضحى، وهذه الزوايا الأربع هي التي تجعل ذلك المجتمع أضخم ما يكون واهمه.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠﴾:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ عن موسى وعن الحق الذي جاء به وعن مجلس المواعدة ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ المنتشر بين السحرة والحاشية الملكية وفي نفسه اللئيمة، فما أبقى كيداً إلا جمع بعضه إلى بعض علّه يتغلب على موسى الذي زعمه ساحراً كسائر السحرة.

فقد أجمل ﴿كَيْدَهُۥ﴾ كل قالِه وحاله وفعاله في كيده مما أشار به ملائه وأشاروا له، وما دار بينه وبين السحرة والحاشية من تحميس وتحريض وتحريص، ووعد بكل ثمين ورخيص، ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك الجمع الجامع الجامح في ظنه ﴿أَتَىٰ﴾ يوم الموعد بكل خيله ورجله ورجّاله[1] فما هو - إذن - دور موسى في ذلك الجو الكادح الكالح! وليكون الباطل هو الفالج والحق هو الفالح.

إنه يبدأ قبل كل شيء في هذه المباراة بالعظة الحسنة، المذكرة المحذّرة:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾:

﴿قَالَ لَهُم﴾ وهم فرعون وملائه وسحرته فإنهم من كيده[2] وضمير الجمع راجع إليه بكيده الشامل لهم كأصول، ثم سائر الجمع كهوامش

(١) البحار ١٣ : ١٢١ القمي عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث له طويل عرض فيه القصة على طولها وقد مضى شطر منها «فلما ارتفع النهار من ذلك اليوم وجمع فرعون الخلق والسحرة وكانت له قبة طولها في السماء ثمانون ذراعاً وقد كانت لبست الحديد الفولاذ وكانت إذا وقعت الشمس عليها لم يقدر أحد أن ينظر إليها من لمع الحديد ووهج الشمس. . .

(٢) البحار ١٣ : ١٢١ في حديث الإمام الصادق عليه السلام . . وجاء فرعون وهامان وقعدا عليها (القبة) ينظران وأقبل موسى ينظر إلى السماء فقالت السحرة لفرعون: إنا نرى رجلاً ينظر إلى السماء ولم يبلغ سحرنا السماء وضمنت السحرة من في الأرض فقالوا لموسى: إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين. . .

الضلالة، وكلهم من المفترين على الله كذباً، فرية في إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وتسميتهم وحي الله أساطير، وآية الله سحراً، ورسول الله ساحراً، وقد اشترك ذلك الجمع كلهم في هذه الافتراءات أصولاً فيها أم فروعاً وهوامش، فالنصح - إذاً - يشملهم كلهم، و﴿وَيْلَكُمْ﴾ كلمة مركبة من «وي - و - لكم» أي تباً لكم وواهاً وعذاباً وآهاً.

﴿لَا تَفْتَرُوا. . . فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ إن افتريتم على الله كذباً دون توبة ولا أوبة، والإسحات من السحت وهو استئصال الشّعر بحلق، فهو الاستئصال والإهلاك الساحق الماحق، و﴿بِعَذَابٍ﴾ يعم مثلثه، هنا وفي البرزخ والأخرى، وقد شمل فرعون بجنوده في كل زواياه لأنهم كانوا هم الأصلاء في فرية الكذب على الله ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وخسر على أية حال ﴿مَنِ افْتَرَىٰ﴾ على الله أم وعلى خلق الله، فالفرية دركات كما التصديق درجات.

والخيبة وهي عدم الوصول إلى الهدف من الفرية، هي عذاب فوق العذاب، فللمفتري إسحات عذاب وخيبة أمل، ظلمات بعضها فوق بعض.

لقد قال موسى كلمته القاطعة القاصعة، فلمست منهم بعض القلوب غير المقلوبة من السحرة فتلجلج في أمر موسى، وأخذ المصرون على المباراة يجادلونهم متنازعين:

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾:

وهكذا تنزل الكلمة الصادقة كالقذيفة في معسكر المبطلين فتزعزع نفسياتهم على قدراتهم فتوقع الربكة واللجلجة في صفوف السحرة المقربين المدربين، فتحوجهم إلى إسرار النجوى خوفة من فرعون وموسى!.

والتنازع من النزع وهو جذب شيء من مستقره لينقلع، والنجوى هي المسارّة في أمر بكلام وسواه، وإسرارها هنا تعميق في إخفائها كي لا يسمعها موسى.

ولقد كان ﴿أَمْرَهُم﴾ الذي تنازعوه بينهم أمر التصديق والتكذيب لموسى، فطائفة تحنّ إلى تصديقه، وأخرى إلى تكذيبه، وثالثة عوان بين ذلك، متجاذبين أمرهم بينهم في سر مستسر، فالأولى لا تجرؤ على إظهار أمرها تخوفاً من فرعون وملئه ولمّا يظهر أمر موسى ويبهر، وحتى يتبلج أمره بعدما تلجلج، فضلاً عن أن يجذب المعاندين إلى الحق، والثانية تحاول جذبها والثالثة إلى التكذيب، وبالفعل أصبحت هذه الأقلية الصالحة تحت ضغط الأكثرية الكالحة فسكتوا عما:

﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾:

وعلّه خطاب ذو بعدين من الأكثرية المضللة، لأنفسهم استحكاماً لعرى ضلالهم، وللحائرين مزيداً في تحيرهم، سناداً إلى أهم الأمور الحيوية لكل أمّة سياسياً وروحياً، إخراجاً من أرضكم، وإذهاباً بطريقتكم الروحية المثلى، وكل ذلك بسحر دون أية حقيقة، فهو - إذن - باطل يريد أن يذهب بحقين حقيقين بالبقاء لكل أمة.

فإذا هو ساحر فأنتم أولى بالسحر منه، ثم أولى منه بأرضكم وعرضكم، وطريقتكم المثلى التي لا نظير لها، وذلك أخطر كيد على أمة، لتبقى تحت نير الذل والفرعنة دون أن يؤتى لها مجال التفكير لصالحها يوماً مّا! فلقد استحثوا دفائن ثورتهم من فورتهم يداً واحدة ضد من يريد القضاء على بعدي الحياة الراقية! فاليوم هو يوم المعركة الفاصلة بين الحق والباطل:

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾:

إجماع كيد جماعي في صف واحد متراصّ للاستعلاء على من يريد القضاء على السلطة الزمنية والروحية، وليس - فقط - من الأكثرية

المضللة، بل ومن الأقلية المتلجلجة أيضاً ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾! ولإجماع الكيد بعدان، أوّلهما جمع كافة مكائدهم مع بعض البعض دون فراق، وثانيهما أن يتشاوروا فيما بينهم في ذلك الكيد المجموع.

فإلى ميدان النزال للنضال حتى يعرف الداني من العال، آخذين كل حائطة حاضرة وبائتة:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾:

وهنا عدم البدأة من موسى سياسة لائقة به لابقة في المباراة، فإنه مدافع وليس مهاجماً حتى يبدأ، ثم البادئ في الحوار خاسر على أية حال لا سيما إذا لم يكن مؤيداً من عند الله، فليخسروا هم بتلك البادئة الخاسرة، فلا يرد عليه أن تقديم الشبهة على الحجة إدخال في اللجة ثم لا يعلم الخروج عنها؟ لأن حجية هذه الحجة لم تكن لتظهر إلا بعد ظهور الشبهة، ثم البالغة الدامغة للشبهة!.

ثم هؤلاء المتعودون على اتباع فرعون لم يكونوا لينظروا إلى الحجة البادئة بعين الاعتبار لأنهم في انتظار ما أتى به السحرة، ولكنهم بعده يتأكدون من الحجة اللاحقة الماحقة له، فلتكن حجة الرسالة لاحقة دمغاً لسحر السحرة.

وعلّ خطورة الموقف دفعتهم إلى تخييره في الإلقاء، دون إلزام عليه أحد الأمرين، ثم تقبّلهم ما اختاره موسى هو من مخلّفات اقتراحهم واختياره، ثم من غرورهم بعَددهم وعُددهم وهم بمحضر فرعون وملئه، وكأنهم يرونهم في ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ متقدمين عليه بكل شجاعة وهيمنة لا يتخوفون عن إلقائه، ولا يتحرجون دفاعه في إلقائه!

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾:

و﴿أَلْقُواْۖ﴾ هنا خطاباً لجمع السحرة إلغاء لسحرهم قبل إلقائهم، فلو لم

يطمئن موسى إلى غلبه عليهم كان ﴿أَلْقُوا﴾ منه إلغاء، لإلقاء نفسه بعدهم إلى التهلكة، وهذه أولى خطاه توهيناً لما يلقون، وتهويناً بإلغائه ما يُلقون.

وترى كيف خيّل إلى موسى من سحرهم أنها تسعى، وقد آتاه الله ما آتى؟ إن ﴿يُخَيَّلُ﴾ هنا هو طبيعة الحال من سحرهم لكلّ من رأى، خيالاً لا يعارض يقيناً في بال على أية حال، وذلك نصيب موسى من سحرهم ولكن لمن سواه ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[١].

ثم ﴿يُخَيَّلُ﴾ المستقبل دون «خيل» الماضي، تقضي على ذلك الخيال أيضاً فلا تعني ﴿يُخَيَّلُ﴾ إلا طبيعة الحال من سحرهم لمن يخال دون واقع الخيال لموسى.

ثم السحر من السحارة وهي ما ينزع من السَّحَر - طرف الحلقوم - عند الذبح، فيرمى به، وجعل بناءه بناء النّفاية والسقاطة، فالسحر هو إصابة السَّحَر كسقاطة ونفاية دون واقع، فالساحر كأنه يذبح المسحور وليس يذبح، ويأخذ عقله وحسه وليس يأخذ، وإنما هو تخييل لا يرجع إلى عقل ولا واقع.

فالسحر مهما بلغ من حالة خارقة للعادة، ليس ليأخذ مأخذه في القلوب والعقول، وإنما خطفة من عين أم أذن، وهو يبطل بسحر مثله وكما يبطل مثله، ولا يؤثر فيما يؤثر إلا بإذن الله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٢] اللهم إلا في دعوى الرسالة أم معارضة آية الرسالة، فإنه إضافة إلى القصور الذاتي فيهما يبطله الله تعالى عن بكرته لكيلا ينغرّ به ضعفاء العقول، فضلاً عن أن يأذن الله!.

وتراه كيف يأمرهم بسحرهم والسحر محرم في شرعة الله، ولا سيما ذلك المضلّل لعباد الله؟.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

إنه يأمرهم به لكي يغلب الحقّ في صراع الباطل، ولا يظهر له غَلَب عليه لولا ذلك الصراع! ولكي يدافع عن نفسه تهمة السحر الموجّهة إليه من فرعون وملئه.

وهنا ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ وهناك ﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ يشيان بعظمة ذلك السحر وضخامته عَدداً وعُدداً حتى ليوجس خيفة في نفس موسى:

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾:

والوجس هو الصوت الخفي، فالإيجاس هو التصويت الخفي، فلو كان جلياً لتجلّى في صفحات وجهه، وكان محجوجاً بسحرهم قبل آيته، فلم تكن إلا ﴿خِيفَةً﴾ خفيفة واجسة طفيفة في قرارة النفس، دون استقرار فيها ولا استغرار لها، وإنما هي على غرار ما خيّل إليه.

ويا عظماه من سحرهم وواعجباه إذ بلغت بهم البراعة في فنهم واليراعة في سحرهم إلى حدّ يوجس في نفسه خيفة موسى، وما هي النفس البشرية لو انقطعت عنها العصمة الإلهية آناً مّا، خافت عما لا يُخاف منها، وقد تكون هذه الوجسة مشيرة إلى عظم الموقف وضعف الواقف في نفسه حتى تدركه العصمة الإلهية بالبشرى، وإيجاس الخوف لا يطارد العلم بأنه غالب، وكما يُخاف الميت على علم أنه لا حراك له ولا ضرر منه.

أم قد تكون خيفة موسى من ضلال الناس في هذا المجال، فـ «لم يوجس موسى خيفة على نفسه أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال»[1].

أم الوجستان معنيتان معاً وهما ناحيتان منحى براعة الصناعة وسرعتها وهيبتها، فجاءته من ربه البشرى:

---

(١) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾:

أنت الأعلى في آيتك العظمى، وأنت الأعلى في هدى من اهتدى حيث يتحرى عنها.

﴿لَا تَخَفْ﴾ - ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[(١)] فمعك الحق كله ومعهم الباطل كله، معك ربك ومعهم الطاغية، معك العقيدة ومعهم الحرفة بغية أجر المباراة، أنت متصل بالقوة الكبرى وموصول النياط والنيّات بالرب الأعلى، وهم يتصلون بالأرذل الأدنى، فـ ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

﴿لَا تَخَفْ﴾ هنا كما ﴿لَا تَخَفْ﴾ عندما ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ فإنه لم يكن عشيراً لخارقة قبل أن يرى ما رأى من آيات ربه الكبرى، أم سحر خيّل إليه بحبالهم وعصيهم أنها تسعى، فكان من طبيعة الحال خوفه، ولكنه أمام الآية الإلهية ظاهر ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[(٢)].

فهنا خوف ظاهر يوليه مدبراً عن آية باهرة، ولكن هناك إيجاس خيفة لأنها خارقة خارقة، والخوف هو طبيعة الحال مما لم يأنسه الإنسان على أية حال، ولكنه لما طمأنه ربه - وقبل أن يلقي - أخذ يعظهم وينبئهم بغَلَبه عليهم بعد قليل ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾[(٣)]. ثم حقق ما أنبأ وأوعد بأمر الله:

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾:

وهنا بصورة قاطعة إفلاج الساحر رغم محاولته في إفلاحه، وهناك ﴿إِنَّ

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٠.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٠.
(٣) سورة يونس، الآيتان: ٨١، ٨٢.

ﱡﭐاللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَﱠ مما يبرهن أن الساحر المتحدي آيات الرسالة فالج غير فالح حيث أتى، وبأية قوة وأية كيفية كانت، وعلى ضوئه ندرس أن الآية المعجزة غالبة على أية حال على السحر أياً كان وحيث أتى.

وهكذا نعالج بأس كل ساحر بسحره بقراءة آيات من الذكر الحكيم على موضع السحر بنية صادقة فيبطل. وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ: «إذا أخذتم الساحر فاقتلوه ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾: قال لا يأمن حيث وجد»[١] والقدر المعلوم منه من يعارض بسحره آية النبوة.

وإنما ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ دون «عصاك» على طوله وإجمالها، واختصارها وصراحها؟ عساه ينتبه مرة أخرى أن ليست عصاه بما هي عصاه تلقف ما صنعوا، تخلية لها عن اعتماده عليها، وتحلية لها بتجردها عن نسبتها إليه، وأن الله هو الذي يحولها كما يريد، وهو الذي يعيدها سيرتها الأولى كما خلقها.

ثم و﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ كنتيجة حاسمة لتحولها ثعباناً مبيناً يلقف كيد ساحر: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾[٢].

فبالفعل ألقى موسى عصاه ووقعت المفاجأة الفاجعة الكبرى، فحولت كامل مشاعرهم لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه، ولا يكفي النطق للإفضاء والإفصاح به، فانهارت كل طاقاتهم النفسية فوقعوا على الأرض سجّداً وكأنها دون اختيار، حيث الساحر أعرف بسحره من غيره، فأعرف بالآية الربانية التي تختلف تماماً عن كل أنواع السحر[٣].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٣ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جندب بن عبد الله البجلي قال قال رسول الله ﷺ . . .

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١١٧-١١٩.

(٣) البحار ١٣ : ١٢١ في حديث الإمام الصادق عليه السلام . . . فألقى موسى عصاه فذابت في =

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾:

وهنا ﴿فَأُلْقِيَ﴾ المجهول يصوّر ضخامة الموقف، بمدى تأثير الآية الإلهية في نفوس السحرة لحد لم يتمالكوا أنفسهم عن سجدة كأنها أتوماتيكية، وتراهم كيف ألقوا سجداً بعدما ألقى موسى عصاه، حيث ألغوا ما ألقوا؟

لأنهم رأوها ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[1] واللقف هو تناول بحذق، وقد تناول ثعبان العصا وتلقف كلّ ما أفكوا.

فعصا صغيرة تتحول ثعباناً عظيماً فتلقف كل عصيّهم وحبالهم من ناحية، ولها ما للثعبان من أعضاء خلاف حبالهم وعصيتهم التي كان يخيل إليه من سحرهم - فقط - أنها تسعى دون أعضاء، من أخرى، وعدم رجعها ما لقفته من ثالثة، وعودها عصاً صغيرة كما كانت من رابعة، - وواحدة منها يستحيل أن تتم بأيّة حيلة ساحرة - كل ذلك جعل السحرة قاطعين كوضح النهار أنها آية إلهية قاهرة وليست حيلة ساحرة!.

وإنها اللمسة المفاجأة القوية تصادف العصب الحساس فينتفض كيان الإنسان كله، كما تصادف الذرة فتفجرها وتشرق النور عن ظلامها، وقد تحولت السحرة كلهم من ظلام الشرك إلى نور التوحيد بكلمة واحدة ساجدين ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾! ولماذا ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ دون

= الأرض مثل الرصاص ثم طلع رأسها وفتحت فاها ووضعت شدقها العليا على رأس قبة فرعون ثم دارت والتقمت عصي السحرة وحبالها وغلب كلهم وانهزم الناس حين رأوها وعظمها وهولها مما لم تر العين ولا وصف الواصفون مثله قبل فقتل في الهزيمة من وطء الناس بعضهم بعضاً عشرة آلاف رجل وامرأة وصبي ودارت على قبة فرعون قال عليه السلام: فأحدث فرعون وهامان في ثيابهما وشاب رأسهما وغشي عليهما من الفزع ومر موسى في الهزيمة مع الناس فناداه الله: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١] فرجع موسى ولف على يده عباءة كانت عليه ثم أدخل يده في فمها فإذا هي عصا كما كانت...

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٧.

«ربنا» أو «رب العالمين»؟ حتى يميزوه تعالى عن أرباب أخرى. فـ «ربنا» و«رب العالمين» قد يخيل منه أنه الطاغية لمكان دعواه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[١] ولكن موسى وهارون الناكرين لكل ربوبية إلا الله، كان التصريح بهما في ذلك الموقف صراحاً لتلك الربوبية الصادقة الماحقة لسائر الربوبيات، مهما بدلوا الصيغة في حوارهم مع الطاغية: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[٢]. اعتماداً على تلك السابقة السابغة الصارحة الصارفة ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ وقد يتقدم هارون هنا على موسى لكي تحسم مادة ربوبية الطاغية لموسى ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾[٣] فإنه موسى دون هارون، فليقدّم عليه هارون حسماً لذلك التخيل واستأصالاً له عن بكرته.

هنا ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ - جمعاً محلى باللّام الدال على الاستغراق -، ألقوا سجداً مؤمنين بالله وهم إليه منقلبون، وفي يونس ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾[٤] والسحرة جم غفير وهم لم يكونوا من قوم موسى فكيف التوفيق؟.

علّ هذه القلة المؤمنة من قومه كانت قبل أن يلقي عصاه - وقد ألقوا حبالهم وعصيهم - وبعد عظته لهم: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ... فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ...﴾[٥].

ولكنما السحرة آمنوا به بعدما ألقى عصاه صامدين غير متخوفين كما هو صراح حوارهم مع الطاغية حين أخذ يهددهم!:

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٨.
(٤) سورة يونس، الآية: ٨٣.
(٥) سورة يونس، الآيات: ٨١-٨٣.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾:

ذلك! وأنّى للطغاة أن يدركوا الإسلام ويميزوه عن الاستسلام، أنّى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب بأمر من مقلب القلوب، وحتى قلب الطاغية حيث أحب عدوه موسى ورباه في حجره عُمُراً دون أن يعرفه بعدائه.

وهكذا يخيّل هنا إلى الطاغية أن الإيمان بالله هو - من ضمن سائر الاستسلامات لأمره - لا بد وأن يكون بإذنه، وكأن القلوب من ممتلكاته كما القوالب ضمن ما سيطر عليه بالسيف والنار، خلطاً بين القوالب والقلوب وهي لا تُقلب بإكراه ولا يُغلب عليها بإكراه فـ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾[1]!

ثم وركيزة الإيمان في القلوب درجات، فقد تضعف أم تنمحي بما يتغلب عليها تسويلاً، أم تبقى ولكن صاحبها يتظاهر بخلافها حفاظاً على حياته ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[2] وقد تركز لحد تحلّق على كل كيان المؤمن، وللحفاظ على سيادة الإيمان أمام الطاغية، وهدي المستضعفين المستغلّين إلى الإيمان، لا يخافون أي تحديد أو تهديد وكما نراه من سحرة فرعون، فإن موقفهم الحاسم كان يتطلب هكذا صمود في ظاهر الإيمان كما في باطنه، فما قيمة إيمان في الباطن بكفر يتّقى به في الظاهر، حيث يغري المتحرين عن الهدى ويبقي الباغين للردى، وليس ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ إلا جوّالاً يضر بكتلة الإيمان، ولا بالضالين المتقبلين له بحجة ظاهرة باهرة.

ونرى الطاغية هنا وقد خسر السحرة وهم كل من يملكهم من الحجة في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

تلك المباراة، نراه يتهمهم كما اتهم موسى، حسماً للموقف المتزعزع بين الحاضرين: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فهنالك تواطؤ بينكم ومؤامرة كانت خفية، وقد ظهرت في ذلك المسرح الصريح.

وقد صبغ الموقف بصبغة سياسية إضافة إلى الروحية، إن السحرة احتفوا حول كبير لهم هو موسى وكما في الأعراف: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ. . . قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[1].

وهذه هي دعاية متعودة بين فراعنة التاريخ أمام الرسل والمؤمنين، صداً لزعزعات المستضعفين، تزييناً لهم سلطاتهم الروحية والزمنية، وتهديداً بأن في تقبّل الدعوة الرسالية زوالها وهي حياة الرعية، فالقائد يعارض تلك الدعوات حفاظاً على صالح الرعية روحياً وزمنياً.

وإن في ذلك تعمية منهم في بعدين بعيدين، أولاهما هي فاسد السلطة الروحية الحاضرة، وأخراها هي صالح الأخرى الزمنية المحتضرة، إظهاراً للحق بمظهر الباطل والباطل بمظهر الحق «فهنالك استحوذ الشيطان على أولياءه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

ولما يرى الطاغية أن هذه الدعاية والفرية الماكرة لا تؤثر في صميم إيمانهم، ولا يزعزع من مكين إيقانهم، انتقل منها إلى تهديد بنوع آخر: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ استعلاءً بالقوة الغاشمة الوحشية التي تستعمل مع الوحوش، دون تمييز بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالنائبة.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ عذاباً معمولاً متداولاً بحق أفسد المفسدين، ثم ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ عذاباً فوق العذاب لقمة الإفساد، ولكي ينظر الناظرون فيعتبروا، وينذر المنذرون فلا يتبعوهم، ومن ثم

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٢٣-١٢٥.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾؟ هل هو موسى بما يهددكم بعذاب الأخرى، أم أنا المعذب لكم هكذا في الأولى، وأين غائب من حاضر، وموعود من واقع؟ ثم ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ سلطة، هل أن موسى هو الأبقى وهو في يدي وتحت سلطتي، أم أنا الأبقى، فأين إله موسى حتى يعذبني وملئي حتى لا نبقى؟ وأين هو من هذا المسرح حتى يبقى موسى فلا نبقى؟.

فلقد هددهم فرعون بما هدد فما أبقى، ولكنه ما يصنع التهديد - أياً كان - بحديد الإيمان وشديده بأشدّه، اللمسة الإيمانية التي وصلت إلى أعماقهم، واندغمت في ذواتهم، فلا تزهق مهما أزهقت أرواحهم، حيث آثروها على الحياة الدنيا بحذافيرها، فلا يخافون إذاً أظافيرها بحذافيرها:

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾:

﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾(١) - ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾(٢).

هنا نرى قمة الصمود على ضوء الإيمان المحلّق على كل جنباتهم الحيوية، فلا يؤثرون عليه أمراً، ولا يؤثّر فيهم دونه أمر مهما كان إمراً.

ثم ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ قد تلمح بأنهم كانوا من قبل موحدين، أم أنه انقلاب بحكم الفطرة والعقل والآية البينة، ثم ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ﴾ تصريحة أنهم ما سحروا هناك مباراة بل مجاراة للطاغية إكراهاً منه عليه، وعلّه بعد الانقلاب الأول لعصا موسى ثعباناً مبيناً لدى فرعون، وبعدما

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٥٠، ٥١.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٢٥، ١٢٦.

وعظهم ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ ثم أكرههم فرعون على سحرهم وأن ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ...﴾ فلذلك تأدّبوا وتليّنوا مع موسى في المباراة.

ولذلك أصبحوا هنا ﴿أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ صموداً وزمناً، ومن صمودهم إحالتهم إيثار الطاغية ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فطرية وعقلية وحسية وعلمية أماهيه وعلى ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾، أم قَسَماً بالذي فطرنا، وهما معاً معنيّان، وأنت كمثلنا مفطور له، وقد فطرنا على فطرة التوحيد، ففطْر الخلق من ناحية، وفطرة التوحيد المندغمة في الخلق من أخرى، آيتان بينتان بجنب هذه الآية العظمى أنه هو الله ربنا لا إله إلا هو ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ علينا كما تهددنا فـ ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ قضاءً مقصوراً بها، محصوراً فيها، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع قليل.

فـ ﴿مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ هنا تعم الأنفسية إضافة إلى الآفاقية، ونفس قصة العصا بيّنات، انقلاباً ولَقْفاً وعودة إلى سيرتها الأولى دون إعادة لما لقفت!.

وترى كيف ﴿تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ وليست قضاءه إلا فيها على من فيها أم لهم؟ علّها لأنها مفعول به، وقضاء هذه الحياة الدنيا هي إزالتها، فقصارى قضاءك هنا قضاءها، حياتنا كما حياتك، وأما الحياة الآخرة وهي العليا فليس لك قضاءها، فأنت تهددنا بقضاء هذه الحياة وهي الدنيا، وشرعة الله تهددنا بالآخرة وهي الحياة العليا، وأنت شر وأدنى وأفنى ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾.

ثم و﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾ قد تعني تعلمه وتعليمه وإعماله من قبل وفي هذه المباراة، والتماس الغفر عن الخطايا ليس إلا في المقصرة العامدة، أم والمكرَه عليها فيما يمكن التخلص عنها كهذه التي ارتكبوها وارتبكوا فيها، والآن هم يستغفرون الله عنها في ذلك الموقف الحاسم،

القاصم ظهر الطاغية، الجاسم الباسم ظهر موسى والذين معه، وهذه هي من قمم التوبة العليا، إنقلاباً كلياً إلى الله سناداً إلى آياته الباهرة وتبييناً لها بين الجموع المحتشدة الحاضرة، ملتمسين من الله أن يفرغ عليهم صبراً أمام الطاغية، وأن يتوفاهم مسلمين، تخليصاً لإيمانهم عن هذه اليد الأثيمة اللئيمة، مهما قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبوا في جذوع النخل، فـ ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ . . . وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾! إنه ﴿خَيْرٌ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ فيها ثواباً وعقاباً، وذلك رد على قولة الطاغية ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾:

وتراها واللتين بعدها هي تتمة المقال للسحرة؟ وكيف يكون لجديد الإيمان والناشئ على الكفر هذه المعرفة السليمة عن مستقبل المجرم والمؤمن! فهي إذاً بيان رباني لقضية الموقف، أم هم درسوا الشرعة الإلهية من ذي قبل كما تلمحناها من ذي قبل فنقلوا ما قالوه عن لسان موسى.

و﴿مُجْرِمًا﴾ هنا تعني إجرام ثمرة الحياة قبل إيناعها، إجراماً عقيدياً وإجراماً علمياً وأخلاقياً وعملياً، فردياً وجماعياً، نكراناً لخالق الحياة أم إشراكاً به، وتكذيباً بالحياة الأخرى ورسالة السماء، فلا يعني فاعل الصغيرة ولا الكبيرة فإنه لا يخلد في النار و﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ. . . وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾[1].

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ أن يموت بحالة الإجرام دون توبة صالحة ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ حيث الحياة الإجرامية حياة جهنمية، ثم و«يأت ربه» دون «الله» هو إتيان إلى يوم الرب بربوبية الجزاء، كما كان آتياً إليه يوم الدنيا بربوبيته

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٧٤-٧٧.

التكليف، فليس إذاً إتيان المجرم إلى مكان للرب، وإنما إلى مكانة الربوبية المناسبة ليوم الجزاء - فـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[(١)] صادرون منه وراجعون إليه.

ثم ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ مواصفة لأبدية الخلود، وقد يتمسك بها في لا نهائيتها الحقيقية، ولكن التعبير الصالح عنها ﴿لَا يَمُوتُ﴾ دون تقيد بـ ﴿فِيهَا﴾، حيث الموت فيها يعني بقاء جهنم بعد موت من فيها، والآية تنفيها، وأما الموت معها إذ لا نار ولا أهل نار، فالآية لا تنفيها، ثم تثبتها أدلة أخرى كما فصلناها في مواضعها الأخرى[(٢)]، ومن أهل النار من يخرج منها ويدخل الجنة، فلا يموت أبداً لا في النار ولا في الجنة فالآية - إذاً - تشملهم.

وقد تخص ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ المؤبدين فيها، وأما الخارجون عنها فقد يموتون فيها ثم يحيون للجنة[(٣)] ولكنه احتمال لا نصير له قاطعاً، والموت في الخبر مؤول إلى موت الأجزاء البدنية الجهنمية.

أجل ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ تخلصاً عن عذابها وهي باقية، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ في ﴿لَا يَمُوتُ﴾ حياة لها حظوتها، بل هي موتات متواترة دون فصال، حيث عوامل الموت حاصلة، والحياة معها ماثلة، وذلك أشد العذاب أن يوازي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) كما في سورة الإسراء والنبأ وأضرابهما حيث فصلنا البحث عن استحالة الأبدية الحقيقية للعذاب. وموت أهل النار في محتملات أربع: موتهم فيها قبل فنائها، أم موتهم بعد فنائها، أم بقاءهم فيها دون زوال إطلاقاً، أم موتهم معها فناءً لهما، والآية إنما تنفي الأولى، والثانية تنفيها أبدية الخلود، والثالثة منفية بأدلتها، فالرابعة هي الصالحة بأدلتها.

(٣) الدر المنثور ٤: ٣٠٣ أخرج مسلم وأحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٧٤] فقال ﷺ: أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت القثاء في حميل السيل».

عمر المعذب فلا هو ميت فيستريح ولا هو حي فيتمتع، إنما هو العذاب الواصب ما هو حي وما دام العذاب، ثم لا نار ولا أهل نار.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾:

فهنالك أشد العذاب للآبدين في النار، وهنا الدرجات العلى للمؤمن الذي عمل الصالحات، وهذه تخص السابقين والمقربين وقسماً من أصحاب اليمين، فإن لهم خالص الرحمة في الأخرى ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾.

وبين الفريقين طائفة أخرى من أصحاب اليمين لهم درجات عالية أم متوسطة أم دانية حسب درجات الإيمان والصالحات، وهم لا يدخلون النار.

وطوائف من أصحاب الشمال يدخلون النار ثم يخرجون عنها قبل فناء النار، طال مكوثهم فيها أم قصر.

وتلك الدرجات العلى، الشاملة حظوة الروح والجسم معاً حيث ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]. هي:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾:

والعدن هي الاستقرار، والحياة المطلقة دون ممات أم خروج هي قضية فضل الله، كما الفناء مع فناء النار للآبدين في النار هو قضية عدل الله، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى والعظيم المثوى ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ قلباً وقالباً، إيماناً وعملاً صالحاً.

وهذه من المشاهد القليلة النظير في تاريخ الرسالات حيث تعلن في إذاعة قرآنية مدى حرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطانها، وانتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة العقيدة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ
يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ
ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ
أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ
وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ
غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ
وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ
هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ
مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ
قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ
أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ
أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا
فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ
إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا
يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا
فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ
عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ
ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ

بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

هنا يطوي السياق طياً عن كل ما حصل بعد هذه المواجهة من فرعون وملئه مع موسى وملئه، قفزة إلى مسرح الانتصار الأخير بعد الأول وليعتبر أولوا الألباب، وقد نتلمّح كصراح من آيات أخرى للقصة إن لم يكن وحي الإسراء دون فصل عن ذلك المسرح، وأن هناك ردحاً من الزمن بينه وبين غرق فرعون وملئه[1] عاشه موسى والمؤمنون به في الجو الفرعوني، حتى قضى موسى ما حمّل ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ...﴾[2] وفرعون يحتال حيلاً لتشويه السمعة الرسالية الموسوية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[3].

وموسى يؤمر أن يتبوأ لقومه بيوتاً: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا

(١) البحار ١٣ : ١٢٨ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: أملى الله عزّ وجلّ لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة والأولى وكان بين أن قال الله عزّ وجلّ لموسى وهارون: قد أجيبت دعوتكما وبين أن عرفه الله الإجابة أربعين سنة.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٢.

(٣) سورة القصص، الآية: ٣٨.

لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وذلك هو قضية الحال من تلك الآية الإلهية في ذلك الحشد العظيم، وما ركزت في قلوب من آثار، فلا يسطع فرعون أن يقتل موسى ومن معه لتثاقل الجوّ وتعاضله إذ كانوا يمنعونه رغم همّه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[2].

مهما كان هناك مرتزقة من ملئه يشجعونه على قتله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[3].

فلما قضى موسى ما عليه من آيات بينات، وتصبّر ما كان له مجال على أية حال، ووصل أمره إلى ملاحقة فرعونية شاملة حاسمة للدعوة والداعية، أتى أمر الله:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾:

ووحي الإسراء هكذا يوحي بمدى الملاحقة الفرعونية بعد ذلك المسرح الصراح للحق في صراع الباطل، و﴿بِعِبَادِي﴾ مما يلمح بإيمان من آمن من السحرة كما لمسناه، أمّن سواهم كما هو قضية الموقف، فلا تعني «عبادي» فقط بني إسرائيل مع ما لهم من تخلفات عن توحيد الله وعن شرعة الله، فهؤلاء السحرة هم أحق منهم وأحرى بهذه الصيغة السائغة للصالحين، وكأضرابهم في بني إسرائيل مهما كانوا قلة، ومنهم من هم أحرى من

(١) سورة يونس، الآية: ٨٧.
(٢) سورة غافر، الآية: ٢٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

السحرة في «عبادي» ثم الثلة الباقية منهم تشملهم «عبادي» قضية كونهم موحدين مهما ضعفوا، وأنهم كانوا يُستضعفون، والله يضيفهم إلى نفسه تحنّناً عليهم وترحماً.

وعلّ القدر المعلوم هنا من «عبادي» هم بنو إسرائيل حيث النص لا يذكر السحرة من هذا المسرح إلى آخر المطاف، فلعلهم قتلوا كما أوعدهم الطاغية، أم ولأقل تقدير سجنوا أم حوصروا كي لا يلحقوا بموسى، فضلاً عمن سواهم من القبط الذين آمنوا هناك.

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ وهو سري الليل وسيره: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[(١)] فسريُ الليل سرّ يخفى على الطاغية.

فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[(٢)].

واليبس ما كانت فيه رطوبة ثم زالت أو ماء فذهب، فقد انفلق البحر وأصبح طريقاً يبساً فـ ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا﴾ من الطاغية ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ غرقاً في البحر.

وهنا ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ بصيغة الإفراد قد تطارد الرواية القائلة إنه ضرب في البحر اثني عشر طريقاً حسب اقتراح الأسباط الاثني عشر، أم تعني ﴿طَرِيقًا﴾ جنسه المناسب لعديده، ولا دليل عليه ولا هو الأظهر منه أو الظاهر بل ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[(٣)] تلمح باهرة لوحدة الطريق.

ذلك! إضافة إلى أن في اتباع الحق أهواءهم، ولا سيما هذه المفرقة بينهم وهم بحاجة إلى توحيد الكلمة على كلمة التوحيد، إن في ذلك فساداً

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٦٣.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٦٣.

لهم وكساداً للحق المرتجى منهم على ضوء هذه الرسالة القدسية الماحقة لمختلف الأهواء، الساحقة لمختلف الآلهة!.

ومن ثم فانقسامهم إلى أقسامهم الاثني عشر ليختص كل بكلّ، هذا يتطلب فرصة، وقضية الفرار ولا سيما بعدما تراءى الجمعان، هي التسرع دون أي لبث لأيّة مهمة أو قرار، فحتى إن كانوا متطلبين ذلك التفرق إشباعاً لتفاصل الأسباط، لم يكونوا يتطلبوه وهم في خطر الإدراك وكما قالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[1]! فهنا نقطع أن ﴿طَرِيقًا﴾ هي واحدة، والرواية هي من المختلقات الإسرائيلية.

وهذه خارقة إلهية أخرى تظهر من عصا موسى، فيها نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون بجنوده:

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨﴾:

التبعية هي اللحوق والمتابعة، والاتْباع هو الملاحقة، فقد لاحقهم فرعون بجنوده ليأخذهم، ولكنه متى؟ ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧﴾[2].

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ غرقاً شاملاً ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ منه، وما أجمله إجمالاً عن غرقهم بصورة مهينة وكأنهم غثاء ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ...﴾[3].

(١) سورة الشعراء، الآية: ٦١.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٦٠-٦٧.
(٣) سورة القصص، الآية: ٤٠.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾:

ومن إضلاله قوله لهم ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1] حيث صوّر لهم ضلالة هدى، وهدى موسى ضلالاً، أضلهم على طول الخط في سلطته الجبارة وإلى غرقهم، وعلّ منه ما يروى عن رسول الهدى ﷺ أن قال: من قوله لعنه الله لجنوده: «ترون البحر قد يبس من فرقي فصدقوه لما رأوا ذلك»[2].

وبطبيعة الحال لم يكن غرقهم أجمعين إلا بعد اقتحامهم في البحر أجمعين، نزولاً إلى الطريق اليبس، إذ لو رجع البحر حين نزلوا إلى ما كان لم يلحق آخرهم أولهم، وإنما مُكِروا ببقاء الطريق اليبس حتى آخر نفر منهم ثم أطبق عليهم دون إبقاء، بعدما نجى موسى ومن معه: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[3] - فـ «ثم» هنا تؤخر غرقهم عن نجاة موسى ومن معه.

ويا لها من معركة صاخبة بين كتلتي الإيمان والكفر، فالأولون يملكون كافة الطاقات الروحية، والآخرون لهم طاقات مادية، فلم تكن الطاقتان متكافئتين في الواقع المادي، فلا سبيل إلى خوض المعركة مادياً حيث تكلّ الطاقة الروحية أمام من لا أرواح لهم إنسانية.

فهنالك تتولى يد القدرة الإلهية إدارة المعركة، بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان والتصبر عليه في نفوس نفيسة لا تملك قوة سواها، فترفع راية الحق مرفرفة عالية، وتنكّس راية الباطل مخففة خاوية، وليعلم الذين آمنوا أن الله

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٩.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٨٥ في كتاب سعد السعود عن ابن عباس أن جبرئيل قال لرسول الله ﷺ - ونقل حديثاً طويلاً في حال فرعون وقومه وفيه وإنما قال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّازعات: ٢٤] حين انتهى فرآه قد يبست فيه الطريق فقال لقومه: ترون البحر..

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

هو ناصرهم في حاضرهم كما في مستقبلهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾(١) فقد ناسب الجو هنا التذكير بهامة النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، وما واجهوها بها من تخلّف ونكران وكفران لأنعم الله، ما يوطئ الرؤوس لاصقة بالأرض تخجلاً لو كانت لهم رؤوس إنسانية!:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾:

عرض لبعض النعم التي أنعم الله عليهم، سلبياً: «قد أنجيناكم من عدوكم» من سلطته الزمنية والروحية الطاغية حتى صلح الظرف لإيجاب السلطة الشرعية فإيجابياً: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ إضافة إلى منن مادية: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ ومتى؟ حين كنتم تتيحون في الأرض أربعين سنة في صحراء قاحلة جرداء، وعلهما من الغذاء وسلوى الأمن كما فصلناهما في البقرة قائلين لكم: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾: فيما رزقناكم طغياناً في نعم الله، ابتغاءً له من حرام، أم صرفاً في حرام من سرف أو أياً كان، أم نكراناً فكفران كذلك ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ الله، في ألوهيته أن تشركوا به أم تنكروه، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ في هوّات رغم ما له من قوات، ولقد هوى فرعون أمامكم، هويّاً عن عرشه إلى فرشه ثم هوى إلى الماء ومنه إلى جهنم وبئس المهاد.. والهوي يقابل الطغيان وهو من خلفياته طال أم قصر، قل أو كثر.

وترى ماذا يعني غضب الله وهو تغير الحال والله لا يتغير من حال إلى حال بل ليست له حال على أية حال فـ «لا يتغير بانغيار المخلوقين»؟

(١) سورة الحج، الآية: ٣٨.

إنه من الله العقاب، حيث الصفات والأفعال المتشابهة المنسوبة إلى الله تجرّد عما لا يناسب ساحة الألوهية، إذاً فغضب الله عذابه كما رضوانه ثوابه و «من زعم أن الله عز وجل زال من شيء إلى شيء فقد وصفه صفة مخلوق، إن الله عز وجل لا يستفزه شيء ولا يغيره»[(١)].

وإذا ابتليتم بذنب من إشراك بالله أم أيّة كبيرة عقائدية أو عملية ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ...﴾.

هنا ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ وفي البقرة: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٢﴾[(٢)] وفي الأعراف: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[(٣)].

أترى هذه الثلاث تحمل مواعدة واحدة جامعة مرة كما هنا، ومفردة أخرى كما في هاتين؟.

كأنها هي! حيث الأربعون هي الثلاثون المتمّمة بعشر، أم الأربعون تجمع المواعدتين، الثلاثين الحاضرة الظاهرة، والعشر المتمّمة لها بعدها ابتلاءً لبني إسرائيل، إلا أنها لم تكن ظاهرة من ذي بدء.

وهذه المواعدة وإن كانت تعم بني إسرائيل، ولكنما موسى عليه السلام هو

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٨٦ في كتاب التوحيد بإسناده إلى حمزة بن الربيع عمن ذكره قال كنت في مجلس أبي جعفر عليه السلام إذ دخل عليه عمرو بن عبيد فقال له جعلت فداك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١] ما ذلك الغضب؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: هو العقاب يا عمرو أنه من زعم...

وفيه عن الاحتجاج عنه عليه السلام مثله وفيه: من ظن أن الله يغيره شيء فقد كفر.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

المحور الأصيل فيها، فعلّه لذلك «واعدنا موسى ثلاثين - أو - أربعين ليلة» ثم هنا ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ وهو الجانب الأيمن حيث فيه يمين الوحي ويمنه. ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾ لنزول ألواح التوراة الحامل لهذه الشرعة الإلهية.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ علاج حاسم ذو قواعد أربع بالنسبة لكل عصيان أو طغيان، ومنه الإشراك بالله وكما تطلبوه حين جاوزوا البحر: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾(١)، ومن ثم توغّلوه في غياب موسى، مهما كان قتل أنفسهم شريطة التوبة: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٢).

والتوبة في هذه الأربع هي الخطوة الأولى إلى المغفرة، وليست هي لفظة تقال، إنما هي عزيمة في القلب توبة إلى الله في ترك الحوبة، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن.

ثم الخطوة التالية لها «وآمن» حيث العصيان يضر بالإيمان أو يمحيه، فليرجع بالتوبة إلى ما كان من الإيمان، فلا يكفي الإصلاح عملياً ما لم ينبع من إيمان.

ثم الثالثة ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ حيث الإيمان دون العمل الصالح لا يفيد تلك الفائدة المترقبة، فكما أن العاصي عصى في قلبه وبقالبه، فليؤمن بقلبه وقالبه، و﴿صَٰلِحٗا﴾ منكّراً هو الذي يصلح ما أفسده ويزيله إلى صالح لحظيرة الإيمان وحضرة الرحمان.

ثم الرابعة والأخيرة في هذا المسرح ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أتراه لم يهتد بعد بهذه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٤.

الثلاثة، وكلّ من بنود الاهتداء؟ أجل، ولكنما المعني من ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ بعدها، هدىً بعد هدىً، فلا تكفي للمغفرة الشاملة الكاملة أن يهتدي عن خصوص ما ضل، وله ضلالات أخرى غيرها، قبل التوبة وبعدها، فلا تضمن هذه التوبة الثلاثية إلّا خصوص ما تاب عنها، وأما إذا ما «اهتدى» هدىً عن كل ضلال «فإني لغفار» غفراناً مؤكداً بالغاً ذروته مبالغاً، يشمل كل ما يتطلب الغفران، غفراً عما كان إمحاءً له، أم عما يريد ليحصل صداً عنه، فهي إذاً مغفرة رافعة ودافعة، تجعل المغفور له في هدىً صالحة غير كالحة.

وقد تعني «ثم أهدى» مع ما عنت، الاهتداء إلى الله بالسبل إلى الله، فما قيمة توبة وإيمان وعمل صالح دون وسيط الوحي، وهو الرسول أولاً ومن ثم الأئمة من آل الرسول الذين يحملون كل ما حمله عن الله[1].

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾:

لقد أعجل موسى عن قومه إلى ميعاد ربه لمرضاته تعالى، فإنه مفتاق إلى مناجاة ربه مشتاق، و«المشتاق لا يشتهي طعاماً ولا يلتذ شراباً ولا

(١) نور الثقلين ٣: ٣٨٧ في أمالي الصدوق بإسناده إلى النبي ﷺ حديث طويل وفيه يقول لعلي عليه السلام ولقد ضل من ضل عنك ولن يهتدي إلى الله من لم يهتد إليك وإلى ولايتك وهو قول ربي عز وجل: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].
وفيه عن أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن الله تبارك وتعالى لا يقبل إلا العمل الصالح ولا يقبل الله إلا الوفاء بالشروط والعهود فمن وفى لله عز وجل بشرطه واستعمل ما وصف في عهده حال ما عنده واستكمل وعده أن الله تبارك وتعالى أخبر العباد بطرق الهدى وشرع لهم فيها المنار وأخبرهم كيف يسلكون فقال: وإني لغفار... وقال: إنما يتقبل الله من المتقين - فمن اتقى الله فيما أمره لقي الله مؤمناً بما جاء به محمد ﷺ.
وفيه عن تفسير القمي عن الحارث بن عمر عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: ألا ترى كيف اشترط ولم ينفعه التوبة والإيمان والعمل الصالح حتى اهتدى، والله لو جهد أن يعمل ما قبل منه حتى يهتدي، قال: قلت: إلى من جعلني الله فداك؟ قال: إلينا.

يستطيب رقاداً ولا يأنس حميماً ولا يأوى داراً ولا يسكن عمراناً ولا يلبس لباساً ولا يقر قراراً ويعبد الله ليلاً ونهاراً راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق إليه ويناجيه بلسان شوقه معبراً عما في سريرته كما أخبر الله موسى بن عمران عليه السلام في ميعاد ربه بقوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ وفسّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن حاله أنه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا أشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوماً شوقاً إلى ربه»[١].

فبالفعل ترك موسى قومه إلى جانب الطور الأيمن، حيث غلب عليه الشغف إلى مناجاة ربه وقد ذاق حلاوتها من ذي قبل، فهو إليها مشتاق عجول، فيسأله ربه عما أعجله عن قومه، ولماذا لم يصاحبهم والمواعدة كانت تشملهم معه، وهو يجيبه ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ يتبعونني حسب القرار من فورهم ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ حيث المواعدة إنما هي لصالح الرسالة، فليسبق الرسول قومه لتلقّيه، ولكي يحضّر موسى نفسه قبلهم في ميعاد ربه، وعلى أيّة حال لم تكن هذه العجلة إلا ﴿لِتَرْضَىٰ﴾.

وقد تعني ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ فيما عنت، أثر التربية الرسالية فلا خوف عليهم رجعة عنها، ثم وهارون أخي هو خليفتي عليهم فحتى إذا تأجلوا فهم تابعون أثري.

أترى أن قومه كلّهم كانوا على ميعاد مع موسى، وقد سبقهم أن يكونوا على أثره دون تأجيل، فكيف يستخلف موسى أخاه هارون في هذه العجالة القريبة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٢].

---

(١) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام أقول: وقد يعني ترك ما ترك في ذلك الأربعين عدم الاهتمام به دون ترك مطلق حيث لا يطيق الإنسان أياً كان أن يترك حاجيات الحياة البدنية طيلة هذه المدة الطائلة.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

قد تصلح الخلافة لفترة قصيرة كما الطويلة، حيث الحفاظ على بني إسرائيل كان ضرورة دائبة على ضوء هدي الرسالة، فليخلف موسى أخاه هارون في هذه العجالة، ولعلهم تأجلوا عن أثره لحوقاً به، فتخلفاً عن أثره في شرعته.

أم أن المواعدة لم تكن تعني إلا السبعين المختارين: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ...﴾[1] وطبعاً لم يكونوا هم ممن عبدوا العجل وإلا فكيف يختارهم لميقات ربه؟.

وقد تلمح آية الاختيار بلحوقها آيات الاختبار في غياب موسى، أنه اختارهم من بينهم بعدما عبدوا العجل.

فظاهر المواعدة وإن كان يشمل قومه كلهم، ولكن نكسة الاختبار حوّلهم إلى ذلك الاختيار، فلا يليق من عبدوا العجل لحضور الميعاد المختار.

وعلى أية حال فقد استعجل عن قومه كلهم أو مختاريهم، ونرى عرض القصة في الأعراف بنفس النمط باختلاف في صيغة التعبير يسير: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ. . .﴾[1].

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾:

لهذه الفتنة الإسرائيلية جانبان، رباني وشيطاني، والثاني مقسّم بينهم وبين السامري، فقد كانوا منحازين إلى الأمور المادية والحسية في قرارات أنفسهم، إضافة إلى الاستعباد الطويل في ظل الفرعنة المادية الطاغية، مما زاد في الطنبور نغمة أخرى، تاركاً في كيانهم النفسي خلخلة واستعداداً لكل تقليد أعمى وانقياد، فلذلك ما كان يتركهم موسى وأنفسهم، وترك لهم أخاه هارون في هذه العجالة ولكنهم فُتنوا.

والسامري من ناحية أخرى أضلهم على ضلالهم، وقد تركهم الله وإياه في ذلك المجال العجال فتنة لهم ونبهة لموسى، فلو أنهم كانوا مؤمنين مطمئنين لانكسر السامري أمامهم بكل حيله فأصبحت فتنة خير، ولكنها فتنة شر لهم لأنهم كانوا على شر وإلى شر، فأبدى الله كامن شرهم، ولم يكن من الله إضلال، وإنما اظهار الضّلال في هذا المجال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2] ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[4] وبالنسبة لخصوص هؤلاء الأنكاد: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[5] وترى من هو السامري؟.

هنا تعترض الجمعية الأمريكية على القرآن.. هذا من الجهل بالتاريخ

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٤٨-١٥٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.
(٤) سورة محمد، الآية: ٣١.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

وعلم توقيع البلدان أن يسمى صانع العجل السامري، ولم يكن في عصر موسى شيء يقال له سامرة ولا سامري إلا الذي ملك بعد سليمان بخمسين سنة[١].

وهامشم العربي في تذييلاته المستقلة (٥٥) بعد تصديقه لذلك التكذيب يقول: لا منشأ للتسمية بالسامري إلى أن اشترى الملك عمري ملك إسرائيل جبل السامرة من شامر بوزنتين وبنى على الجبل ودعى المدينة التي بناها باسم شامر السامرة فالقرآن يعزي صنعة العجل الذهبي إلى رجل من مدينة سامرة المبنية بعد موسى زهاء خمسمائة وسبعين سنة!.

ولكنهما غفلا عن تصريحات التوراة أن واحداً من ولد يساكر بن يعقوب كان يسمى شمرون (تك ٤٦ : ١٣) وأن جماً غفيراً من ولد شمرون وعشيرته كانوا مع موسى وهم وقتئذٍ يبلغون الألوف (عد ٢٦ : ٢٣).

وعربية القرآن تقتضي تعريب اللغات غير العربية فيه ومنها الشَّمِروني حيث عربت إلى السامري، والجمعية الرسالية تتحاشى عن أن يكون الشمروني هو السامري صانع العجل جهلاً أو تجاهلاً بالحقيقة، في حين تصادق على أن هارون هو الذي صنع العجل!.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦﴾:

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ من فوره ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ﴾ عليهم من فعلتهم ﴿أَسِفٗاۚ﴾ على ذلك وعلى إعجاله عنهم ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾[٢] وذلك الأسف والغضب والتنديد لم يخص فقط هؤلاء الذين عبدوا العجل، بل والذين سكتوا عن فعلتهم، وحتى هارون الذي منعهم عنها ولم يمتنعوا!.

(١) في ج ١ ص ٣٧ من كتاب جمعية الهداية.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

أترى موسى رجع فور وصوله إلى ميعاد ربه، إذ قال له حينه ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ . . . قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ﴾؟ وقد ظل في الميعاد أربعين يوماً كما وعد، وليس من الممكن عادة حصول كل ما حصل في هذه الفترة القصيرة؟!.

طبعاً لا، وعلّ ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ كان بعد انقضاء الأربعين، وواو العطف تعطف ما أعجلك بكل ما قاله تعالى وفعله طول الأربعين من إنزال الألواح وسواه، وأما أنه إخبار له فور وصوله بما يحصل في المستقبل فلا يناسب أدب اللفظ، ولا موقف موسى أن يصبر على ضلالهم الآتي دون رجوع لصدهم، إذ لم يكن القصد من تلك المواعدة إلا نزول التوراة، وهو مؤخر رتيباً وفي الحكمة التربوية عن تنزيههم وقد سقطوا في عبادة العجل في تلك العجالة.

هنا يأخذ في تأنيبهم ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ فيما واعد أربعين ليلة ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ ولم تلحقوني على أثري؟ و﴿وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ بإنزال التوراة في هذه المواعدة ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ في انتظارها وعدم التخلف عن توحيد الله؟ وطاعة هارون في هذه العجالة حق تلحقوني؟.

ووعدكم بمواصلة الانتصار ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد وظلال الشرعة الجديدة؟.

﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ - ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾[1] فطال عليكم عهد فراقي، وقد قصر! وإن كان طائلاً؟ فبما تأخرتم عن موعدي! أم طال عهد رجوعي بالألواح؟ ولم يكن إلا كما واعد الله! أم طال عليكم عهد الحفاظ على توحيدكم؟ وهذا هارون نبيكم خليفتي! أم طال عليكم عهد الرحمة السابقة السابغة إذ أنجيناكم من آل فرعون وأغرقناهم: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾[2]، أم «عجلتم أمر ربكم» بإنزال الألواح؟ وليس أمره بأيديكم!.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.
(٢) سورة الحديد، الآية: ١٦.

أم «عجلتم» أمر عذابه أن يحل بكم بما أخلفتم موعدي؟ ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾؟.

فحتى لو طال عهد الله فأخره لحكمة عن موعده، كما حوّل الثلاثين إلى الأربعين، فإنما هو ابتلاء لكم، ليس ليحولكم في هذه العجالة القصيرة إلى العجل، لو أنكم آمنتم بالله صادقين، بل ﴿أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾!.

فمن طول العهد عليهم أنهم عوهدوا في ظاهر الحال ثلاثين ليلة كما في آية الأعراف: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ إذاً فتأخير العهد الظاهر هو من ضمن الفتنة التي فتنوا بها، فتنة مثلثة الزوايا ثالثتها: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ وهم يزعمون أن الله أخلف وعده، فلذلك انعطفوا إلى عجل السامري بين الموعدين، وكان عليهم أن يحملوا وعد الله على الأصلح، إن الثلاثين غير حاصر، فإضافة العشر إليها لا تعارضها، فهذه ضابطة عقلانية أن إثبات شيء لا ينفي ما عداه، فمواعدة الثلاثين لا تنفي العشر، وحتى إذا نفته، فقد تتكرر بمواعدة أخرى تلحقها.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)﴾:

اعتذار عليل، يكشف عن أثر الاستعباد والاستحمار الطويل، والتخلخل النفسي والسخف العقلي الكليل الكليل، يكشفون فيه عن ضؤولة أنفسهم وصغارها لحدّ كأنهم لا يملكونها أمام مكر السامري.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ إذ كان الأمر أكبر من طاقتنا، فهو يملكنا أكثر من ملكنا أنفسنا فضلاً عن أن نملكه.

والملَك مصدر الملِك، فإخلاف موعدك كان خارجاً عن ملكنا ومقدورنا ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ فهل القوم هم آل فرعون؟

فكيف أخذوا أوزاراً من زينتهم وهم كانوا تحت إمرتهم، ثم من هذا الذي حمَّلهم إيَّاها دون أن يختاروها، وهم كانوا بطبيعة حالهم راغبين إلى زخرفات الحياة وزينتها، ولا سيما إذا كانت غنيمة من آل فرعون!.

أم أن القوم هنا هم بنو إسرائيل أنفسهم كما في الأعراف: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ. . .﴾[1]؟ إذاً فالمحمّلون في هذه المكيدة هم أصول الضلال السامري إذ أصبحوا أداة لكيده[2] والقوم سائر بني إسرائيل الذين اغتروا بقرار السامري، فحمَّلوا الأولين أوزاراً وأثقالاً من زينتهم، استجابة لما تطلبه منهم السامري فقذفوها في مقذفها كما قذف السامري.

ثم ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ دون «قذف» قد تعم مع قذفه أوزاراً من الزينة كما قذفوا، تعم إلقاءه بينهم هذه المكيدة المضللة، أم هي الأصل في ذلك المسرح كما تلمح له الفاء.

ذلك، والتوراة تنسب هذه المكيدة المضللة إلى هارون كما في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون. وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم واتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك في أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٨.

(٢) البحار ١٣: ٢١٦ عن أبي الحسن عليه السلام قال: إن الذين أمروا قوم موسى بعبادة العجل كانوا خمسة أنفس وكانوا أهل بيت يأكلون على خوان واحد وهم: أذينوه وأخوه ميندويه وابن أخيه وابنته وامرأته وهم الذين ذبحوا البقرة التي أمر الله عز وجل بذبحها. . . (الخصال ج ١: ١٤٠).

عجلاً مسبوكاً. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه، ونادى هارون وقال: غداً عيد للرب، فكبروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة. وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للّعب» (١ : ٦).

هكذا تتهم التوراة هارون عليه السلام ثم يعترض علماء العهدين على القرآن أن نسب صنعة العجل إلى السامري لشبهة لغوية واهية!.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾:

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ السامري بما ألقاه وقذفوا ﴿عِجْلًا﴾ وطبعاً بما أذاب الحلي فصنع لهم عجلاً ذهبياً، ومهما لم ندرِ من هو السامري ندري أنه كان من صنّاع التماثيل والأصنام، عارفاً - بجنب صنعه - هكذا تدليس وتلبيس لحد يتمكن من إضلال ذلك الحشد الكبير، وفيهم هارون وقلة قليلة من المخلصين لم يقدروا على صده وإيقافه لحدّه.

و﴿جَسَدًا﴾ هنا تُخرج العجل عن كونه حياً، و﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ وهو صوت العجل تثبت له صوته، فما كان - إذاً - له من آثار الحياة إلا خوار، فالروايات القائلة إن الله أحياه فتنة لهم مطروحة[١].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٠٤ - أخرج ابن مردويه عن وهب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله لما وعد موسى أن يكلمه خرج للوقت الذي وعده فبينما هو يناجي ربه إذ سمع خلفه صوتاً فقال: الهي! إني أسمع خلفي صوتاً، قال: لعل قومك ضلوا، قال: إلهي من أضلهم به قال: السامري، قال: كيف أضلهم؟

قال: صاغ لهم عجلاً جسداً له خوار، قال: إلهي! هذا السامري صاغ لهم العجل فمن نفخ فيه الروح حتى صار له خوار؟ قال: أنا يا موسى، قال: فبعزتك ما أضل قومي أحد غيرك قال: صدقت قال: يا حكيم الحكماء لا ينبغي حكيم أن يكون أحكم منك. وفيه أخرج الفريابي، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن علي رضي الله عنه قال: لما تعجل موسى إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي بني إسرائيل فضربه عجلاً ثم ألقى=

وترى ذلك العجل الجسد أخرجه لهم السامري فمن أين ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ والجسد ليس له خوار؟ فهل الخوار من السامري؟ وكيف يكون للإنسان خوار - مهما احتال - من دبره إلى فمه! و﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ ينسبه إلى العجل الجسد نفسه دون السامري، وإلا كان حق البيان «فخار فيه»! أم أنه من فعل الله؟ والله لا يضل ولا سيما هكذا مستضعفين في العقلية والعقيدة!.

قد يكون ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أن جعل دبره في مهب الريح فصوتت من فمه كما الخوار؟ ولكنه صوت الريح، وليس خوار العجل لحدٍّ يشبه العجل الحي! ثم ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ مطلق لا يخصه بوضع خاص!.

قد يلمح «أنا فتنا قومك من بعدك» أن خواره كان من فعل الله فتنة لهم ليظهر مكنون حمقهم من عمقهم، وليس من البعيد وكما قال موسى: بعدما ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾[1] [2].

= القبضة في جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار فقال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى. أقول في الحديثين مواضع من مجال النظر فتأمل قياساً إلى المستفاد من القرآن.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٨٨ في محاسن البرقي بسند عن أبي جعفر عليه السلام أن فيما ناجى الله به موسى أن قال: يا رب هذا السامري صنع العجل، الخوار من صنعه؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: إن تلك فتنتي فلا تفحص عنها. وفي البحار ١٣: ٢٢٧ شي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البَقَرَة: ٩٣] قال: لما ناجى موسى عليه السلام ربه أوحى الله إليه أن يا موسى قد فتنت قومك قال: وبماذا يا رب؟ قال: بالسامري، قال: وما فعل السامري؟ قال: صاغ لهم من حليهم عجلاً قال: يا رب إن حليّهم لتحتمل أن يصاغ منه غزال أو تمثال أو عجل فكيف فتنتهم؟ قال: إنه صاغ لهم عجلاً فخار، قال: يا رب ومن أخاره؟ قال: أنا، فقال عندها موسى ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعرَاف: ١٥٥]، قال: فلما انتهى موسى إلى قومه ورآهم يعبدون العجل ألقى الألواح من يده فتكسرت فقال أبو جعفر عليه السلام: كان ينبغي أن يكون ذلك عند إخباره الله إياه، قال: فعمد موسى فبرد العجل من أنفه إلى طرف ذنبه ثم أحرقه بالنار فذره في اليم،=

فبالفعل أخرج ﴿لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ وهم في بلاهة فكر وبلادة روح، وعقل معقول بحب الزينة، وقلب مقلوب ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾.

هب أنه ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ فكيف هو «إله موسى» وقد ذهب لمناجاته بمواعدته؟.

إنه إلهه وقد ضل عنه فراح يبحث عنه على الجبل ﴿فَنَسِىَ﴾ إنه هنا لا هناك!.

أم ﴿فَنَسِىَ﴾ السامري الله الذي أنقذهم من آل فرعون وأنعم عليهم بما لا يحصى، فعكف على العجل الذهبي وأعكفهم عليه وأضلهم لحد ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ الله و«نسي» الاستدلال بحدث الأجسام على استحالة ألوهيتها.

و«نسي» إنه هو الذي أخرجه، فهو الخالق له فكيف أصبح إلهه وإله سائر الحضور مع موسى، وقد كان - إذاً - هو أحرى بدعوى الألوهية وليس له، فإن موسى عمل ما هو أولى وأعلى من خوارق العادة ولم تثبت له ألوهية.

﴿فَنَسِىَ﴾ آيات الله الكبرى التي أوتيها موسى من ثعبان العصا واليد البيضاء، نسيان التجاهل التناسي.

والنص يساعد نسيان السامري وموسى، ولكنه في نسيان موسى نقل لكلامهم، وفي نسيان السامري هو كلام الله، والمعنيان معنيّان حيث يتحمّلهما اللفظ ويناسبهما المعنى.

= قال: فكان أحدهم ليقع في الماء وما به إليه من حاجة فيتعرض بذلك للرماد فيشربه وهو قول الله: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البَقَرَة: ٩٣] وفيه ص ٢٢٩ عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية فقال موسى: يا رب ومن أخار الصنم؟ فقال الله: أنا يا موسى أخرته، فقال موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ...﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وفيه ص ٢١٠ عن تفسير القمي زيادة قوله تعالى: أنا لما رأيتهم قد ولوا عني إلى العجل أحببت أن أزيدهم فتنة...

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾:

هب أن العجل الذهبي خار وهو جسد، فما هو فضله على العجل الحيوان؟ وهب أن خوار العجل الجسد خارقة؟ فقد سبق لكم أن الله أحيا لكم بقرة وهو خارقة أعظم، وقلب عصا موسى حية تسعى ويده بيضاء من غير سوء، وفرق بكم البحر، فهل أن خوار العجل الجسد أفضل من كل ذلك؟ وإن كان يدل على شيء فليدل على ما دلت عليه هذه الآيات، أم وهي فتنة شر فليجتازوها بخير.

ثم ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ لا قولاً منه يفهم، ولا إجابة لقولة الدعاء، فكيف هو إنه يعبد ولا يستطيع قولاً بدءاً ولا رجعاً، وأنتم لكم القول بادئاً وراجعاً، فليعبدكم العجل - إذاً - لو جاز، دون أن تعبدوه، فأنتم الذين شاركتم في صنعه بحليّكم، والسامري صنعه بحيلته فليعبدكم العجل، والسامريّ.

ثم ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا لنفسه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾[1] فما قولتهم العاذرة ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ إلا قولة كاذبة ماكرة، بل هم ظالمون بحق الحق وبحق أنفسهم ورسولهم.

قال بعض اليهود لعلي عليه السلام: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم؟ فقال: إنما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه، وأنتم ما جفّت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة[2].

وترى لو رجع إليهم قولاً وملك لهم ضراً أو نفعاً أو هداهم سبيلاً لكان بكل ذلك إلهاً؟.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٨.
(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٢: ١٠٥ في ظل الآية....

كلا، وإنما هذه كلها من الشروطات البسيطة البدائية للألوهية، فالفاقد لها يفقد - بأحرى - كلها، ثم الواجد لها قد يكون إلهاً حين يملك سائر الشروط، أم لا يكون إلهاً حين لا يملكها كما لا يملكها.

فيا ويلاه كيف عبدوا عجلاً جسداً له خوار ولا يصل إلى درجة الحياة الحيوانية إلا خواراً، فلا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية، عبدوه - فقط - لأن له خواراً! - ذلك:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾:

فتلك عقولهم المدخولة الظالمة في أنفسهم. وإضافة إلى كل حجة بالغة أنفسية لتزييف تلك العبادة الزائفة، قد ذكّروا بلسان الوحي ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ فليس ذلك الخوار إلا فتنة لكم، فتنكم الله به بالسامري، فليس ذو الخوار ربّكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي خلقكم والعجل والسامري والحلي والعالمين أجمعين، فهل أن العجل رحمان وأنتم صانعوه؟ أم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي فطر الخلائق برحمته وقدرته؟ ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ فيما خلّفت بينكم ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ دونما تخلّف عني، فإنني خليفة موسى الرسول حين قال: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

ونرى هنا سرد الرسالة إجمالاً في أصولها وفروعها، ابتداءً بالسلب فيما فتنوا به، ثم الإيجاب ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ثم الرسالة ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ ومن ثم أحكام الرسالة ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾.

ولكنهم بالرغم من الحجة البالغة الفطرية والعقلية أنفسياً، والرسالية آفاقياً، صمدوا على كفرهم و:

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾:

وإذا كان رجوع موسى رجعة لهم عن ضلالهم حجة لرجوعهم، فهذا أخوه هارون مؤمّر مطاع من قبله، وطاعته طاعته ومعصيته معصيته، ولا يقول إلا قوله، ولكن لا حياة لمن تنادي، وإن هي إلا عاذرة حمقاء ابتغاء لهذه الفرصة اللئيمة في عكوفهم على عجلهم.

ثم وفي ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ قضاء على أمده: ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ حيث استحالوا رجوعهم عن عجلهم في هذه العجالة، مهما أتتهم من برهنة قاطعة، فهم أولاء - إذاً - لن يرجعوا في تصميمهم الحالي، مهما تحولوا بعد رجوعه ورجعوا!.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾:

وترى ما هو اتباعه له المرغوب المترقب منه الذي تركه حتى عده عاصياً لأمره فأخذ برأسه ولحيته ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾[1] وقد سمعناه وعظهم ووبخهم وأمرهم بما أمرهم؟ ونص الوصية الموسوية في هذه الخلافة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وقد خلفه وما أخلفه وأصلح ما استطاع حتى كادوا يقتلونه. ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾[2] ولم يتبع سبيل المفسدين تركاً لأمر أو نهي، أم دخولاً في نهي.

الاتّباع المرغوب هنا هو أن يلحقه بمن معه كما واعدهم الله مع موسى، ولا سيما ﴿إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ دون واجب الدعوة - فقط - والموعظة، وقد فعل لحدّ كادوا يقتلونه ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ ولم يبق من واجب

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

نهيهم عن ضلالهم إلا قتالهم وقد استضعفوه، أو فراقهم وحيداً أو بمن معه، وما كان يتّبعه إلّا الذين اتبعوه، وذلك تفريق بينهم و﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ فقد أمره أن يحافظ على وحدتهم!.

وطبيعة الحال في رسول كموسى أنه لما يرى الحال هذه المزرية - وبعد اللتيا والتي - أن يفور غضباً لله، وظاهر الحال كان يدفعه لهكذا سؤال، دون أن يتهم أخاه هارون إلا تساؤلاً لاتضاح الحال ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ وما هكذا الظن بك، فوضّح لي الحال، حتى يسكن البال ويصفو المجال.

فلم يكن له - إذاً - في اتخاذهم العجل ذنب(١)، ولا في عدم اتباعه موسى ذنب، إلا أن ظاهر الحال كان يقتضي ذلك التأنيب العجيب أن قال ما قال وأخذ برأس أخيه يجره إليه كما وألقى ألواح التوراة، ثم لما تبين أمره استغفر لنفسه ولأخيه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(٢).

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾:

وذلك الاعتذار يبين بوضوح أن موسى عليه السلام لم يتساءله إلا عن عدم اتباعه إلى الطور الأيمن، أخذاً بهم معه، ليعالجهم موسى ما خالجهم، أم فراقاً عنهم كزاوية أخيرة للنهي عن المنكر.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٨٩ في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى علي بن سالم عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه قال قلت: فلم أخذ برأسه يجره إليه وبلحيته ولم يكن له في اتخاذهم العجل وعبادتهم له ذنب؟ فقال: إنما فعل ذلك به لأنه لم يفارقهم لما فعلوا ذلك ولم يلحق موسى وكان إذا فارقهم ينزل بهم العذاب، ألا ترى أنه قال لهارون: ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري - قال هارون: لو فعلت ذلك لتفرقوا و﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥١.

لقد تهدّرت أعصاب موسى حين رأى ما رأى لحدّ لم يتمالك نفسه أن يفعل إلا ما فعل ومن ثم اعتذر: ﴿... وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾[1].

وهنا تساؤلات حول تأنيب موسى واعتذار هارون: كيف يأخذ برأس أخيه ولحيته يجره إليه دون أن يتأكد منه عصياناً لأمره وكما تردد ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ وهو يعرف أخاه أنه من أهم سؤله المجاب في دعوته، وأنه رسول الله معه، فكيف يهتكه هكذا أو يتردد في أمره؟.

قد يُعذر موسى فيما فعل أنه قضية الموقف المحتار، وعلّه هكذا يفعل بأخيه المختار ليدل المتخلفين من بني إسرائيل على مدى تخلفهم في فتنتهم ﴿فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[2] وليرقبوا على أنفسهم أشد من ذلك وأنكى، حين يفعل الداعية بخليفته البريء عما فعلوا وهو أخوه، يفعل هكذا، فماذا - إذاً - يفعل بهم بما افتعلوا، تعبيداً لجوّ التأنيب الشديد، والأمر الإمر أن «اقتلوا أنفسكم».

وهذه سنّة سنية في النهي عن شديد العصيان والتحذير عما يخلفه، فهو من باب: إياك أعني واسمعي يا جاره، وكما يخاطب الله نبيه أحياناً بخطابات تنديدية وهو يقصد الأمّة المتخلفة.

فليعلم عبدة العجل حينذاك أنه ليس بتاركهم وقد فعل بأخيه البريء ما فعل لماذا لم يفارقهم إليه.

وهكذا يوجّه قوله له كما يوجّه فعله وِجاه هؤلاء المتخلّفين وليعلموا أن

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٠، ١٥١.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

شرعة العدل لا تعرف نسبة ولا قرابة ولا خلافة في ظرف التخلف عنها، فضلاً عن أمّة متخلفة هكذا، وليعرفوا مدى عصيانهم لرسولهم ألّا مسامحة فيه ولا سماح عنه.

ثم وكيف يعذر هارون عما قصّر إن قصّر خشية التفرقة بين بني إسرائيل، وليست الوحدة مرغوبة إلا في ظلال التوحيد، فحتى إن قُتل دون مَنْعِهم عما افتعلوا لكان حقاً رسالياً بمسؤولياتها الدعائية الأصيلة، وما الدعوات الرسالية إلا مفرقة بين الناس من متقبل لها أو معارض، ثم موحّدة بين المؤمنين بها، فكيف يعذر هارون إن قصّر بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾؟.

إنه وعظهم وندّد بهم حتى كادوا أن يقتلوه، فلم يقصّر - إذاً - في الدعوة، ثم قتل الداعية إنما يُسمح فيه في شرعة الرسالة إن أثر في قبول الدعوة أم مزيد الحجة، ولكن بني إسرائيل المعروفين بقتل النبيين لم يكونوا ليتأثروا بقتل هارون إلا حظوة لهم في البربرية إزالة لمن يصدهم، وتقليلاً لعديد الداعية، فتعريض هارون نفسه للقتل لم يكن إلا تعريضاً للرسالة إلى الخمول وتضعيف الساعد المساعد لموسى إلى الهمول، ثم التفرقة المحظورة هي التي كانت تشجّع المتخلفين في عكوفهم على عجلهم لما يرون الجو دون معارض ومشاغب، ثم تفريقاً بين المؤمنين أن يلحق بعضهم بعبدته، وآخرون يلحقونه إلى موسى، تمزيقاً لذلك الجمع دون فائدة عائدة إلى صالح الحق، إلا طالحاً ضد الحق، ولقد كانت الرقابة لقول موسى الحفاظ على الوحدة ما دامت صالحة مهما ضل منهم من ضل، حيث الفرقة آنذاك كانت تزيدهم ضلالاً على ضلال، وفيها دلال لمن ضل وأضل.

ولماذا ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ دون «أخي» كما في عرض سؤله وإجابته؟ علّه لأنه كان أخاه من أمه، أم جاء له من ناحيتها وإن كان أخاً لأبويه، لأنها أشد

حساسية وإرهافاً واستجاشة للرحمة الأخوية، تكسيراً عن شدته وتكثيراً لرحمته.

وكيف هنا «أمّ» وقضية الأدب كسرها للإضافة؟ علّها مخففة عن «أماه» نداء لها ضمن ندائه ليكون آكد في الاسترحام.

وترى موسى كيف لم يغضب عندما أخبره الله، غضبه حين رأى ما رآه؟ أنه على حد المروي عن أخيه المصطفى: «يرحم الله أخي موسى ليس المخبَر كالمعايِن، لقد أخبره الله بفتنة قومه وقد عرف أن ما أخبره ربه حق وأنه على ذلك لمتمسك بما في يديه فرجع إلى قومه فرآهم فغضب وألقى الألواح...»[1].

وعلّه - ويطبيعة الحال - غضب هناك كما هنا ولكنه أخف ولم يأت له ذكر إذ لا مظهر له وهنا أخره يظهره.

هذا دور هارون في قصة العجل، ومن ثم السامري وهو أصل البلاء:

وإنما بدأ موسى بالقوم، لأنهم هم المسؤول الأول في هذه الزلة ألا يتبعوا كل ناعق وبمسمعهم ومرآهم آيات الله تترى من بين أيديهم ومن خلفهم.

ومن ثم هارون لأنّه المسؤول الثاني في هذه المعركة أن يحول بينهم وبين هذه الهوة المضلّلة، لأنه خليفة موسى والقائد المؤتمن في غيابه.

ثم السامري هو الأخير لأنه لم يفتنهم بقوة قاهرة أم معجزة باهرة، ولم يضرب على عقولهم، وإنما وجد الجوّ صالحاً للإضلال حيث استضعف القائد وتخلف وتعنف المقود، وقد كانوا يملكون أن يثبتوا على هداهم فطرياً وعقلياً، وعلى هدى نبيهم الأول ونصح الثاني:

---

(١) البحار ١٣: ٢٠٤ وقال الطبرسي روي عن النبي ﷺ أنه قال:....

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝٩٦﴾:

والخطب هو الأمر الخطير الذي يهمه صاحبه، فما هذا الأمر يا سامري حيث أهمك في هذه المكيدة المضللة المدللة؟ مسّاً من كرامة الله، وتضييعاً لرسالة الله، ونكراناً لنعم الله! «قال»: . . .

ولأن القصة منقطعة النظير في القرآن، لا تحمله إلّا هذه الآية، وهي غامضة في نفسها، لذلك تتطلب إمعان النظر أكثر مما له نظائر، وقد تضاربت في تفسيرها الأقوال، وأصبحت مجالاً فاسحاً للقيل والقال.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾: بَصُر به هو العلم والمعرفة عن بصر العين، قد يعلمه غير الباصر وقد لا يعلمه، وهنا ﴿بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ تختص بالباصر الخفي كما ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

فهناك أمر بصُر به وهم لا يُبصرون، معرفة أو علماً بما يجهلون، وكان بالإمكان أن يبصروا به ولكنهم مستغفلون، فلم تكن - إذاً - معرفة خارقة للعادة في مسارح المعرفة، بل هي لمحة خفية لأمر عن تحرٍّ وتفتيش، لم يكن هؤلاء بصدده حتى يتلمحوا له، والسامري يأتيهم هنا مما يجهلون بما سولت له نفسه من الإغراء لإجراء مكيدته البائتة الدفينة.

﴿بَصُرْتُ . . . فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ وهنا القبضة متفرعة على البصر، ثم النبذة تتفرع على الأثر، وكل ذلك من تسويلات نفس السامري: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾.

فما هي القبضة، وما هو الأثر؟ وما هي نبذة الأثر؟ ومن هو الرسول المقبوض الأثر؟.

فهل الرسول هنا هو جبريل، وأثره موضع حافر فرسه، فقبض قبضة من

---

(١) سورة القصص، الآية: ١١.

ترابه فنبذها في حليّهم المركوم فأصبح عجلاً جسداً له خوار؟ كما قد تداولته أقلام المفسرين في الأكثرية المطلقة.

والمتداول من ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ في القرآن هو الرسول البشر، مهما شمل جمعه الرسول الملك ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[1] وليس يعني ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[2] جبريل إلا بتأويل عليل، ثم جبريل وهو الطائر القدسي الرسالي ليس يركب فرساً! ولا يظهر لغير الرسول، ولئن ظهر فإنما هو في صورة البشر، فكيف عرفه السامري؟ أبصورته الأصلية؟ ولا تصلح لغير الرسول! أم بصورة. إنسانية، فكذلك الأمر! ثم كيف يعرف - إذاً - أنه جبريل، اللهم إلا للرسول.

وتجلي جمع من الملائكة لقوم لوط لم يكن ملائكياً كما لم يعرفوهم، ولم يكونوا حملة الوحي الرسالي، أم أعواناً لقوم لوط المجرمين! ومن ثم كيف يكون لأثر حافر فرسه أم قدمه ذلك الأثر المعجز، والآيات المعجزة إنما هي من أفعال الله، يخصها بمن يحملون رسالات الله تثبيتاً لها، دون سواهم مهما كانوا رسل الوحي إلى الرسل، فضلاً عن الدجالين المضللين، تجلياً لهم بحيث يعرفونهم، ويزيدون إضلالاً بآياتهم الخارقة!.

ومهما كان ذلك فتنة من الله فليست الآية المعجزة منها، ولو كانت آية لأصبح العجل الذهبي حيواناً، ونص الآية ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ يطارده! وليس الله يطارد آية منه بأية أخرى بل يؤيدها بها ويبطل بها غيرها المدعى أنها منها ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[3] وصنع العجل الآية بقبضة من أثر الرسول هكذا، إصلاح لعمل المفسدين سبحان الله عما يصفون!.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ٤٠.
(٣) سورة يونس، الآية: ٨١.

أم أن الرسول هنا هو موسى وأثره هو أوزار الزينة التي حملّوها، نسبت إليه هنا لأنه أمرهم بأخذها من القبط، فقبض منها قبضة وطرحها مع القوم في النار فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار؟.

ولكن أوزار الزينة لم تكن للقبط بل هي من حليّهم أنفسهم ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[1].

وأنّى لهم أن يأخذوا من زينة آل فرعون وهم مستضعفون بينهم وملاحقون، فضلاً عن أن يحملوا أوزاراً من زينتهم! اللهم أن تحمّلهم أمواج البحر بعد غرقهم ولا برهان له، و﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ برهان عليه، وهي على أية حال لم تكن أثر الرسول، مهما كانت لأولاء أم هؤلاء، وحتى لو كانت من مُلكة موسى فالصيغة الصالحة لها «أثر موسى» دون أثر الرسول، حيث الحلي والزينة هي من آثار الحياة الدنيا وليست ﴿أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ فإنما أثره الرسالة بآثارها.

ثم القبضة المتفرعة على ﴿بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ هي بطبيعة الحال عنهم خفيّة، وهم عارفون إنه ألقى مما ألقوا: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾! ومهما يكن من أمر فالصيغة الصالحة له «فقبضت قبضة من زينة القوم» ولكنه على هذا الحال أيضاً لم يقبض من زينة القوم وإنما ﴿حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾! ومن ثم فكيف يقال لموسى - وهو حاضر - قيلة الغائب والصحيح «من أثرك - أو - من حليك»! أم أنه هو هارون وهو غائب عن مسرح التخاطب مهما كان حاضراً بينهما، والأثر إما كالأول أو كالثاني؟ ولكن الصيغة الصالحة عن هارون هي لفظه دون «الرسول» وإمامه موسى وهو أصل في هذه الرسالة، ثم عليه ما على الأولين إلا المحظور الأخير.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٨.

علّ الرسول هنا هو موسى لأنه المحور في هذه الرسالة، الظاهر بنفسه وبرسالته وآثارها، فالتعبير بالرسول كغائب دون «أثرك» علّه للتدليل على أن ما قبضه كان آثار الرسالة، بما فيه من تعريض على هذه الرسالة كما في نظائرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[١] ولأن السامري كان ناكراً للرسالة وقبلها للربوبية: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا...﴾ فقد يعني من قوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أنني عرفت من بطلان هذه الرسالة ما لم يعرفه هؤلاء، ولكي أبيّن لهم ضلالهم جئتهم من حيث يعرفون ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ وهو شطر من سنته ثم «نبذتها» إلغاءً لها لأزلزل من أركان إيمانهم المزعزعة في نفسها، أم «نبذتها» خلطاً لها بباطل من عندي ثم أظهرت حقها بمظهر الباطل والباطل بمظهر الحق.

ونفس النبذ هنا - دون القذف - خلاف ما هناك - وأنه رفض بعد القبض - مما يدل على أنه تضليل بعد تدليل: «قبضت فنبذت» فالقبض هو الأخذ قبولاً وتصديقاً، والنبذ هو الرفض تكذيباً، وهذه هي أضل طرق الإضلال أن يقبض من أثر الرسول كمصدق له، ثم ينبذ ويرفض نفس المقبوض تكذيباً وكما كان يفعله الدجالون: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢].

ولو كان المنبوذ هنا هو المقذوف هنالك أم الملقى هناك لكان قذفتها أم ألقيتها[٣] والنبذ صريح في الرفض دون الإلقاء والقذف، فقد قذفوا حليّهم

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٢.

(٣) لم يأت النبذ في القرآن إلا بمعنى الرفض كـ ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١] ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠] ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: ١٠٠] ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ =

بإلقائه ﴿فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ومن قبل قبض قبضة من أثر الرسول فنبذها تهويناً لإيمانهم، فلو ظلوا على إيمانهم ما ضلوا بإلقائه قذفاً لحليهم، وما قالوا ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ فإنما زعزعهم عن بقية الإيمان بما قبض ونبذ، ثم ألقى بينهم قذف حليهم ليصنع لهم ما يعبدون كما كانوا يأملون!.

وعلّ من أثره مواعدة الثلاثين، التي انقلبت إلى الأربعين، فقد قبضها في قبضته، ثم نبذها في نبذته، قبضاً كوعد الله، ونبذاً كخلف لوعد الله، وعوذاً بالله!.

ومن أثره ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فقد قبضه كتصديق ثم نبذه بتلك المواعدة، أن لو كان إلهه معه فكيف واعده إلى جانبه الطور الأيمن؟!.

هذا وقد يؤيده أن خطب السامري المسؤول عنه لم يكن صنعة العجل الجسد لأنها كانت ظاهرة لا تدفع لسؤال، بل هو الأمر الخطير الذي أهمه فدفعه لصنعه والدعوة إلى عبادته، كما ويؤيده أخيراً ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾.

وطبيعة الحال قاضية في ذلك المسرح أن ليست صنعة العجل الجسد الذي له خوار بمجردها هي السبب لضلال من ضل، إلا بتقديم ما يصفي الجو لتقبل ذلك الضلال المبين وقد فعل وافتعل فأضل كما ضل.

ثم الخوار للعجل الجسد فتنة إلهية وليست آية تمكّن صاحبها من دعوى الألوهية أو الرسالة، كيف وقد انقلبت عصا موسى حية تسعى وثعباناً مبيناً،

= [آل عِمرَان: ١٨٧] ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهُمَزة: ٤]. وفيما جاء النبذ في غير المرفوض فهو نائب مناب المرفوض مثل يونس ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصَّافات: ١٤٥] و﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ [القَلَم: ٤٩] وكما مريم ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريَم: ١٦] تباعداً عنهم لما وجدت من نفسها نبذاً ورفضاً لما حملت.

وهذا العجل الذهبي ظل جسداً إلا أن له خواراً، وهذا الاحتمال على أية حال أسلم من كل ما قيل أو يقال، صيانة لكلام الله عن عضال لا يزول إلا بمزيد إشكال، ومشكلة الخوار قد تدفع بدافع غير ما ذكر أنه كان بسبب صناعي ووضع خاص هندسي أمام الريح فهو كصوت العجل وليس صوته.

فلقد حدّث السامري بقولته ما حدث، وتقلّص فيه وما تخلّص، واعترف في ذلك الموقف الحاسم القاصم أن ذلك من تسويل النفس، ونرى موسى كيف يطرده من الجماعة طول حياته ويحرق إلٰهه أمام من ضل به وينسفه في اليم نسفاً، إحراقاً لهذه الضلالة عن بكرتها ونسفاً لها.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾:

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ﴾ من هذا الجمع المستضعف، فليس لك هنا مكان ولا مكانة، تغرّب عنهم طريداً شريداً مدحوراً فريداً ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ما هو أصعب وأتعب من الممات ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ ليس أنك لا تمس أحداً ولا يمسك أحد في غربتك، بل وتتعذب بأي مساس كان رحمة لك عيشة بين الجماهير، تتعذب لحد ليس لك في الحياة إلا أن تقول ﴿لَا مِسَاسَ﴾! فقد أصبح قصاصه ﴿لَا مِسَاسَ﴾ وهو شر قصاص! فالغربة المطلقة في الحياة عذاب، وعذاب القربة فيها عذاب فوق العذاب، حيث بدلت له الرحمة زحمة وكما بدّل نعمة الله كفراً وأحل قومه دار البوار جهنم يصلاها وبئس القرار.

ولأن ﴿مِسَاسَ﴾ مصدر من المفاعلة كما الضراب من المضاربة، فهو مس من الجانبين أياً كان المسّ، سمعياً أو بصرياً أو بدنياً، أم أية معاطاة أخذاً وعطاءً روحياً أو مادياً، فقد أصبح المساس الذي به الحياة الزاهرة بين

الجماهير، شراً من الممات وكأنه من دوافعه، إبعاداً له عن حظوظه، وابتعاداً لهم عن شذوذه، فأصبح - بالفعل - لا هو ميت ولا هو حي، مجموعاً له شر الحياة وشر الممات إضافة إلى العذاب الذي هو آت.

ويا بؤساه لمن إذا سألته عن حاله يقول ﴿لَا مِسَاسَ﴾ وإذا قلت له أم سمعت قاله يقول ﴿لَا مِسَاسَ﴾ وإذا تدنّت إليه أهله أم ولده يقول ﴿لَا مِسَاسَ﴾ وإذا دنّيت إليه ما له أم حاجة من حاجياته يقول ﴿لَا مِسَاسَ﴾ ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ فماذا إذاً بعد الممات؟:

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ بعد الممات، العقوبات التي وعدها المضلّلون المكذّبون بآيات الله.

ثم ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ وظلوا أولاء بما أضللتهم ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ حرقاً لنفسك التي سوّلت لك، وحرقاً لقلوب من ظلوا عليه عاكفين ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ طرحاً له، فيه طرح النسافة وهي ما تثور من غبار الأرض، حيث يبدله الحرق غباراً لا يبقي له صورة ولا سيرة، إعداماً له عن بكرته، إزالة حاسمة لأثر الضلال.

كل ذلك بمسمع ومرأى الذين عبدوا العجل وسواهم، وعلى مشهد الإله المزخرف المزيف المحرق المنسف يعلن الداعية حقيقة العقيدة الصالحة:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾:

دون هذا الإله المعدم، وهو في وجوده له شركاء أفضل منه وأعلى، ولا علم له بنفسه حتى يدافع عنها، بل هو الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً و«لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء».

ومهما ختم السياق هنا إلى ما هنا، فليس ليختم في واقع الحال إذ أمر الذين عبدوا العجل أن يقتلوا أنفسهم كما في البقرة.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ

ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩)﴾:

النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، و«من» هنا تبعّضها، وطبعاً بالبعض الأهم منها و﴿نَقُصُّ﴾ تبعيض ثانٍ حيث القص هو تتبع الأثر وهي القصص الأخبار المتتبّعة، وطبعاً هي أهمها حيث لا يقص بمقصٍّ الوحي الأخير إلّا أهمها، فقصص القرآن هي سلالة السلالات من أنباء تاريخ الرسالات، ما تتبناها أم ما تهدّمها، وبهذه السلبية والإيجابية يبنى صرح الإسلام الخالد اعتباراً بأنباء ما قد سلف، وزيادة هي ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ ليعتبر معتبر ويتبصر متبصر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ العظيم العظيم من قصص موسى ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا رسول الهدى ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من محاربي الرسالات ومحادّيها، وليس فحسب أن القرآن يقص قصص الماضين كتاريخ من التواريخ بل ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ في جمعية الصفات والرحمات ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ أهم مما مضى وأعظم منها ﴿ذِكْرًا﴾ هو أم الذكر وإمام الذكر مهما شمل سائر الذكر فإنه مهيمن على كل ذكر.

هذا ذكر لدني مهما كان كل ذكر يحمله كتابات الوحي من لدنه، ولكنه درجات أعلاها ما يختص من بينها بـ ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ فجمعية

الصفات من ناحية و﴿مِن لَّدُنَّا﴾ من أخرى و﴿ذِكْرًا﴾ تنكيراً لبالغ عظم التعريف من ثالثة، تجعل ذكر القرآن رأس الزاوية في الذكريات اللدنية.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾:

ولا فحسب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بل و﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[1].

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ في أي عرض منه، قراءة واستماعاً وتدبُّراً وتفهماً وتصديقاً وتخلقاً وتطبيقاً ونشراً، فهذه أبواب ثمان لجنة الذكر القرآن، ومعرض القرآن مسرح يحلّق على كل المحالق، وذكر عن كل نسيان أياً كان وأيان.

فالإقبال إلى القرآن أزر، والإعراض عنه وزر يحمله من حمّل أزره فأعرض عنه إلى وزره، ومهما كان لذلك الوزر مراحل ثلاث في معيشة ضنك، ولكنما الهامة الخالدة منه والأوفى هي في الأخرى وكأنها المخصوصة بحملها:

﴿خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾:

خلوداً في وزر الإعراض عن الذكر قدره ولا يظلمون نقيراً، وحِمل المسافر زاد له في غربته وتخفيف له عن كربته، وحِمل الوزر للمعرضين عن الذكر في ذلك السفر الشاق الطويل الطويل حمل وبيل ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾.

ولأن الوزر هنا هو الذنب المخلّف عن الإعراض عن الذكر، والأعمال هي الجزاء بملكوتها الظاهرة يوم القيامة، فالخلود في الوزر هو خلود في نفس الوزر دون جزائه، فإنه هو جزاؤه دون فصال، و﴿خَالِدِينَ﴾ كما في آيات أخرى، لا تدل بصيغتها على البقاء لغير النهاية، فإنها أعم من الأبد

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

ودونه، والأبد أعم من اللانهائية الحقيقية كما في أبد الجنة، وسواها كما في سواها، فما الآبدون في النار إلا وهم دائبون فيها ما داموا ودامت النار، ثم لا نار ولا أهل نار قضية العدل، وأن العقوبة ليست إلا قدر الخطيئة فـ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

وهنا الخلود في الوزر ليس إلا قَدَر الوزر، حيث الإعراض عن الذكر دركات، فالخلود في الوزر أيضاً دركات ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[٢].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾:

و﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ هو ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ وهي هنا النفخة الثانية بدليل ﴿وَنَحْشُرُ﴾: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[٣] و﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هنا تعم ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ وسواه ممن أجرم مهما اختلفت دركات الإجرام، والزّرق جمع الأزرق من الزرقة وهي اللون المعروف بين البياض والسواد.

ولأن ﴿زُرْقًا﴾ وصف للمجرمين دون عيونهم فحسب، فلا تعني - فقط - زرقة عيونهم، بل هم يومئذ زرق ككلّ خوفة من هول الموقف المطّلع، ومن زرقة عيونهم عماها: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[٤] ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[٥] وقد تكون ﴿زُرْقًا﴾ كمقدمة محضرّة لـ «عمياً» أن تشخص أبصارهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء، ثم تتحول ألوانها وتظهر بياضها ويذهب سوادها ثم تعمى.

---

(١) سورة الطور، الآية: ١٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٩.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٤) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

ولا ينافي حشرهم - زرقاً وعمياً وبكماً وصماً - شخوص أبصارهم ورؤية أعمالهم وسماع ما يسمعون من تأنيب وسواه، وما يتكلمون في التماس لتخفيف عذاب وسواه، حيث المواقف هناك عدّة قد تقتضي العذاب عِماهم كما عند حشرهم، وأخرى أبصارهم وأسماعهم كما عند حسابهم وعذابهم.

﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾[1]:

التخافت هنا هو تخافض في الصوت وتسارّه لهول المطّلع كما يحشرون له زرقاً فعمياً، وكلامهم المتخافت فيه بينهم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ عشر ساعات أم ليال أم سنين وقد يقرّب ﴿إِلَّا يَوْمًا﴾ الأولين.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ويتقولون من باطل تقديرهم للبثهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ وبين «عشراً - و- يوماً» ساعة وبعض يوم أو عشية أو ضحاها[2] وكل هذه استقلالاً للبثهم في أرض التكليف والبرزخ بجنب حياة الخلود يوم القيامة.

وحق القول في لبثهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3] ولكنها ليست هذه القلة المحدّدة، بل هي النسبية بجنب الآخرة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[4] فذلك اللبث المبحوث عنه يعم البرزخ دون خصوص الدنيا وهناك ﴿عَشْرًا﴾ هي من قولة الأكثرية المجرمة، وكما هي «ساعة» بين

---

(١) راجع ج ٣٠: من الفرقان تجد تفصيلاً للبحث عن ذلك اللبث.

(٢) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم: ٥٥] ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٣]. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١١٤.

(٤) سورة الروم، الآية: ٥٦.

مفرط ومفرّط، ثم عوان لسواهم: «يوماً أو بعض يوم - عشية أو ضحاها» وأين ساعة من عشر؟ وأين هذه كلها ولبثهم في كتاب الله إلى يوم الحشر؟.

هذه أقاويل أربعة عن مدة مكثهم في الأرض من ساعة إلى بعض يوم عشية أو ضحاها، إلى يوم وإلى عشر، تقديرات هارفة خارفة دون أية حجة وبرهنة، تجمعها القلة لمكثهم أمام الكثرة الأخيرة.

وإنها الحماقة الكبرى أن يضحوا بالآخرة الطويلة الطويلة لهذه القلة القليلة، الزهيدة التافهة الهزيلة.

وتراهم نسوا وغفلوا مدة مكثهم؟ وليست بمغفول عنها ولا منسية! أم ذهلوا لشدة الوقعة في الواقعة فما ذكروا إلا قليلاً مقدراً لهم بمختلف تقديراتهم حسب مختلف أحوالهم وأهوالهم، والإنسان قد يذهل عن أظهر الأمور عند شديد الهول؟ وهذه واجهة!.

أم قابلوا طويل الآخرة بقليل الدنيا ببرزخها فقللوها بهذه وتلك؟ وهذه أخرى! ولماذا الأحرى بينها - على زيفها - ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ علها حيث اليوم ليل ونهار وقد كانت الحياة في البرزخ والأولى بين مظلمة ومشرقة «يوم لك ويوم عليك» إضافة إلى قلتها نسبة إلى الأخرى.

هذا إلا أن بين ساعة وعشر ليال بون ١/٢٤٠ فأين الواحدة من مئات؟ إلا أن ذلك ليس من البعيد لهؤلاء البعاد عن الحق، أم أن ﴿عَشْرًا﴾ هي عشر ساعات، فظنونهم كلها لا تعدو يوماً أو بعض يوم! فهم يحدسون عما قضوا على الأرض وقد تضاءلت الحياة الدنيا ببرزخها في حسبانهم، وقصرت أيامها في مشاعرهم، وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها وتنطوي، وتتضاءل متاع الحياة وهمومها وتنمحي، فيبدو كل هذه على طُولها وطَولها فترة وجيزة يحسبونها ساعة أو يوماً أو بعض يوم!.

وقد تجمع هذه القيلات حول اللبثين في البرزخ والأولى، على

اختلافات في تقديرات، أن الزمن في البرزخ أسرع منه عن الأولى، حيث الزمان يتبع السرعة، والبرزخ بما فيه الأبدان البرزخية أجرد من الدنيا بكثير، فسرعة الحركة فيه أكثر منها بكثير.

وإن حالة اليقظة في البرزخ لأكثر تقدير ٢/٢٤ حالة النوم حيث رزقهم فيها غدواً وعشياً، أو النار يعرضون عليها غدواً وعشياً، يكفيهما ساعتان من الليل والنهار.

وإن الحياتين بالنسبة للآخرة قليلة، ثم هم في ذلك التقليل بالنسبة للبث الأولى كعاذرين أنفسهم أن حياة التكليف ما كانت كافية للانتباه.

والله يصدقهم في أصل القلة هنا وهناك نسبياً بالآخرة، ويكذبهم في تحديداتهم الخارقة الهارفة ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] يوم الدنيا، فلماذا تغافلتم في هذه القلة عن الاستعداد لتلك الكثرة، ولا يعذرهم في قلة مدّعاة لمجال التكليف إجابة عن تطلبهم «ربنا أرجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل» حيث الجواب ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[2] ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾:

فالقارعة التي تقرع الجبال وتنسفها، فما تراها فاعلة بالإنسان المجرم النسيان العصيان؟! ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ ما هو مصيرها في قيامتها؟.

وهنا في الإجابة عن ذلك السؤال يتجلى المشهد الرهيب العجيب، فإذا

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٤.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥٢.

الجبال ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ حيث يذرها ويثيرها فلا تبقى منها باقية إلا دائرة فانية، لا كالمتعود من نسفها بشرياً لإيجاد المسيرات، وإنما ﴿نَسْفًا﴾ ماحقاً ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا﴾ أرضاً مستوية بعد ارتفاع ﴿صَفْصَفًا﴾ ملساء دون كلاء، خلواً من كل نتوء واعوجاج وارتتاء، فتصبح أرضاً مستوية جرداء ملساء ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ بانخفاض كالأودية ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ بارتفاع كالروابي والتلال.

ونسف الجبال له عوامل عدة، منها الرجفة المدمرة: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾[1] والتسيير: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[2] ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾[3] وبهذه وتلك ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[4] وعلى حد تعبير الإمام علي عليه السلام «وتذل الشم الشوامخ والصم الرواسخ فيصير صلدها سراباً رقراقاً ومعهدها قاعاً سملقاً».

ثم العِوَج قد يكون في سطح دون عمق من مرتفعات أم منخفضات، وقد نفتها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أم هو في حجم مضلّع فكذلك الأمر، فليكن عوجاً لا يُرى كما في حجم مدور، فتصبح الآية من أدلة كروية الأرض، فإنها عوج لا يرى لا في حياتها الدنيا ولا في أخراها، وقد انمحت اعوجاجاتها التي كانت ترى حيث ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾:

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بعد قيامة التدمير وفي قيامة الإحياء والتعمير التي هم فيها يحشرون ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ فمن هو الداعي المتّبع هناك؟.

(١) سورة الزمر، الآية: ١٤.
(٢) سورة النبأ، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٧.
(٤) سورة القارعة، الآية: ٥.

﴿ٱلدَّاعِىَ﴾ هنا هو الله في الأصل، أو من يدعو بأمر الله، ولكن قرنه في آية القمر برسول الله وهو أفضل داع وأحراه من بعد الله، قد يحصره هنا في الله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝﴾[1] ولكنه لا ينافي النفخ في الصور حيث يدعو بأمر الله لعود الحياة ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝﴾[2] ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝﴾[3].

﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ مسيّرين ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا الداعي إليها ولا الصور ولا اتّباعهم له، مهما كانوا معوّجين عن اتّباعه يوم الدنيا، ومن اتباعهم له ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ في نفي وإثبات، ثم الأصوات:

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ خفيفاً، استغراقاً في المذلة، إما همساً في كلام، أم في الأقدام، نقلة من أجداثهم إلى محشر الحساب، ثم الثواب أو العقاب[4].

فهناك اتباع أوّل للداعي نفخاً في الصور، واتباع ثانٍ في موقف الحساب وإلى اتباعات أخرى ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[5] ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[6].

هكذا يخيّم على المحشورين الصمت الرهيب والسكون الغامر

---

(١) سورة القمر، الآيات: ٦-٨.
(٢) سورة يس، الآية: ٥١.
(٣) سورة النبأ، الآية: ١٨.
(٤) الدر المنثور ٤: ٣٠٨ عن ابن عباس والضحاك وعكرمة وسعيد والشعبي ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] أصوات أقدامهم، وعن سعيد بن جبير قال: سر الحديث وصوت الأقدام.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.
(٦) سورة غافر، الآية: ١٦.

العجيب، فالسؤال تخافت، والكلام والإقدام همس، والخشوع ضافٍ، والوجوه عانية، وجلال الرحمن يغمر النفوس!.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾:

﴿لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ مما يدل على أن هناك شفاعة، ولكن نفعها محصور في ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ففاقد الشرطين لا يُشفَّع إذا شفّع، بل ولا يَشْفَع إذ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[١].

وترى ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ...﴾ هو الشافع؟ ويكفيه إذن ورضى قوله! أم هو المشفّع له؟ والشافع هو المحور الأصيل في إذن الرحمن ورضى قوله!.

قد تعنيهما الآية، فليكن الشافع مأذوناً في شفاعته، ومرضي القول فيها عند الرحمن، وعلى هامشه المشفوع له مأذوناً في أن يشفع له، ومرضياً في قول له، وقد جمعهما فيه ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[٢] أي من ارتضى الله دينه وهو من ساءته سيئته وحسنته حسنته.

فقول الشافع المرضي هو ما وقع موقعه الصالح، وقول المشفوع له المرضي هو كلمة التوحيد فإنه أصل القول، ثم قوله الذي يعذره عن فعله المحتاج إلى شفاعة.

إذاً فليست الشفاعة يومئذٍ فوضى جزافاً لا في الشافع ولا المشفوع له ولا المشفوع لأجله، حيث الكل منوطة بإذن الله ورضاه.

ومن رضى القول وفقه للواقع الصالح وصالح الواقع دون خطإٍ قاصر أو مقصر، حيث ﴿يَعْلَمُ﴾ الله ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ...﴾ شافعين ومشفوعاً لهم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ كذلك الأمر.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

ثم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ هو حاضرهم وما يستقبلون، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هو غابرهم وما يستدبرون، و﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هو الذي يتبنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو العالم كل ذلك، فلو أن شافعاً قال قولاً لا يصدقه الواقع علماً منه أو جهلاً، لم يكن قوله مرضياً، إذ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ بذاته وصفاته وأفعاله وبما يعلم ﴿عِلْمًا﴾ أياً كان، حيث الحيطة العلمية لزامها مسامات العالم، والمعلوم، له ما له وفيه ما فيه حتى يساويه فيساميه فيحيط به علماً، فلا رؤية لأي راء ببصر أم بصيرة[1] أما هيه، إلا معرفة محدودة ممكنة بحق الممكن وكما قال أفضل العارفين وخاتم النبيين ﷺ: «ما عرفناك حق معرفتك» فـ «قد يئست عن استنباط الإحاطة به طوامح العقول وتحيرت الأوهام عن ذكر أزليته»[2] فضلاً عن الحيطة به «إذ هو تبارك وتعالى جعل على أبصار القلوب الغطاء فلا فهم يناله بالكيف، ولا قلب يثبته بالحدود فلا تصفه إلّا كما وصف نفسه: ليس كمثله شيء وهو السميع

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٩٤ في أصول الكافي بسند عن صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرة المحدث أن أدخله إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد فقال أبو قرة: إنا روينا أن الله قسَّم الرؤية والكلام بين نبيين فقسم الكلام لموسى ولمحمد الرؤية؟ فقال أبو الحسن عليه السلام فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الجن والإنس ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أليس محمد ﷺ؟ قال: بلى - قال: كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله فيقول: لا تدركه الأبصار... ثم يقول: أنا رأيته بعينين وأحطت به علماً وهو على صورة البشر أما تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي من عند الله بشيء ثم يأتي بخلافه من وجه آخر - إلى قوله: وقد قال الله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ فإذا رأته الأبصار فقد أحاطت به العلم ووقعت المعرفة، فال أبو قرة: فتكذب بالروايات؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها وما أجمع المسلمون عليه أنه لا يحاط به علماً ولا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء».

(٢) المصدر في كتاب التوحيد خطبة عن علي عليه السلام وفيها: قد يئست...

البصير - الأول والآخر والظاهر والباطن - الخالق البارئ المصور - خلق الأشياء فليس من الأشياء شيء مثله تبارك وتعالى»[(١)].

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾:

عنت له تعنو خضعت مستأسرة بعناء، ومنه يقال للأسير العاني كما عنه ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان» وعناه يعنيه قصده.

والوجوه كل الوجوه بكل الوجوه عنت للحي القيوم الذي أحياها بعد موتها، سواء الوجوه التي عنته وعنت له يوم الدنيا، أو التي لم تعنه ولا عنت له، وإنما عنت وتعنّت، فهنالك الكل ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ شاءت أم أبت ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ يومئذ ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ بنفسه والآخرين وبالحق.

وأما الوجوه العانية له تعالى وإياه إيماناً وعملاً صالحاً ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وإن لم تستوعبها كلها، وإنما الصالحات الرئيسية عقائدية وعملية ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ منه إذ لم يظلم، ولا من ربه إذ لا يظلم - «ولا ظلم اليوم» - ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ لحقّ من حقوقه ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[(٢)].

و﴿ٱلْوُجُوهُ﴾ هنا ليست هي الظاهرة فحسب حيث المحشورون هم بكل كيانهم يعنون الحي القيوم، يواجهونه بظواهرهم وبواطنهم كما يواجههم الله تعالى بعلمه وقدرته فثوابه أو عذابه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾[(٣)].

---

(١) المصدر في التوحيد حديث طويل عن علي عليه السلام يقول فيه وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات وأما قوله... ولا يحيطون به علماً - لا يحيط الخلائق بالله عز وجل علماً إذ هو تبارك وتعالى...

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٣) سورة القيامة، الآيات: ٢٢-٢٥.

وليس ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ كل من ظلم، فمنهم من يتوب عما ظلم، ومنهم من يكفّر عنه صغير ظلمه إذ هو من سيئاته إذا كان تاركاً للكبائر، ومنهم من يشفّع له حيث أذن له الرحمن ورضي له قولاً، فليس أولئك ممن حمل ظلماً مهما ظلم، وإنما الخائب هو الحامل ظلمه معه يوم القيامة، يخيّب قدر ظلمه ولا يظلمون نقيراً، ومن أصدق المصاديق هنا لـ ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ المجرمون المرودة لهم آيات التحذير التنديد.

وهنا ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ جزاءً للشرط بديلاً عن «لا يخف» جزماً، علّه لتقدير «هو» «فهو لا يخاف» دون سواه، وما أحسنه تقديراً لامعاً لامحاً لذلك الحصر!. كـ ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾(١) - ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾(٢).

ثم ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ بعد ﴿ظُلْمًا﴾ هضم وانتقاص عن الثواب، كما الظلم هنا انتقاض للثواب، فالمؤمن الصالح لا يخاف ظلمه ولا هضمه، فقد لا يُظلم ولكنه يُهضم، ومهما كان الهضم من الظلم ولكنهما كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ اللائح الواضح وضح النهار لأبعد أغواره في البيان والتبيان ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ القرآن - ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ في لفظه ومعناه، في مرماه ومغزاه بمبتدئه ومنتهاه، فلا تجد فيه تعقيداً، ولا لفظاً أو معنى بعيداً ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ لمثلث النشآت، ما يحلّ حالاً وما هو آت، دون إبقاء لأي ألوان الوعيد، من قريب وبعيد، فالتصريف تحويل من حال إلى حال حتى تتحول

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

(٢) سورة الجن، الآية: ١٣.

الأحوال بهذه الأهوال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المحاظير، ولا يعتذرون، بمعاذير يتقون عقائدياً وعملياً، أم ولأقل تقدير يتقون التكذيب بآيات الله والصد عن سبيل الله.

﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ الوعيد ﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾ إذا لا يتقون، ذكراً هو حجة عليهم حتى لا يقولوا ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[1] ومن إحداث الذكر واقع الوعيد المزمجر المدمّر هنا ولمّا يتّقوا أو يتذكروا، وهنا يذّكّرون و﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾[2] ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾[3] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾[4].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ عما يصفونه وبه يشركون لأنه ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ لا سواه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الحقيق بألوهيته الوحيدة لا سواه.

«تعالى» في ذاته وصفاته وأفعاله إذ «ليس كمثله شيء - ولا يحيطون به علماً»! فكلّ من سواه متدانٍ بجنبه عانٍ، والله تعالى هو المتعالي الملك الحق.

إنه ملك ومالك لكل شيء بالحق من تكوين وتشريع ومنه قضاء وحي القرآن، فلا تملك منه شيئاً إذ لا يُملّك وحيه لغيره مهما كان رسول القرآن.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٤.
(٢) سورة الدخان، الآية: ١٣.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٢٠٨، ٢٠٩.
(٤) سورة يونس، الآيتان: ٩٠، ٩١.

وترى ما هو استعجال الرسول ﷺ بالقرآن حتى نهي عنه من قبل أن يقضى إليه وحيه؟.

فهل استعجل بنزول آية ولما ينزل لمواعدة بينه وبين بعض الكفار أن يجيبهم عن مسائل وقد ضربوا له أجلاً فانقضى ولما ينزل الوحي بالجواب[1]؟ والعجلة بآية ليست عجلة بالقرآن ككل! ثم كيف يعجل الرسول بما الله يؤجّله، حيث عجّله الكفار بما قرروا له أجل الجواب! ويكأنه يعلّق قضاء وحي الله على الآجال المضروبة من قبل الكفار!.

أم «كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه جبريل بالقرآن أتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه، يتخوف أن يصعد جبريل ولم يحفظه فينسى ما علمه فقال الله: ولا تعجل بالقرآن؟...»[2].

وقد ضمن الله له من قبل ألا ينساه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[3]! وليس حفظ القرآن عجلة به بعد نزوله! وليس من حفظه للرسول ﷺ قضاء وحيه! ولا ينافي حفظه مزيد علمه، بل هو تثبيت لما أوحي إليه!.

إنه استعجال بتحريك لسانه به قبل قضاء وحيه تماماً أو بعضاً حيث كان أليفاً بمحكم القرآن قبل تفصيله، أنيساً بمعانيه قبل ألفاظه، فكان أحياناً يسبق جبريل في قراءة الوحي ولمّا يقرؤه، أو لمّا يتم، شغفاً بالغاً إلى منشور ولايته وسناد رسالته.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٢: ١٢٣ قال الضحاك: إن أهل مكة وأسقف نجران قالوا: يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك أجلاً ثلاثة أيام فأبطأ الوحي عليه وفشت المقالة بأن اليهود قد غلبوا محمداً فأنزل الله هذه الآية.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٠٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال كان النبي ﷺ: ... وقال: لا تحرك به لسانك لتعجل به، أقول راجع تفسير الآية في الجزء ٢٩ من الفرقان تجد تفصيلاً لائقاً بالبحث هناك.

(٣) سورة الأعلى، الآية: ٦.

والآية متأيدة في هذا التفسير الأخير بآية القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[١] كما وتؤيّد بتعقيبها في نفسها:

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ فلا يكفيك العلم بمحكم القرآن النازل ليلة القدر، إذ لا يحمل التفصيل وليس إلا بالوحي، ولا يحمل تلك العبارات الفائقة التصور في أعلى قمم الإعجاز، وليس إلا بالوحي.

إذاً فقضاء وحي القرآن هو إتمامه بعد شيء منه، فـ «قضاه» بمعنى أتمه، والقرآن المفصل بلفظه ومعناه، هو إتمام للقرآن المحكم: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٢].

هذا إتمام لمحكمه بمفصله، وإتمام ثانٍ هو في مفصله وكما يروى «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن بادر بقراءته قبل نزول الآية والمعنى فأنزل الله ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي يفرغ من قراءته ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٣].

ولا يؤنّب الحبيب إذا عجل بكلام حبيبه شغفاً بالغاً فيه، اللهم إلّا أن ينهى استكمالاً له وكما أمره: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

وذلك التعقيب التلحيق العميق ينبهنا أن ليس الرسول محيطاً بكل شيء علماً، لا! وحتى العلم الرسالي بالفعل، فإنما يتدرج في علمه أياً كان، شخصياً كالمعرفة أم رسالياً كأحكامها، ولقد كان يقول: «اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً والحمد لله على كل حال»[٤].

---

(١) سورة القيامة، الآيات: ١٦-١٩.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٩٦ في تفسير القمي في الآية قال كان رسول الله ﷺ ....

(٤) الدر المنثور ٤: ٣٠٩ - أخرج الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ يقول...

والمحور الأصيل في العلم المطلوب هنا هو علم القرآن ومن ثم السنّة وعلى ضوئهما - والعمل الصالح - علم المعرفة الإلهية وكل ما يناسب ساحة الرسالة القدسية. وفي المروي مستفيضاً عن أهل بيت الرسالة عليهم السلام «لولا أنا نزداد لأنفدنا»[١].

وما أحلاه ما يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه وآله وسلم أن العلم هو الإنصات له...»[٢].

وحين يقال لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: إنا نسألك أحياناً فتسرع بالجواب، وأحياناً فتطرق ثم تجيبنا؟ قال: نعم إنه ينكت في آذاننا وقلوبنا فإذا نكت نطقنا وإذا أمسك عنا أمسكنا[٣].

وحين يُسأل أمير المؤمنين عليه السلام من أعلم الناس؟ يقول: «من جمع علم الناس إلى علمه»[٤].

إن «معرفة الله حق معرفته هو رأس العلم»[٥] وسائر العلم وسائلُها، ولا

(١) نور الثقلين ٣: ٣٩٧ عن الكافي عن زرارة قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لولا أنا نزداد لأنفدنا قال قلت: تزدادون شيئاً لا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: أما إنه إذا كان ذلك عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم على الأئمة ثم انتهى الأمر إلينا، وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ليس يخرج شيء من عند الله عز وجل حتى يبدأ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم بأمير المؤمنين عليه السلام ثم بواحد بعد واحد لكي لا يكون آخرنا أعلم من أولنا.

وعن المجمع روت عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله فلا بارك الله لي في طلوع شمسه.

(٢) المصدر ٣٩٩ عن الخصال عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: يا رسول الله ما العلم؟ قال: الإنصات له قال: ثم ما؟ قال: الاستماع له، قال: ثم ما؟ قال: الحفظ له، قال: ثم ما؟ قال: العمل، قال: ثم ما؟ قال: نشره.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٩٨ في بصائر الدرجات عمران بن موسى عن موسى بن جعفر عن عمرو بن سعيد المدايني عن عيسى بن حمزة الثقفي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنا نسألك...

(٤) المصدر في الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل أمير المؤمنين..

(٥) المصدر في كتاب التوحيد بإسناده إلى ابن عباس قال جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا =

نهاية لحقّ المعرفة واليقين وكما يؤمر رسول الهدى ﷺ ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[١].

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾:

علّها إضافة إلى بيان واقع سابق من ضعف العزم الإنساني المتمثل في الإنسان الأولى، هي إلى جانب ذلك تكريم لساحة الرسالة القدسية الأخيرة، التي يحملها أعظم أولي العزم من الرسل.

فأنت يا محمد ﷺ محافظ لعهد الله تماماً، وعازم عليه تماماً، ولذلك قد تسبق رسول الوحي في قراءته، وأين أنت من آدم حيث عهدنا إليه من قبل فنسي العهد ولم نجد له عزماً وثباتاً على العهد!.

ولا نعهد عهداً إلى آدم في الذكر الحكيم إلّا ألّا يطيع الشيطان ولا يقرب الشجرة المنهية كما في آيات عدة مثل ما هنا: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾[٢].

ونسيان عهد الله لو كان عن قصور لا يسمى عصياناً، وإن كان عن تقصير كان عصياناً، ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ - ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ هما في جملة عساكر الأدلة القاطعة على نسيانه المقصر العصيان، ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ تعني أن لم يكن له عزم على تطبيق العهد رغم تقبّله وتصديقه، فـ «لم أجد» في غير الله أعم من الوجود وعدمه حيث العلم غير مطلق ولا مطبق، ولكنه في الله صيغة أخرى عن عدم الوجود، ولماذا «لم نجد» بديلاً عن «لم

= رسول الله ﷺ علمني من غرائب العلم، قال: ما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه؟ قال الرجل: ما رأس العلم، يا رسول الله؟ قال: معرفة الله حق معرفته، قال الأعرابي: وما معرفة الله حق معرفته؟ قال: تعرفه بلا مثل ولا شبه ولا ند وأنه واحد أحد ظاهر باطن أول آخر لا كفو له ولا نظير له فذلك حق معرفته.

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

(٢) سورة طه، الآية: ١١٧.

يكن أو لم يوجد له عزم» حيث الثاني يستأصل عزمه كأن الله لم يخلق له عزماً، إذاً فهو قاصر لا يتمكن من عزم، ولكن «لم نجد» تنفي وجود عزمه بما قصّر، لامحة أنه خلق له عزماً مختاراً في تطبيق عهده، ولكنه نسي عهده وترك عزمه لعهده، فأصبح عهداً دون عزم تقصيراً منه دون قصور، ولذلك يعلن في هذه الإذاعة القرآنية العالمية ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

أجل، وكلما كانت النفس أعزم على تطبيق عهد الله فهي أعظم عند الله، وأبعد عن محارم الله، حتى يتصل إلى قمة العزم وهي النفوس القدسية لأولي العزم من الرسل ومن نحى منحاهم كالأئمة من آل الرسول الأقدس محمد ﷺ.

ونسيان آدم، المقصِّر، كان تناسياً على ذكر، وإلا فكيف هنا أصل النسيان وقد ذكره الله من قبل بموقفه مع الشيطان: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ...﴾ أم «كيف ينسى وهو يذكره ويقول له إبليس: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾(١) (٢).

وكضابطة عامة لا عصيان إلا بنسيان الرب وعهده تساهلاً وتناسياً وتجاهلاً عانداً أم عامداً أم عن جهالة، ونسيان الله وعهده على أية حال عصيان مهما اختلفت دركاته.

ولقد نبه الله آدم حين خلقه وأسجد له ملائكته وتمنّع إبليس عن السجدة، نبَّهه بذلك العهد وذكَّره:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾:

ولقد فصلنا القصة وحققناها حسب المستطاع في البقرة وقلنا هناك وفي

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.
(٢) البحار ١١: ١٨٧ ح ٤٣ عن جميل بن دراج عن بعض أصحابنا عن أحدهما قال سألته: كيف أخذ الله آدم بالنسيان؟ فقال: إنه لم ينس وكيف ينسى...

مواضع أخرى أن المسجود له هنا عبودية أو احتراماً هو الله، وآدم هو المسجود له شكراً لله، كما تقول سجدت لولدي بياناً لدافع سجودك شكراً لله.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾:

عداء سابق على السجدة لماذا أمر بها، وعداء لاحق على مرّ الزمن لماذا لُعن بتركها: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١] ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢].

والشقاء هنا، المتفرعة على الخروج عن الجنة إلى الحياة الأرضية، هي التعب والعناء في هذه الحياة، فالشقاء بالكدّ والعمل والشرود والضلال والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان، أم أياً كان، كل هذه تنتظرك خارج الجنة في حياة الشقوة الأرضية، وأنت في حمى منها كلها في رحاب الجنة.

ومن أصول الشقاء هناك خارج الجنة الجوع والعرى والظمأ والضحى:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾:

لا جوع فيها حيث الأكل حاضر فيها كما تشهي دون كدّ للحصول عليه، ولا عرى حيث ملابس الجنة تلابسك دون سعى قد يخيب، ولا ظمأ العطش حيث الماء فيها كما تشاء وحيث تشاء، ولا ضحى الشمس حيث الجنة تجن عن الشمس الضاحية، ثم وبرودة الهواء ونعامتها من ناحية، وعدم الحاجة إلى مظلّات من أخرى، لا تُحوجك تكلُّف التستر عنها.

وهنا الجوع والعرى يتقابلان مع الظمإ والضحوة، وهي في مجموعها

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٢.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٣٩.

تمثّل رؤوس متاعب الإنسان وشقائه في الحصول على حاجيات الحياة ودفع مضراتها.

هذا - ولكنما الإنسان النسيان، الغفلان عن تجاربه مع الشيطان، والرغبان في البقاء والسلطان، من هذه الثغرات ينفذ إليه الشيطان، ابتلاءً بالعصيان وخروجاً عن جوار رحمة الرحمن:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾:

﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ...﴾(١).

الشيطان يحبِّذ إلى آدم الأكل من الشجرة المنهية، واصفاً لها بشجرة الخلد وملك لا يبلى، بعد أنّ الرحمان يحذره منها، واصفاً لها بشجرة الشقاء والخروج عن جنة الراحة والبقاء، ويا للإنسان من غفلة ونسيان لعهد الله وذكراه، كيف يميل إلى الوسواس الخناس، ويترك عظة إلٰه الناس؟.

أتراه كذَّب الله في وعده مصدقاً للشيطان، وهو من أكفر الكفر! أم أن شغفه البالغ لخلد الحياة في الجنة وملك فيها لا يبلى أنساه ذكراه، فنسي عداء الشيطان والشقاء الناتج عن اتّباعه ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(٢) فلقد لمس اللعين في نفس آدم الموضع الحساس، وهو تطلّب البقاء، فأنساه العهد والعناء المتوعدة على الخروج من الجنة، فأقدم على المحظور:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾:

وهذه السوءات هي العورات، فقد كانت عنهما مستورة، وكان بدوّها

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٢٠-٢٢.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٥.

من أهداف الشيطان: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾[1] ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾[2].

فقد كانت عوراتهما ملبوسة بلباس الجنة ولمّا تبدو لهما منذ خُلقا، فلما أكلا من الشجرة نزع عنهما لباسهما فبدت لهما عوراتهما، عورةً ظاهرة كانت خفية، نتيجة عورة باطنة في الروح هي النسيان العصيان، وليعلم الإنسان أنه في قرارة نفسه عورة ظاهرةً وباطنةً، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وعند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال.

وبالفعل ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ وهي مواضع الجنس والعفة بما أكلا، ومواضع الخفة في الروح لماذا أكلا، فأصبحا عارفين من عورات الروح والجسم ما أريا ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ستراً لعورات الجسم، ولكنهما كيف يستران عورات الروح؟:

﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[3] وقد بقي عليهما أن يسترا عورات الروح حيث ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾! «وهي أول قدم مشت إلى الخطيئة»[4] وطبعاً بين قبيل الإنسان، فإن الشيطان سبقه فيها.

وقد تلمح ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ إنهما ما قدراً على أن يخصفا، وإلّا لكان حق التعبير «فخصفا» فإنما حاولا، وأما واقع الخصف فلا خبر عنه، ثم ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ...﴾ كانت مشروطة بعدم الأكل من الشجرة وقد اكلا فليعريا هنا وفي الحياة الأرضية.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.
(٤) نور الثقلين ٣: ٤٠٣ في علل الشرائع بإسناده إلى الحسين بن أبي العلا عن أبي عبد الله عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل يقول فيه صلى الله عليه وآله وسلم: لما أن وسوس الشيطان إلى آدم دنا من الشجرة ونظر إليها ذهب ماء وجهه ثم قام ومشى إليها وهي أوّل ثم مشت إلى الخطيئة ثم تناول بيده مما عليها فأكل فطار الحلي والحلل عن جسده.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾!

وهنا أول إنسان يبتلى بأول عصيان، مهما حاول ناس وهم الأكثرية المطلقة من مفسرين ومحدثين أن يحوِّلوا عصيانه إلى ترك الأولى، ولكنه محاولة غافلة فاشلة حيث تخالف نصوص الكتاب والسنّة وكما فصلناها على ضوء آية البقرة.

ومنهم من يردِّد القول أن ذلك كان قبل تشريع الشِّرعة، وأنه كان نهياً إرشادياً، وتراه ماذا يقصد من الشرعة الإلهية، أهي المشرَّعة منذ الرسالة الأرضية؟ ولا ينافيها حكم واحد تكليفي أو يزيد قبل هذه الشرعة! أم تعم أي حكم إلهي؟ فقد حكم الله قبل الشرعة الأرضية أحكاماً عدة، منها ما أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس، وقد لعن إبليس حين أبى، فهلّا هو عاصٍ إذ لم تكن هنالك شرعة؟ وهو شر عصيان! أم لم يكن الملائكة - إذاً - طائعين؟ وهي خير طاعة! فكذلك في عصيان آدم وقد لحق عصيان الشيطان.

فحتى لو كان النهي إرشادياً - ولم يكن - فهو أيضاً من الشرعة، وعصيان النهي الإرشادي بهذه الصورة العجيبة، هو أيضاً في الحق عصيان، ثم طبيعة الحال في الأوامر والنواهي الإلهية أنها مولوية ككلٍّ إلا بقرينة قاطعة، أم هي كلها إرشادية حيث ترشد إلى مصالح تحملها فردية أم جماعية، فمجرد أن تسمى نهياً إرشادياً - ودون أي برهان - لا يخرج تخلفه عن العصيان، وكما الله صرح في هذه الإذاعة القرآنية ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

فلو كان تركاً للأولى فكان الأولى بل المحتوم في القرآن البيان «وترك الأولى» دون ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ لا سيما مع تصريحات أخرى تؤيد أنه حقاً «عصى»: فالنهي المؤكَّد عن الأكل منها، ثم فتكونا من الظالمين، وأنه زل، وشقي،

وعصى، وأهبط من الجنة، وتاب فيها وبعدها، هذه عساكر سبعة تدلنا على أنه حتماً «عصى فغوى».

و«عصى» بنفسها تكفي دلالة على اقتراف الحرام ولم تستعمل في القرآن كله إلا في نفس المعنى، كما الظلم والزلة والشقاء والغواية، ثم هذه التوبة العريضة ليست إلا عن ارتكاب محرم.

وترك الأولى تخلفاً عن نهي إرشادي كما يقولون، لا يستحق هذه التعابير القاسية القاضية على العدالة فضلاً عن العصمة، ولا يستوجب تلك التوبة الطويلة العريضة! والعصمة الضرورية لساحة الرسالة هي منذ الرسالة حتى يقضي الرسول نحبه، دون ما قبلها إلا لمن دلت لهم الدلالات القاطعة كالرسول محمد ﷺ وعترته الطاهرة عليهم السلام ومن نحى منحاهم من أولي العزم أم سواهم.

وليت شعري ماذا يدفع هؤلاء الأعاظم إلى تأويل نصوص الكتاب والسنّة في عصيان آدم عليه السلام؟

أإستعظاماً لشأن آدم عليه السلام والقرآن أعظم شأناً أن يؤوَّل إلى خلاف نصوصه، وما تشهيره فيه بذنبه إلا «أن مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة»[1] وليعلم ذريته أنهم سيبتلون بالشيطان كما ابتلي أبوهم آدم فيتخذوه عدواً.

ولعمر إلهي الحق أن ذلك التأويل العليل غريب في نوعه دون أي تعويل إلا على أن الأنبياء معصومون! ولم يكن هذا العصيان إلا قبل نبوته[2]

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١٦ : ٢٧٥ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي عبد الله المغربي قال: تفكر إبراهيم عليه السلام في شأن آدم عليه السلام فقال: يا رب خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك ثم بذنب واحد ملأت أفواه الناس من ذكر معصيته؟ فأوحى الله إليه يا إبراهيم أما علمت أن مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة!؟

(٢) البحار ١١ : ١٦٤ ن عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده =

لمكان ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ والقرآن مصرح بذلك العصيان، ولا يوجد في عشرات من الأحاديث الناظرة إليه المفسرة له إلا نفس الذنب والخطيئة والعصيان، دون ترك الأولى ولا مرة يتيمة.

وغريب من صاحب بحار الأنوار أنه يعنون باباً من أبوابه بـ «ارتكاب ترك الأولى» سرداً لآيات عصيان آدم ورواياته، ولا ينبئك مثل خبير بغربة القرآن الغريبة حيث تؤول آياته البينات دون أي برهان، حتى وإذا صدقت بمتظافر الأحاديث التي هم يؤصّلونها، ويفرعون القرآن عليها(1)!

= الرضا علي بن موسى عليه السلام فقال له المأمون: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى قال: فما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى قال لآدم عليه السلام: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البَقَرَة: ٣٥] وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار، «إنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة قال الله عز وجل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١-١٢٢] وقال الله عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٣٣].

(1) البحار ج ١١ وهذا الباب يشمل (٤٨) صفحة من ١٥٥ - ٢٠٣ - وفيها عشرات من الأحاديث الدالة على أنه حقاً كان عصياناً وفيما يلي عشرة منها تقدم واحد تحت الرقم (١): ص ١٦٣ ح ٦ «فس أبي عن ابن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن موسى سأل ربه أن يجمع بينه وبين آدم عليه السلام فجمع فقال له موسى: يا أبه! ألم يخلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأمرك ألا تأكل من الشجرة فلِمَ عصيته؟ قال: يا موسى بكم وجدت خطيئتي قبل خلقي في التوراة، قال: بثلاثين سنة، قال: فهو ذلك، قال الصادق عليه السلام: فحج آدم موسى».

أقول: وجد أن خطيئة في علم الله لا يبررها حيث العلم ليس علة للعصيان، وهل كان آدم يعلم أن الله يعلم بخطيئته في المستقبل؟ أم سيَّره على خطيئته إذاً فهو خطيئة من الله وسبحان الله، إذاً فكيف حج آدم موسى، وعلى فرض الغض عن ذلك فهما معترفان أنه كان خطيئة لا تركاً للأولى، وإلا لكان آدم يحجه بذلك دون العلم السابق.

ح ٧ - «فس روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أخرج آدم من الجنة نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا آدم أليس الله خلقك بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وزوجك حواء أمته وأسكنك الجنة وأباحها لك ونهاك مشافهة أن لا تأكل من هذه الشجرة فأكلت منها وعصيت =

. . . .

= الله؟ فقال آدم: يا جبرئيل إن إبليس حلف لي بالله أنه لي ناصح فما ظننت أن أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً.

ح ١٠ - عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: لولا أن آدم أذنب ما أذنب مؤمن أبداً ولولا أن الله تاب على آدم ما تاب على مذنب أبداً.

ح ١٥ - عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى لما أراد أن يتوب على آدم أرسل إليه جبرئيل فقال له: السلام عليك يا آدم الصابر على بليته كالتائب من خطيئته...».

ح ١٨ - عن زر بن حبيش قال: سألت ابن مسعود عن أيام البيض ما سببها؟ وكيف سمعت؟ قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن آدم لما عصى ربه عز وجل ناداه منادٍ من لدن العرش يا آدم اخرج من جواري فإنه لا يجاورني أحد عصاني فبكى وبكت الملائكة فبعث الله عز وجل إليه جبرئيل فأهبطه إلى الأرض مسوداً فلما رأته الملائكة ضجت وبكت وانتحبت وقالت: يا رب خلقاً خلقته ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك بذنب واحد حولت بياضه سواداً... ثم واصل في بيان ما كلفه آدم أيام البيض الثلاثة حتى صار كله بياضاً.

ح ٢٥ - عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن آدم بقي على الصفا أربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنة وعلى خروجه من جوار الله عز وجل فنزل عليه جبرئيل فقال: يا آدم، ما لك تبكي؟ قال: يا جبرئيل ما لي لا أبكي وقد أخرجني الله من جواره وأهبطني إلى الدنيا؟ قال: يا آدم تب إليه....

ح ٢٩ - عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن آدم لما طاف بالبيت فانتهى إلى الملتزم فقال جبرئيل: أقر لربك بذنوبك في هذا المكان، فوقف آدم فقال: يا رب إن لكل عامل أجراً وقد عملت فما أجري فأوحى الله تعالى إليه يا آدم من جاء من ذريتك إلى هذا المكان فأقر فيه بذنوبه غفرت له.

ح ٣٥ - عن أبي جعفر عليه السلام قال: الكلمات التي تلقّى بهن آدم ربه فتاب عليه قال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك إني عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت التواب الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين».

ح ٣٦ - من عطاء عن أبي جعفر عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنما كان لبث آدم وحواء في الجنة حتى خرج منها سبع ساعات من أيام الدنيا حتى أكلا من الشجرة فأهبطهما إلى الأرض من يومها ذلك قال: فحاج آدم ربه فقال: يا رب أرأيتك قبل أن تخلقني كنت قدرت علي هذا الذنب وكل ما صرت وأنا صائر إليه أو هذا شيء فعلته أنا من قبل لم - أن - تقدره علي غلبت علي شقوتي فكان ذلك مني وفعلي لا منك ولا من فعلك؟ قال له: يا آدم أنا خلقتك وعلمتك أني أسكنك وزوجتك الجنة وبنعمتي وما جعلت فيك من قوتي قويت بجوارحك على معصيتي ولم تغب عن عيني ولم يخل علمي من فعلك ولا مما أنت فاعله =

أجل إنه عصى فغوى، ولكنها معصية صغيرة حيث نسي واغتر بما قاسمه إبليس(١) وكان ذلك قبل رسالته(٢) فإنه:

﴿ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾:

الاجتباء من الجباية: الجمع، والافتعال جمع متكلَّف فيه، وإذ لا تكلف في أفعال الله تعالى، فليكن اصطفاء له بعد صفائه بتوبته وهداه، فللعصمة مرحلتان، إخلاص خَلقي، ثم إخلاص من الله، فلما يجبي الإنسان نفسه لربه كما يستطيع، فقد يجتبيه ربه لنفسه رسولاً منه إلى خلقه، و﴿رَبُّهُۥ﴾ هنا دون «الله» أم «رَبِّ الْعالَمِينَ» تلمح لهذه الربوبية الخاصة في ذلك الاجتباء.

= وقال آدم يا رب الحجة لك علي... قال الله: يا آدم أنا الله الكريم خلقت الخير قبل الشر وخلقت رحمتي قبل غضبي وقدمت بكرامتي قبل هواني وقدمت باحتجاجي قبل عذابي، يا آدم ألم أنهك عن الشجرة وأخبرك أن الشيطان عدو لك ولزوجتك وأحذركما قبل أن تصيرا إلى الجنة وأعلمكما أنكما إن أكلتما من الشجرة كنتما ظالمين لأنفسكما عاصيين لي، يا آدم لا يجاورني في جنتي ظالم عاص لي، قال فقال: يا رب الحجة لك علينا. ظلمنا أنفسنا وعصينا وإلا تغفر لنا وترحمنا نكن الخاسرين.

(١) مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: والصادق حقاً هو الذي يصدق كل كاذب بحقيقة صدق ما لديه وهو المعنى الذي لا يسع معه سواه أو ضده مثل آدم عليه السلام صدق إبليس في كذبه حين أقسم له كاذباً لعدم ما به الكذب في آدم عليه السلام قال الله عز وجل: ولم نجد له عزماً، ولأن إبليس كان أول من ابتدأ بالكذب وهو غير معهود وأظهره وهو غير مشروع ولا يعرف عند أهل السماوات والأرض ظاهراً وباطناً فحشر هو بكذبه على معنى لم ينتفع به من صدق آدم عليه السلام على بقاء الأبد وأفاد آدم بتصديق كذبه شهادة الله عز وجل بنفي عزمه عما يضاد عهده في الحقيقة على معنى لم ينتقض من أصفيائه بكذبه شيئاً».

(٢) نور الثقلين في عيون الأخبار بإسناده إلى أبي الصلت الهروي قال: لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا عليه السلام أهل المقالات من أهل الإسلام والديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين وسائر المقالات فلم يقم أحد إلا وقد ألزمه حجته كأنه ألقم حجراً قام إليه علي بن جهم فقال له: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتقول بعصمة الأنبياء فقال: نعم قال: فما تعمل في قول الله عز وجل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]؟ فقال: إن الله عز وجل خلق آدم حجته في أرضه وخليفته في بلاده لم يخلقه للجنة، وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض لتتم مقادير الله عز وجل فلما أهبط إلى الأرض وجعل حجة وخليفة عصم بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى الْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

و«ثم» هنا تجعل اجتباءه الرسالي متأخراً عن توبته تعالى عليه وهداه، وهذه طبيعة الحال في الاجتباء، كما أن ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ تدل على توبته إلى الله فتاب الله عليه، وهذه التوبة محفوفة بتوبتين من الله إلى التائب، من قبل حتى يتوب إلى الله، ومن بعدُ توبةً من الله عليه تقبلاً منه، حتى يتوب عليه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾[1].

كما أنّ ﴿وَهَدَىٰ﴾ هي هدى بعد توبة الله عليه ثانية، وليس الاجتباء إلا بعد هذه الهدى، فهو المرحلة الخامسة بعد تخطيّه هذه الأربع، توبات ثلاث وهدى، والاجتباء هدى رسالية بعد الهدى الخاصة المبيّنة صلاحية الرسول كشخص، وهي المعنية بالهدى التالية:

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾:

هنا ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ﴾ وفي سواها ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾[2] ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾[3] فهل المخاطب مثنى فكيف الجمع في ذلك الجمع؟ أم هو جمع فلماذا المثنى في هذه اليتيمة؟.

«اهبطوا» في هذه الثلاث الأخيرة تجمع آدم وزوجه والشيطان، و﴿ٱهۡبِطَا﴾ هنا بقرينة الجمع في ﴿يَأۡتِيَنَّكُم﴾ والعداء في ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ تعني نفس الجمع، والتثنية اعتباراً بالفريقين المتناحرين على طول خط الحياة، فالعداء الأصيل هو بين الشيطان والإنسان ككلٍّ، ويتفرع عليه عداء ثانٍ بين قبيل الإنسان ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾[4] وهنا احتمال ثانٍ أن التثنية تعني قبيلي الرجال والنساء المنتسلين

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

من الأولين، ومباعضة العداء تعم عداء كل للآخر، وعداء كلٍّ مع قبيله، ثم الشيطان رأس الزاوية في كل عداء.

وذلك العداء بين قبيل الإنسان، وأثره عليه من قبيل الشيطان، هما لا يزولان أم يخفان إلا بهدى الله الملك المنان:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ ونون التأكيد تنسف التردد في إتيان هدى إلى التأكد منها، و﴿هُدًى﴾ هذه، الآتية بعد الهبوط، ليست هي الفطرية والعقلية والحسية وقد أوتيها كل مكلف منذ خَلْقِه، بل هي الهدى الرسالية بالوحي، غير المستطاعة لهم، سواء أكانت هدى العقل صداً عن أخطائه أما زاد، وعليها هي مادة الرسالة الأولى التي حملها آدم عليه السلام حيث الشرعة الإلهية بفروعها الأحكامية الشاملة إنما ابتدأت من نوح: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ...﴾[1] فقد ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾[2] والنبيون هنا هم حملة الشرائع منذ نوح إلى محمد عليهما السلام، وآدم كان رسولاً مهدياً بهدي الدلالات العقلية الناضجة ولم يكن نبياً، حيث النبوة هي منزلة رفيعة في الرسالة، وآدم لم يحظو إلا مرتبة دانية بدائية من الرسالة.

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ في أية شرعة إلهية ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ اتباعاً للشيطان، وعداءً بعضهم لبعض، وقصوراً للعقل عن كامل المصلحة الحيوية، وبالنتيجة ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ بالرغم من أن الحياة الدنيا هي حياة الشقاء، وبأحرى ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في البرزخ والأخرى، فالشقاء في الحياة لمتبع الهدى منفية، في عيشة راضية مرضية، وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ في تفسير آية الهدى «من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

القيامة...»[1] وهذا تفسير تطبيقي للهدى بأفضل مصاديقها.

وترى كيف يهدِّد آدم إذا عصى بأنه يشقى، وإذا أطاع فلا يشقى، وهنا يعده مرة أخرى ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في هذه الحياة الأرضية الشقاء؟.

علّه لأن الشقاء المهدد بها تعم النشآت الثلاث روحية وبدنية، وهي تُجبَر باتباع الهدى، إلا بدنية في الأولى، لا تحسب بشيء بجنب الرياحة الروحية برضوان من الله.

صحيح أن آدم أهبط من الجنة بما عصى، ولكنه زُوِّد في الحياة الأرضية بزاد التقوى التي تجعل له منها جنة المأوى، إضافة إلى حياته الحسنة في الدنيا، والجنة التي يخلفها الإنسان بما سعى، خير من جنة دخلها دون أن يسعى.



(١) الدر المنثور ٤ : ٣١١ - أخرج ابن أبي شيبة والطبراني - وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ... وذلك أن الله يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ
أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ
أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ
يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى
ٱلنُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩)
فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ
وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ
إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ
وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ
وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا
فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا
لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤)
قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ
ٱهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ
أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ :

﴿ذِكْرِي﴾ هنا هو «هداي» هناك، وكما الذكر درجات كذلك الإعراض عن الذكر دركات تجمعها ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ و﴿ذِكْرِي﴾ بين آفاقي وأنفسي، ومن أفضل الأول القرآن ورسول القرآن ويتلوه من يتلوه[1] والثاني فطري وعقلي، وكل ذلك من مصاديق ﴿ذِكْرِي﴾ على اختلاف درجاتها.

وكيف ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ وجاه ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ والصيغة الصالحة «من لم يتبع هداي»؟ عله لأن هناك من لا يتبع هداه ولا يعرض عنها، كالمستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، في قصور مطلق أم طرف من التقصير لا يؤخذ بعين الاعتبار.

وكذلك العصاة الذين هم مصيرهم إلى الجنة، إذ لم يعصوا الله إعراضاً عن ذكره وهداه، وإنما غلبت عليهم شهوتهم وشقوتهم وأركسوا فيها دون إعراض، فالصيغة الصالحة - إذاً - كما هيه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي...﴾ والآيتان تتحدّثان عن كتلة الإيمان الصائب والكفر الثاقب، وأما العوان بينهما فلا ذكر عنهم في آية الذكر والهدى.

والمعيشة فعيلة من العيش وهو بالنسبة للمعرضين عن ذكر الله عيش الحياة الحيوانية التي يُظن أنهم منها في رياحة دائبة، وأما الروحية فهي خاوية عنهم وهم خاوون عنها، ولأن الروح يتطلب - فطرياً - اللامحدود من الكمال، وهم اثّاقلوا إلى الحياة الدنيا واطمأنوا بها، فلا يجدون بغيتهم فيها، وهم في نفس الوقت في تزعزع وتلكع دائب إذ لا ينالون منها غاية ما يحبون فيها.

فالمعيشة الضنك المخلَّفة من الإعراض عن ذكر الله هي الضلال المبين

---

(١) كفاية الخصام ٤٩٦ - أبو صالح عن ابن عباس في الآية قال: تعني الذي ترك ولاية علي عليه السلام أعماه الله وأصمه، أقول. وفيه روايات مستفيضة من طرق أصحابنا عن أئمتنا عليهم السلام.

والشقاء الأشقى ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ هي أبرز مصاديق المعيشة الضنك، ثم البرزخ ثم الدنيا»(١).

والقلب الهاوي المضطرب المرتكن إلى الدنيا ولذاتها لا يعيش صاحبه إلا معيشة ضنكاً مهما كان في سعة ومتاع، حيث المقطوع الصلة عن الله والاطمئنان إلى حماه هو في ضيق وضنك الحيرة، حرصاً على حاضره، وحزناً على غابره، وطمعاً في مستقبله بكل محاظره، فهو دائباً يعيش ضنك الجري وراء بوارق المطامع والحسرات على ما لا يناله، وقد يروى عن رسول الهدى قوله: «عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدة وأن لا يتوصل إلى قوته إلا بمعصية الله تعالى»(٢).

وهذه هي الدنيا التي لا جزاء فيها، فكيف بالآخرة؟ ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ كما كان يوم الدنيا أعمى وأين عمىً من عمىً؟.

وتراها عمىً عن البصر فلا يبصرون هناك شيئاً؟ فكيف يقال لهم: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٣) ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾(٤). أم عمى عن البصيرة؟ ولم تكن لهم بصيرة في الأولى حتى يعموا عنها في الأخرى!.

الأصل في العمى هي التي عن البصيرة: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٥) فهي - إذاً - عمى الضلال عن السبيل، مهما كان بصيراً بالبصر الحيواني وأرقى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣١١ عن النبي ﷺ في الآية قال: عذاب القبر.
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٢: ١٣١ روي عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: . . . .
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٤.
(٤) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

﴿ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[(١)] و﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾[(٢)] ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾[(٣)].

أم أنها تجمع لهم عمى البصر إلى عمى البصيرة حين يحشرون، ثم يرجعون إلى أبصارهم ليروا بها ما يوحشهم عذاباً فوق العذاب، ومن ذلك مسرح الأعمال التي يرونها، ومختلف ألوان العذاب ومظاهر التجديف والتخويف التي يرونها، دون أن يروا أو ينتظروا خيراً ينالونها ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾[(٤)] تحد البصر إلى ما يزعجك، ولكنه أعمى من النظر إلى ما يبهجك[(٥)].

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾﴾:

كنت بصيراً بصر البصر، وبصيراً بصر البصيرة الحذق والسياسة الحيوية، وعلّ ﴿كُنتُ بَصِيرٗا﴾ هي باعتبار الأكثرية المطلقة، أم أن الأعمى لا يعرض عن ذكر الله، أو أنه حكاية حال البصير منهم حيث الأعمى لا يسأل هكذا، والأعمى المؤمن البصير يحشر بصيراً لبصارته الإيمانية، والمعرض عن ذكر الله البصير يحشر أعمى فسناداً إلى الضابطة العادلة: «كما تعيشون تبعثون» يقول ﴿لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ...﴾؟ والجواب. الحاسم:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾:

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي عشت قد حشرت، إذ كنت أعمى عن إبصار الحق

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٢) سورة محمد، الآية: ٢٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨.
(٤) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٥) في الكافي بإسناده عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من مات وهو صحيح موسر لم يحج فهو ممن قال الله عز وجل: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] - قال: قلت: سبحان الله أعمى؟ قال: نعم أعماه الله عن طريق الحق».

وسماعه والتفكر فيه على التماعه حيث ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ مبصرة ومسموعة ومعقولة ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أنها آياتي، وأعرضت عنها وقد كانت ذكرى، وهكذا تحشر أعمى كما كنت أعمى ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ حرماناً عن البصيرة مدى حياتك في الأخرى، وعن البصر حيث ضيعته فيما لا يعنى، إبطالاً له عما يعنى!.

وذلك ظهور الحالات الدنيوية في الملكوت، أن تظهر عمى البصيرة على البصر، فالهول الشامل حين الحشر من ناحية، والعمى الحائلة عن إبصار المسرح المفجع من أخرى، إنه عذاب فوق العذاب، مهما يرجع بصيراً بعد ردح أم في فترات لكي يرى العذاب، عذاباً من نوع آخر فوق العذاب، فعماه حشراً عذاب، وإبصاره بعده عذاب جزاءً بما كانوا يعملون ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى الشديد الصدى ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ وتولى ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ﴾ نجزي معيشة ضنكاً في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ لو كانوا يعلمون، وهنا تنتهي الجولة بطرفيها الصالح والطالح، وبالتالي جولة للطالحين هي أقرب من الأخرى، فإنها واقع تشهده العيون إن كانت الأخرى غيباً عن العيون:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾:

«هدى له» هي الهدى الصالحة لمن يهتدي بها حجة بالغة عليه ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أولاء المعرضين عن ذكري ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الخالية البالية بما أسرفوا ولم يؤمنوا، وهم أولاء ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ﴾ ويرون بأمِّ أعينهم آثارهم الخاوية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك في قرون مضت ﴿لَـَٔايَٰتٍ﴾ بينات

﴿لِأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ جمع نُهية وهي العقل الناهي عن هوى النفس، وأما المعقول بعقال النفس فهو معرض عن آيات ربه وذكره.

فحين تجول القلوب والعين في مصارع القرون، وتطالع العين ويطلع الضمير على آثارهم ومساكنهم عن كثب، ويتصور الإنسان النسيان شخصوهم الذائبة وأشباحهم الهاربة، حين يتأمل ذلك الحشد من الأشباح والصور ثم لا يرى منهم أثراً إلا بيوتاً خاوية ومساكن خالية، عندئذ يستيقظ للهوة التي تفغر فاهاً لتبتلع الحاضر كما ابتلعت الغابر و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾:

والكلمة السابقة هي قوله في الأعراف ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1] ونظائرها الدالة على أن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، وما إهلاك قرون خلت أو تأتي إلا نموذجاً منبهاً من العذاب، ولولا هذه الكلمة ﴿لَكَانَ﴾ إهلاك المعرضين عن ذكر الله ﴿لِزَامًا﴾ لهم دون إبقاء: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[2].

وترى ما هو موقف ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مرفوعاً في آيتنا؟ أجمل المحتملات اللائقة بكلام الله كون «أجل» اسماً لـ «كان» التامة، وقد كانت ناقصة للمعطوف عليه، فالمعنى ﴿لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ خلاف ما أجّله الله متاعاً إلى حين.

والأجل - في كلمة سبقت - هو أجل الموت المقدّر لكل أحد معلقاً أم مسمّى، ولولا كلمة سبقت لكان إهلاكهم لزاماً ولكان أجل مسمى خلاف الباقين الذين لهم أجلاً معلق ومسمى.

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٦.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٤.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾:

«فـاصـبـر» - ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[1] ولله ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ويتقولون عليك وعلى رسالتك العظمى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[2] ولكي ينشرح صدرك عما أضاقوه فاتّجه إلى ربك كما أنت وزيادة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الذي رباك وليربّيك أكثر مما أنت، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ في هدأة الصباح وهو يتنفس متفتحاً بالحياة، و﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ في هدأة ثانية عن زحمة النهار وسبحه الطويل، والكون يغمض أجفانه، والشمس تلبس أكفانها، كذلك ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ قبل منتصفه فرضاً وبعده - ﴿نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[3] - كذلك ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ بكرة وظهيرة وعشية ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ بهذه المواصلة في التسبيح بالحمد، إزاحة عما يضيق بك، وإراحة لخاطرك الخطير، وهذه الرضا ثمرة حاضرة للتسبيح تُطَمئن القلب في حمى الرحمن.

هذه، وفي مكية ثانية ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾[4].

وفي ثالثة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[5].

أترى ما هي الملاءمة بين هذه الثلاث وفي الأولى ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ وأقلها ثلاثة، والثالثة ﴿طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ فأين هنا الظهيرة وهي من الصلاة

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٧.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٨.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.
(٤) سورة ق، الآيتان: ٣٩، ٤٠.
(٥) سورة هود، الآية: ١١٤.

الوسطى، وهناك تذكر الفجر والعصر مرتين ثانيتهما في ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ والظهيرة هي الطرف الأوسط تذكر فيها إشارة، ثم الثانية كما الثالثة تلغي الظهيرة؟

الأخيرتان تتجاوبان في الفجر والعصر وفي فريضة الليل كلًّا أو بعضاً، وكأن ذلك كان قبل فرض الظهيرة، والأولى تلمح لها أنها من الفرائض اليومية ثم فرضت صراحاً في العهد المدني بتمام فريضة الليل وكأنها العشاء، فأطراف النهار أقلها ثلاثة أوسطها الظهيرة(١)، أم أنها تجمع بين الفرائض والنوافل اليومية، أم تعني الأعم من الصلاة كما الثانية، ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قد تلمح أن التسبيح بالحمد فيها غير الصلاة.

وخصوص الخطاب فيها للرسول ﷺ قد يرجح الأخير، لا سيما وأن الصلاة لا يعبر عنها في الفصحى بغير صيغتها إلا أن يعنى أعم منها، فالأوسط هو الأوسط بين الاحتمالات الثلاث وأصدق مصاديق التسبيح بالحمد هو الصلاة.

ثم قد يتأكد أن طرفي النهار وقبل طلوع الشمس وقبل غروبها، هما الفجر والعصر وكما يروى عن النبي ﷺ (٢) ومن أطراف النهار التطوع بالنهار(٣).

---

(١) راجع تفسير الثانية في ج ٢٩: ٢٩٧ - ٣٠٠ للحصول على بيان يشابه ما هنا باختلاف يسير.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣١٢ - أخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن جرير عن النبي ﷺ في الآية قال: قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل غروبها صلاة العصر وفيه عن عمارة بن رومية سمعت رسول الله ﷺ يقول: لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٠٧ في الكافي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت له: وأطراف النهار لعلك ترضى قال: يعني تطوع بالنهار وفيه في تهذيب الأحكام عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه بعد أن ذكر عليه السلام ما جرت به السنّة في الصلاة فقال أبو الخطاب: أفرأيت إن قوي فزاد؟ قال: فجلس وكان متكئاً فقال: إن قويت فصلّها كما كانت =

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾:

﴿عَيْنَيْكَ﴾ الظاهرتين، أو الظاهرة والباطنة استعظاماً لـ ﴿مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ من أموال وبنين وسائر الحيويات الحيوانية الدانية في هذه الدنيا، و﴿أَزْوَٰجًا﴾ هي القرناء فروعاً وأصلاء، مهما شملت أزواج الزواج، فإنها لا تختصها حيث المُتَع لا تحصر فيهم مهما كانت متعة الجنس من أعلاها، ولكنها تعم عامة الذكران والإناث.

و﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هي الطالعة فيها كما تطلع زهرات النباتات، ولكنها سريعة الذبول والأفول، وكذلك زهرات الدنيا بأسرها إلا ما يتذرع بها إلى الأخرى.

وهذه الزهر والمتع ليست لهؤلاء الأنكاد إلا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ فيما متعناهم به فليست لها بقاء، وحتى إذا بقيت طيلة الحياة فـ ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ إذ تخطى الأولى إلى البرزخ والأخرى ثم لا فناء.

وليس ذلك تحريماً لزينة الله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ...﴾[(١)]؟ بل هو دعوة إلى التمسك والاعتزاز بالقيم الأصلية الباقية، فلا تتهاوى النفوس أمام المتعة والزهرة والثراء، وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ: قوله: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله ﷺ؟ قال: بركات الأرض»[(٢)] وقد تُعزِّيه الآية عن فقره وغناهم[(٣)].

= تصلى وكما ليست في ساعة من النهار فليست في ساعة من الليل إن الله ﷻ يقول: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠].

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣١٣ - أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: ....

(٣) المصدر أخرج جماعة عن أبي رافع قال: أضاف النبي ﷺ ضيفاً ولم يكن عنده ما يصلحه =

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ :

ومهما كان الأمر بالصلاة يعم كافة المسلمين وعامة المكلفين ولكن ﴿أَهْلَكَ﴾ هم أحرى بذلك ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ : الصلاة أن تقيمها وتأمر أهلك بها، وأن تقرّب بها وتقرّب إلى الله زلفى، فهناك اصطبار على إقام الصلاة لتكون كلها صلاة ومعراجاً إلى الأفق الأعلى، واصطباراً آخر على الأمر بها مهما كان فيه إمر.

وما أحرى علياً وفاطمة أهلاً للرسول ﷺ، لذلك تراه ﷺ لما نزلت كان يجيء إلى باب علي صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: الصلاة رحمكم الله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١] [٢] فقد «أمر الله نبيه أن يخص أهل بيته وأهله دون الناس ليعلم الناس أن لأهله عند الله منزلة ليست لغيرهم من عامة الناس ثم أمرهم خاصة»[٣].

= فأرسلني إلى رجل من اليهود أن بعنا أو أسلفنا دقيقاً إلى هلال رجب فقال: لا إلا برهن فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: أما والله إني لأمين في السماء وأمين في الأرض ولو أسلفني أو باعني لأديته إليه اذهب بدرعي الحديد فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية...

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) المصدر أخرج ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت....

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٠٨ في عوالي اللآلي وروي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها قال: ... وفيه في عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا عليه السلام مع المأمون في الفرق بين العترة والأمة قالت العلماء: هل فسر الله تعالى الاصطفاء في الكتاب؟ فقال الرضا عليه السلام: فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موضعاً.. وأما الثاني عشر فقوله عز وجل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] فخصنا الله تعالى بهذه الخصوصية إذ أمرنا مع الأمة بإقامة الصلاة ثم خصنا من دون الأمّة فكان رسول الله ﷺ يجيء إلى باب علي وفاطمة عليهما السلام بعد نزول هذه الآية تسعة أشهر كل يوم عند حضور كل صلاة خمس مرات فيقول: الصلاة رحمكم الله، وما أكرم الله أحداً من ذراري=

ولا تحسبن أنّا نسألك في الصلاة - أمراً وتطبيقاً - رزقاً وحظوة روحية لنا، كلّا ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ بل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ بصلاتك وسواها من أرزاق روحية أما هيه، والحياة «العاقبة» التي تعقب هذه الدنيا ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ وهي حياة الرجعة والبرزخ والقيامة فإنها من أيام الله، وهذه السفرة المثلثة لا زاد لها أفضل من التقوى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾:

فلأنهم تعوّدوا في ماضي الرسالات بالآيات البصرية، وآية هذه الرسالة الأخيرة بصيرة هي القرآن، لذلك ما كانوا يعتبرونه آية رسالية ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ والقرآن أفضل آية من ربه، ألم تأتهم هذه المفضلة الخالدة الناصعة ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ آيات بصرية تصدقها، وهم كانوا ناكريها؟ فهم لا يؤمنون بآيات الرسالات، سواء أكانت بينة ما في الصحف الأولى، أم بينة الصحيفة الأخرى.

ومن ﴿بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ البشارات التي تضمنتها بحق هذه الصحيفة الأخرى ورسولها[1]: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[2] ومنها ما في كتاب اشعياء «كي بِلَعَجي شافاه وَبِلا شُون اَحِرت يِدَّبِر إِل ها عام هَذِّه» (٢٨: ١١) لأنه بلهجة لكناء بشفاه أعجمية وبلسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب» فإن كل لغة تعتبر غيرها أعجمية ومنها العبرانية، فالعربية بجنبها أعجمية لكناء، غير مفهومة للإنسان العبراني.

= الأنبياء عليهم السلام بمثل هذه الكرامة التي أكرمنا بها وخصنا من دون جميع أهل بيته فقال المأمون والعلماء: جزاكم الله أهل بيت نبيكم عن الأمّة خيراً فما نجد الشرح والبيان فيما اشتبه علينا إلا عندكم» أقول: تجد مجموعة هائلة من المسانيد حول القضية في تفسير آية التطهير فراجع.

(١) وقد أفردنا لسردها كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ١٨، ١٩.

ومنها القرآن نفسه فإنه آية بينة غير مدخولة من الصحف الأولى وكما يروى عن الإمام علي عليه السلام: «فجاءهم بنسخة ما في الصحف الأولى وتصديق الذي بين يديه وتفصيل الحلال من ريب الحرام»[(١)].

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾:

﴿قَبْلِهِۦ﴾ تعني قبل الرسول قضية الذكورة، وقبل القرآن البينة لمحة من ﴿ءَايَٰتِكَ﴾ ولأن محمداً هو القرآن البينة والقرآن بينة محمد فالمعنيان معنيّان، فلو كان المرجع فقط البينة فلتكن «من قبلها» أم فقط هو الرسول فكيف نتبع آياتك من دون القرآن؟.

وهذه الآية من براهين عدم الإهلاك واستحالته في عدل الله قبل إتمام الحجة بشرعة إلٰهية، ولكنها لا تنفي عذاباً في الأخرى بتخلف عن حجة العقل والفطرة، إلا أن تنفيه أيضاً ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[(٢)] والتفصيل في تحصيل بالغ راجع إلى تفسير هذه الآية.

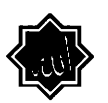
إذاً فبعد تمام الحجة وبالغ المحجَّة والتخلف فالعذاب لا محالة واقع بعد الموت، وقد يحل قبله إذاً فاحش الظلم والطغيان ذكرى للظالمين، وحفاظاً على العالمين، فسحاً لهم بما يعملون لما يأملون، وكسحاً للظلم المدمِّر لمسرح التكليف: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[(٣)].

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾:

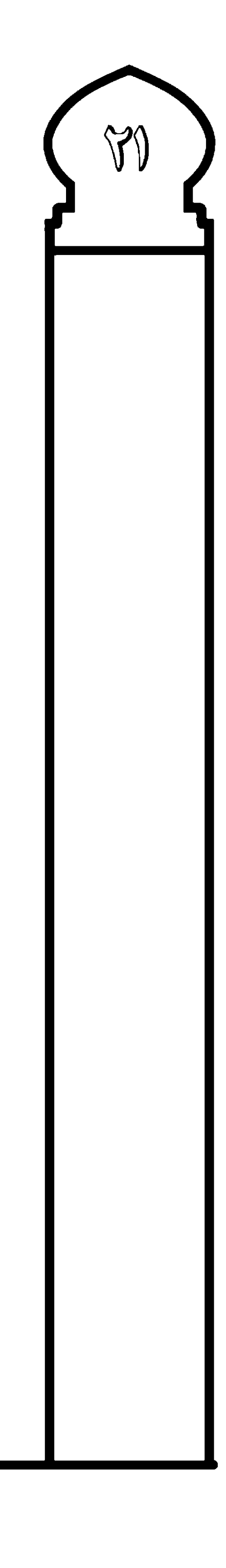
---

(١) نور الثقلين: ٥: ٥٥٨ ح ٢٢٨ مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام . . .
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

﴿كُلٌّ﴾ منا ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ عاقبة أمره حيث الإنسان أياً كان يعيش الأمل نتيجة العمل ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أنتم المعرضون عن ذكر الله عاقبة أمركم وأمرنا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ غداً ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ وهم الدعاة إلى الله[1] ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بهم إلى الله، أهم أنتم المعرضون أم نحن المؤمنون؟!.



(١) نور الثقلين ٣: ٤١١ تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: والله نحن السبيل الذي أمركم الله باتباعه ونحن والله الصراط المستقيم ونحن والله الذين أمر الله بطاعتهم فمن شاء فليأخذ هنا ومن شاء فليأخذ هناك لا تجدون والله عنا محيصاً.



سُورَةُ الأنبياءِ



مكيّة وآياتها اثنتا عشرة ومائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

سورة الأنبياء تحمل صورة وضاءة عن ثورة الأنبياء وسيرتهم طول التاريخ الرسالي وما لاقوه في سبيل الدعوة من أذيات وعرقلات وحرمانات، سرداً لأكثر من النصف المذكورين في الذكر الحكيم بأسمائهم ورسولنا العظيم بسماته وبصماته، فهم - إذاً - ثمانية عشر كإدريس ونوح

وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومن بينهم كلوط وهارون وداود وسليمان وأيوب وذي الكفل وذي النون وزكريا ويحيى، وفي ذلك المسرح الفصيح الفسيح تلميحات وتصريحات أن لخاتم المرسلين ما لهم أجمعين وزيادة حتى في صعوبات الدعوة، ولم يبق من المذكورة أسمائهم في القرآن في السورة إلا ثمانية منهم[١] فحقٌّ لمن قرأها حبّاً لها بشروطها أن يرافقهم في جنات النعيم[٢] ويسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن[٣].

فقد حملت هذه السورة ذكريات عن أولي العزم الذين دارت عليهم الرحى، وعمّن ساندوهم في دعواتهم الرسالية، فحق لها وأحرى أن تسمى سورة الأنبياء.

وميادين البحث فيها هي الأصول الثلاثة: التوحيد والرسالة والمعاد بمختلف صنوف البراهين كما هي دأب القرآن في دعوته العالمية المحلِّقة على كافة المكلفين بدرجاتهم المعرفية.

ومن أهم ما جاء فيها في التوحيد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٤] كأعمق برهان فلسفي عريق، وما جاء في الوسط الرسالي من وحدة الرسالة والأمم طول التاريخ الرسالي: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[٥] وبالمآل وحدة الدولة الإسلامية ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ

---

(١) كآدم وشعيب وهود وصالح ويوسف وإلياس.

(٢) نور الثقلين ٣: ٤١٢ ثواب الأعمال بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الأنبياء حبّاً لها كان كمن رافق النبيين أجمعين في جنات النعيم وكان مهيباً في أعين الناس حياة الدنيا.

(٣) وفي المجمع أُبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: من قرأ سورة الأنبياء حاسبه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[١] وإشارة إلى الرجعة زمن قائد هذه الدولة: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٢] ومن بين ذلك استعراض لفتق الكون بعد رتقه، إلى جانب فتق الشرعة الإلٰهية بعد رتقها!.

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾:

مطلع قوية الضربات حيث تهز القلوب هزاً، وتعض أصحابها عضاً، إلفاتاً لهم إلى قريب الخطر، موقف جاد من الحساب ينتظرهم ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿ٱقْتَرَبَ﴾ حيث الناس منذ نزول القرآن هم أقرب إلى يوم الحساب منهم إلى بدء الخلق، فقد مضى أكبر شطري الزمان، ولأن كل آتٍ قريب، و«إن الدنيا قد ولت حذاء ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء».

فمن الناس من هم في أوّل الزمان، ومنهم من هم في وسطه، ولكن الناس منذ الرسالة الأخيرة هم في آخر الزمان، ولذلك فنبيُّنا نبي آخر الزمان، واقتراب الحساب مما ينبه الإنسان عن غفلته، ويوقظه عن غفوته ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

وعلى الوجهين الأخيرين لاقتراب الحساب فالناس هم كل الناس منذ خلقوا إلى يوم الحساب وكذلك على الوجه الأول في وجه[٣].

و﴿حِسَابُهُمْ﴾ قد يعم البرزخ إلى جانب القيامة فإنه بداية الحساب وهي نهايته، فلأن الدنيا مولية حذاء وكل آتٍ قريب، فالحساب - إذاً - يعم

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٩٥، ٩٦.
(٣) إذا أخذ مبدأ الزمان زمن الإنسان الأول قبل هذا النسل وسائر الأنسال الإنسانية، فقد يصبح هذا النسل عن بكرته في آخر الزمان على احتمال مضي الشطر الأكبر من الزمان قبله.

البداية والنهاية ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، فالناس - إذاً - بين اقترابين لحسابهم، اقتراب دائب هو لكل الناس، واقتراب جاد هو لمن يعيش آخر الزمان وهو منذ ابتعاث نبي آخر الزمان، ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ككل إلا من يستثنى.

وترى الغفلة وهي عدم الانتباه، كيف تجامع الإعراض ولزامه الانتباه؟ علها لأنها غفلة عامدة مقصرة لا قاصرة، والغفلة المقصرة تنهي صاحبها إلى الإعراض بل هي بنفسها إعراض.

فقد يغفل الإنسان ولا يعرض لأنها غفلة وقتية يسيرة قصيرة قد ينتبه عنها، ولكنه إذا عاش الغفلة وتورط فيها وغرق - كما تلمح له الظرف ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ غارقون فيها - فهم - إذاً - ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ إذ لا منفذ لهم إلى الانتباه حيث هم غارقون، ومن إعراضهم عن الله وعن يوم الله وعما يتوجب عليهم أمام الله فإعراضاً عن حسابهم:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾:
﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾[1].

و﴿ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو كل ما يذكرهم ربهم من رجالات السماء وكتاباتها، و﴿مُّحْدَثٍ﴾ تحلق على الكل دون إبقاء، فكلام الله وهو من فعل الله، محدث أياً كان وأيان، سواء أكان ذكر القرآن ورسول القرآن أم أي ذكر في أي زمان ومكان، وما خرافة قدم كلام الله لفظياً أم نفسياً إلا هرطقة هراء وسقاطة بالعراء والله منها براء، اللهم إلا علم الله فإنه عين ذاته كقدرته وحياته، ولكنه ليس ذكراً لسواه، وإنما يحدث ذكراً لسواه لعلهم يذكرون.

فـ «التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وكل كتاب أنزل كان كلام الله

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٥.

أنزله للعالمين نوراً وهدى وهي كلها محدثة وهي غير الله حيث يقول: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[(١)] وقال ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ والله أحدث الكتب كلها...»[(٢)].

ثم ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ كما تعني ذكريات آي الذكر الحكيم، النازلة المحدثة تِلو بعض ولِصق بعض نجوماً متقاطرة متتالية، والناس هنا هم ناس الدور القرآني، كذلك تعني ذكريات كافة كتابات السماء، والناس هم - إذاً - ناس الأدوار الرسالية كلها دون إبقاء.

و﴿ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ هو الذكر الذي يربِّيهم، كما ﴿ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ هو الذي يذكرهم الرحمن، وليس المحدث وصفاً لذكر خاص، حتى يفهم منه أن هناك ذكر غير محدث هو القرآن، وقد استمعوه وهم يلعبون أكثر من كل ذكر سبق، و﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ تختص كل ذكر بالمحدث دونما استثناء.

﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ نبياً وكتاباً ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يتخذونه لعبة كما يلعبون بسائر اللعب فهم عنه معرضون، فما استماعهم لذكر ربهم إلا إعراضاً ولعباً دون تفهّم، وإنما هو خوض وتقحُّم: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾[(٣)] إذ فـ ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[(٤)].

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٣.

(٢) نور الثقلين ٣: ٤١٢ في كتاب الاحتجاج للطبرسي وروى عن صفوان بن يحيى قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام لأبي قرة صاحب شبرمة: التوراة... فقال أبو قرة: فهل يفنى؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: أجمع المسلمون على أن ما سوى الله فعل الله والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان فعل الله ألم تسمع الناس يقولون: رب القرآن، وإن القرآن يقول يوم القيامة: يا رب هذا فلان وهو أعرف به منه قد أظمأت نهاره أسهرت ليله فشفعني فيه، وكذلك التوراة والإنجيل والزبور كلها محدثة مربوبة أحدثها من ليس كمثله شيء هدى لقوم يعقلون، فمن زعم أنهن لم يزلن فقد أظهر أن الله ليس بأوّل قديم ولا واحد وأن الكلام لم يزل معه وليس له بدوٌ وليس بإله.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

وإنها صورة بئيسة تعيسة لنفوس فارغة عن الهدى، مليئة بالهوى، لا تعرف جداً في حق الحياة فتلهو في أخطر المواقف استهتاراً بالقدسيات، فتغدوا حياتهم عاطلة باطلة، هينة رخيصة قالحة!:

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾:

استمعوه ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْۗ﴾ وهم يلعبون ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْۗ﴾ فليس استماع الوحي ينفع والقلب لاهٍ، حيث البصر والسمع هما من وسائل بصيرة القلب وسماعه.

«و» هؤلاء المناكيد ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ فـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بدل وصفي عنهم، والنجوى هي الإسرار في القول بحيث لا يتفهمه غير المتناجين فكيف أسروها؟ إنها في إسرارها سر في سر، سر في مادة النجوى، وسر في أصلها كي لا يعلمها المتناجى عليهم، ولكن الله فضحهم فيها بما أذاعها في هذه الإذاعة القرآنية.

وإنما أسروها تخوفاً من نقصها أو نقضها فيفشلوا، فقد كانت شورى بينهم في ترداد القيلات، لتصبح طبخة ناضجة ناتجة عنها فيبرزوها وقد برزت قبل إبرازها:

﴿هَلْ هَٰذَآ﴾ الذي نراه ونعيشه ردحاً من العمر ﴿إِلَّا بَشَرٌ﴾ دون ميزة عن سائر البشر بل هو ﴿مِّثْلُكُمْۖ﴾ في البشرية فلماذا يتفضل عليكم، أتفضلونه على أنفسكم دون مرجح ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ سحرَه؟ دعاية خاوية وحجة داحضة، فلو كانوا يبصرون لكانوا مؤمنين، حيث الآيات الإلٰهية مبصرة بصراً وبصيرة: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾[(١)].

---

(١) سورة النمل، الآيتان: ١٣، ١٤.

﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾:

﴿قَالَ﴾ الرسول جواباً عن نجواهم سراً ﴿رَبِّى﴾ الذي رباني هكذا فلا أساوى أو أسامى بمن سواي على أية حال ﴿يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أياً كان وكيفما كان ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ - ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾(١) ﴿وَهُوَ﴾ لا سواه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ كل قول ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ كل حال.

فالأقوال كلها والأحوال كلها حاضرة لديه، وهو يعلم ألّا قول كقوله في القرآن دليلاً حاضراً - في كل عصر ومصر ما طلعت الشمس وغربت - على أنه قول الله لا سواه، فهل بالإمكان لبشر ساحر، أم وملك ماهر باهر أن يأتي بفعل الله دون إذن ورسالة من الله، إذاً فهو إله من دون الله فكيف ينسب فعله إلى الله؟!.

إذاً فـ ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ...﴾ في هذا الوجه كقوله في الفرقان: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢) توجيهاً لهم إلى الأسرار التي يحملها الذكر الحكيم ولا يعلمها إلا الله، إذاً فهو دون ريب كتاب الله! وقد كفت هذه الملحمة الغيبية الكاشفة عن أسرار نجواهم، حجة عليهم، دون حاجة إلى إجابة عن شبهتهم هذه، فهل أن علم الغيب هكذا سحر؟ فأين الآية المعجزة!.

فلقد احتاروا بشأن هذا القرآن متلكثين متلبكين لا يدرون من أي إلى أين، دون ثبات على رأي ولا على صفة له خاصة، فهم يتمحلون في محاولة دائبة أن يعلوا أثره المزلزل لنفوسهم، المزمجر لكيانهم، في تنقلات وتطفلات:

---

(١) سورة طه، الآية: ٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾:

لا فحسب إنه ساحر ﴿بَلْ﴾ وأدنى منه إذ ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾ تخاليط من رؤيٍّ غير منتظمة، فلا واقع له إلا أحلام وتخيلات، ولا نظم له إلا أضغاث مختلطات من هنا وهناك دون أي رباط بينها، فهو - إذن - باطل في بعديه، بعيد عن الحق ببعديه.

لا فحسب ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ على الله عامداً دون التباس عليه كأضغاث أحلام، متروياً في فريته، محاولاً لتحويله محول كلام الله.

ولا فحسب ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ حيث استفاد من موسيقا التعبير منفذاً إلى قلوب البسطاء الهائمين إلى الشعر، فإلى هنا هو لا يليق بمنصب الرسالة لقاعدة المماثلة في البشرية أولاً، ثم الأعمدة الأربعة: السحر - أضغاث أحلام - افتراء - شعر، وإذا لم يكن كما نقول بل هو رسول كسائر الرسل:

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فالآية الإلهية من لزامات الرسالة وقد زوِّد بها الرسل الأولون، وليست عنده إلا الكلام، فإن كان آية وليس، فهو - إذاً - بدع من الرسل، وإن لم يكن آية كما ليس فليس إذاً من الرسل.

فهؤلاء لم يتطلبوا منه آية، وإنما آية ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ حيث تعودوا عبر الرسالات الأولى آيات بصرية ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ...﴾[1] ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ...﴾[2] آية عقلية علمية عبر القرون، بديلة عن آيات بصرية عابرة غابرة دفينة مع أصحابها؟!.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

ومن الإجابات الناقضة لهذه المتطلبات الزور والغرور، تدليلاً على مدى حمقهم في عمقهم:

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾:

فحتى لو اتبع الحق أهواءهم وأرسلتَ بآية كما أرسل الأولون ما كانوا ليؤمنوا بك، إذ ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآۖ﴾ بتكذيبها آيات الله وصدها عن سبيل الله وبمرآهم آيات الله تترى ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم عارفون تلك الآيات العابرة الغابرة.

فلقد تحولت تلكم الآيات في تلك الرسالات إلى آية أقوى وأبقى قضية خلودها، ولأنها تأخذ بأزمة العقول والقلوب في كل الحقول فهي - إذاً - أحرى بالتصديق والإيمان وهم لا يؤمنون، فهل إذا أوتوا بآية كما أرسل الأولون ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾؟.

ولأن سنّة الله جارية على إهلاك من يكذّبون بعدما طبّقت اقتراحاتهم، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ...﴾(1) إذاً فهو السبب الأخير في عدم استجابتهم.

وأما قاعدة الشبهة المكرورة على السنّة الناكرين ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ﴾؟ فهي منسوفة بكرور هذه الرسالات كلها في بشر وبشر:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾:

لقد سبقت نظيرتها في النحل وفصلنا فيها ما استطعنا فلا نعيد، وهذه تحسم حسماً ساحقاً ركيزة المشكلة الشائكة لهم، بأنه ليس بدعاً من الرسل لا في كونه: بشراً ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۖ﴾ ولا في كيانه الرسالي

(1) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

آية رسالية، إلا أنها أقوى وأبقى، فكما أن الرسالات واحدة في جذورها، كذلك آيات الرسالات التي تثبتها، ولكنها درجات كما هم درجات و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ بهذه السنة الرسالية، وهم الذين عاشوا الرسل وآيات الرسالات، فاسألوهم ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنهم كلهم بشر أمثالكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[1].

فـ ﴿رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ حجتان تستأصلان جذور الشبهة، ثانيتهما أن الوحي ليس لزام البشرية من حيث هيه، بل هو فضل من الله ورحمة خاصة لخصوص عباده ليهدوهم السبيل.

وهذه كرامة إلهية أن يرسل الله إلى البشر بشراً، فكيف تُتخذ البشرية ذريعة لتكذيبها، بدل أن يتذرع بها إلى تهذيبها؟.

أجل ﴿رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ فهم كسائر البشر في كل حاجيات البشرية، إلا أنه «يوحى إليهم» فهم بعيدون بسناد الوحي عن أخطاء البشرية:

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾:

ذلك! رغم قولهم ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[2] وليس هذا الرسول بدعاً في بشريته ولزاماتها المادية، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ هؤلاء الرجال الرسل ﴿جَسَدًا﴾ لا روح له فـ ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ ثم ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ لا يموتون، أو لا تموت رسالاتهم وتنسخ شرائعهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ...﴾[3] فهم بشر كسائر البشر يأكلون مما يأكلون ويموتون كما هم يموتون، وإنما يمتازون عنهم ويفضَّلون عليهم بما يوحى إليهم.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١١.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧.
(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

فلقد كانت الرسل إلى البشر بشراً قضية الحكمة البالغة الإلهية لتكون حياتهم الواقعية الملموسة نبراساً لسائر البشر، تحقيقاً لشرعتهم في أنفسهم لتتحقق في أنفس الآخرين، فالكلمة الحية الواقعية هي المؤثرة في قلوب الناس، حيث تترجمها حياة صاحبها، وشيجة دائبة بينهم وبين المرسل إليهم.

فأي داعية لا يحس مشاعر المدعوين ولا يحسون مشاعره، إنه يبقى دون تجاوب في دعوته، مهما تسمّعوا إلى أقواله، حيث الأفعال أدعى لهم وأولى بالاتباع من الأقوال وكما يقال: «مروا الناس بالمعروف وانهوهم عن المنكر بغير ألسنتكم».

فالقولة التي لا تصدقها فعلة، قاصرةً أم مقصرةً، إنها تبقى على أبواب الآذان ومشارف القلوب دون مزاج معها إلا شذراً وسطراً في قلة قليلة، وهذه تناحر الدعوة العالمية.

وهكذا يجب أن يكون كل قائد، أن يتكون من نفس الوسط الذي يقوده، عائشاً معايشهم، ذائقاً مذائقهم، وضائقاً بمضايقهم، وليقودهم عارفاً متطلباتهم وحالاتهم.

لذلك كله، وتكريماً لقبيل الإنسان يبعث الله رسلهم من أنفسهم فيجري عليهم كل ما يجري على أنفسهم من ولادة وحياة وموت، ومن عواطف ونزعات وانفعالات، ومن آلام وآمال ومن كل ما هو آتٍ من الطبيعة البشرية، اللهم إلا أخطاءً هي لزام عدم العصمة حيث يعصمها علمية وأخلاقية وعملية ودعائية لتتم حجة الله على الناس، ولا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

هكذا أرسلنا رسلاً تترى، حاملين الحجج البالغة الإلٰهية، واعِديهم إنجاحاً في الدنيا والآخرة:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾:

صدق الوعد هو وَفقُه للواقع حالياً واستقبالياً، فمن الحال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ...﴾[(١)] ومن الاستقبال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ...﴾[(٢)].

وقد يجمعها ككل ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[(٣)].

وقد تعني هنا ﴿ثُمَّ﴾ المراخية لصدق الوعد - فيما عنت - الصدق اللائح في عواقب الرسالات هنا، ومن ثم في البرزخ والأخرى.

وهنا ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ بيان لصدق الوعد في خاتمة الأولى، ثم الأخرى هي أحق بالصدق وأحرى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ۝١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾[(٤)].

وهنا العوان بين المؤمنين الناجين والمسرفين الهالكين، هم غير مذكورين، وقد تعنيهم «من نشاء» مع المؤمنين، متعةَ الحياة الدنيا، ثم لا نجاة لهم كالمؤمنين في الأخرى.

أم أن «من نشاء» هم المؤمنون، و﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ يعم غير المؤمنين ككل، المختلفين في دركات الهلالك كاختلاف إسرافهم، ومن أسفلها العذاب المستأصل لهم يوم الدنيا، ومَن سواهم من المسرفين هالكون في دركات أخرى هنا، غِبَّ ما تصلهم دركات الأخرى بالأوفى.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٤) سورة يونس، الآيتان: ١٠٢، ١٠٣.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾:

﴿إِلَيْكُمْ﴾ في وجه خاص تعني العرب فإنهم المحطة الأولى لنزول القرآن، فـ ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ كما تعني هنا تذكُّرهم عن غفلتهم، كذلك تعني ذكرهم بين الأمم حيث نزل القرآن منذ البدء فيهم وبلغتهم، فالقرآن أينما حلَّق يذكرهم لمن به تعلّق وتحلّق، فلم يكن قبله لهم ذكر وشرف به يذكرون، إلّا عارات وغارات وسرقات وقتلات ودعارات وافتخارات بنكبات!.

فما تملك العرب طول تاريخهم من زاد يقدمونه للبشرية والعالمين أجمعين سوى ذلك الزاد العظيم المكين، فلو تقدموا بعروبتهم فحسب، لا تتقدم عند أحد بل وتتهدم، فما قيمة العروبة دون القرآن، فلا كلمة لها ولا مدلول في تاريخ الإنسان إلا بما يحملون القرآن، الذي يتبناه حضارة الإنسان كإنسان!.

فالعروبة فيما سوى القرآن لا تحسب بشيء في تاريخ الحضارات بل هي في دار البوار، وغير العروبة قد تحسب بشيء فيما سوى القرآن في حضارات زمنية، مهما كانت خلواً من الروحية، ثم ومن يحمل القرآن عربياً كان أم أعجمياً يملك الحضارتين، دون تقدم لقبيل على آخر إلا قدر ما يتقدم في حمل القرآن، وقد سبق العربَ طول التاريخ الإسلامي سباقون كثير من غير العرب ومنذ بزوغ الوحي حتى الآن، ولا شرف هنا وهناك إلا على ضوء شرف القرآن تفهماً وتعلماً وتخلقاً وتطبيقاً ونشراً.

ومن ثم ﴿إِلَيْكُمْ﴾ في وجه عام وكما هو طبيعة الحال في الدعوة القرآنية العالمية، فيه «تعني ذكركم» التذكر بالقرآن على طول خط الزمان والمكان ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1] وقوم الرسول كرسول هم العالمون أجمعون:

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[١] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٢].

ثم القرآن هو ذكر الشرف والمنزلة لمن به تذكر، وببصائره تبصَّر واعتبر وتشرّف.

فلو نزلت عليهم آية كما أرسل الأولون بديل هذا القرآن، لم يكن فيها ذكرٌ شرفاً وذكرى، بل كان لهم في تكذيبها الهلاك كما أهلك الأولون:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾:

القصم هو كسر الشيء الصلب، والمترفون الجبارون في هذه القرى كانوا أصلب شيء عيداناً وأمنعه أركاناً!.

وهكذا يتهدد المسرفين الظالمين قصماً وهي أشد حركات القطع، و﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ هي بعض القرى الظالم أهلها المترفون: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[٣].

ثم ﴿قَرْيَةٍ﴾ هي الديار والدَّيار، وهم الأصل في الدمار والقصم يشملهما، كما الإنشاء هي إنشاءهما ابتداء بالديَّار ثم الدِّيار، وبالتالي نشهد مشهد حراكهم في القرى المقصومة ببأس الله وهم كالفئران في المصائد:

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾:

﴿يَرْكُضُونَ﴾ وأنى لهم ركضة بغير ركزة؟ ﴿يَرْكُضُونَ﴾ ﴿سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[٤] وقد تبين لهم بأس الله بما أحسّوه، ولكن ركضة اليأس أركض وأركز من ركضتهم فأنّى يركضون؟.

(١) سورة ق، الآية: ٤٥.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٤) سورة المعارج، الآية: ٤٣.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

وهذه مهزأة لهم ومهزلة في تهكم مرير، سلباً لركضهم حيث لا ينفعهم، وإيجاباً لرجعهم إلى ما أترفوا فيه حيث يسألون تساؤل التبكيت من قبل الله، أم سؤال الحاجة من قبل المستضعفين حيث كانوا يتهاجمون عليكم بالسؤال فتستكبرون عليهم وتختالون، أم ليتساءلوكم عما جنيتم عليهم، ومثلث السؤال تأنيب لهم وتعذيب، وتعجيز لهم بموقفهم الكئيب.

ولكن أين المجال لجواب وسؤال حين لا مهرب من بأس الله ولاتَ حين مناص؟ فيلجؤون - إذاً - إلى الاعتراف بما ظلموا:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿قَالُوا﴾ ولكن الأوان فائت، والبأس ماقت، والأمان منه ساقط، حيث الرب عليهم ساخط ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ المظلمة التي بها يعترفون ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ في تلك الزمجرة المدمرة ما لهم حراك ونَفَس ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ حصاداً فيه كل كساد ﴿خَامِدِينَ﴾ عن نيرانهم التي أجّجوها مضطرمة على المستضعفين.

ويا له من حصيد إنساني ليس له رصيد إلا محق وخمود لهم دون إبقاء إلّا خامد الحصيد ومن ورائهم عذاب شديد! «وايم الله إن هذه عظة لكم وتخويف إن اتعظتم وخفتم»[١].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤١٤ في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين عليه السلام في الوعظ والزهد في الدنيا يقول فيه: ولقد أسمعكم الله في كتابه ما قد فعل بالقوم الظالمين من أهل القرى قبلكم حيث قال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١] وإنما عنى بالقرية أهلها حيث يقول: وأنشأنا من بعدها قوماً آخرين فقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢] يعني يهربون - قال: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣] - فلما أتاهم العذاب ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٤-١٥] وايم الله...

وما ألطفه تشبيهاً أن شبّه همود أجسامهم بعد حراكها بخمود النار بعد اشتعالها، أو النبات الحصيد المحرق بالنار، الخامد بعد الاشتعال، وهو أبلغ في وصفهم بالهلاك والبوار وانمحاء المعالم والآثار لاجتماع وصفي الحصد والإحراق، و﴿خَٰمِدِينَ﴾ وصف لهم دون الحصيد، فهم - إذاً - حصيد وهم خامدون!.

فكما تُختلى الزروع بالمنجل، ثم تحرق بعد اليبوسة، ﴿جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾.

وصحيح أن «كم قصمنا» - ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟﴾ تعطفان إلى ما مضى، إلا أن لهما مصاديق مستقبلة من أصدقها زمن الدولة الإسلامية العالمية بقيادة الإمام القائم المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف(١).

وذلك من قبيل الجري والتطبيق على المشابه وبأحرى الأشبه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾:

إن اللعب هو من الباطل للحكيم العليم، اللهم للجاهل الغافل كالطفولة وسائر المجاهيل، فإنه ما لا حكمة ولا غاية صالحة فيه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤١٤ الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن فضال عن ثعلبة بن ميمون عن بدر ابن الخليل الأسدي قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾ - إلى - ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢، ١٣] قال: إذا قام القائم وبعث إلى بني أمية بالشام هربوا إلى الروم فتقول لهم الروم لا ندخلكم حتى تتنصروا فيعلقون في أعناقهم الصلبان فيدخلونهم فإذا نزل بحضرتهم أصحاب القائم طلبوا الأمان والصلح فيقول أصحاب القائم: لا نفعل حتى تدفعوا إلينا من قبلكم منا فيدفعونهم إليهم فذلك قوله: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣] قال: يسألهم الكنوز وهو أعلم بها، قال فيقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٤-١٥] بالسيف وهو سعيد بن عبد الملك الأموي صاحب نهر سعيد بالرحبة.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[1].

فلو أنه لم يبعث رسلاً مبشرين ومنذرين لكان الخلق لعباً وباطلاً، ولو أنه لم يستأصل الظالمين المستأصِلين صالح الحياة الدنيوية لكان الشرع باطلاً، حيث هم يُظلِمون الجو بما يَظلِمون، فلا يفسحون مجالاً للذين يهتدون أو يهدون، نقضاً مستأصِلاً لدعوة الداعية، وإبطالاً لفاعلية حجج الله البالغة.

فتطبيق توحيد الله بشرعة الله في واقع الرسالة الفعالة، والجزاء العدل يوم الأخرى - وشذر منها هنا - يبقِّي مجال الدعوة في الأولى، كل ذلك من مخلَّفات ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

فالجدُّ الجادُّ أصيل في خلق الكون وفي تدبير الكون وفي سَنِّ القوانين كونية وشرعية، وفي الحساب الدقيق الذي يؤخذون به هنا أحياناً وبعد الموت تماماً، دون أية مسامحة ولا لعب باطل.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾:

فالقصد من اللعب - وهو أمر منتظم لفائدة خيالية لا واقع لها - القصد منه هو اللهو وهو الالتهاء عما يحق وله واقع صالح، وهو الاستيناس عما يزعج، وذلك حرام في الشرعة الإلٰهية ككل[2].

فـ «لو» على فرض المحال ﴿أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ لعباً وباطلاً، لم نحتج أن نتخذه في الخلق، حيث الخلق محتاجون إلينا، ولسنا بحاجة إلى الخلق في لهو وسواه، فـ ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ في نفس الذات، لا من لدن خلقنا، اكتفاءً بالأقل باطلاً ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لهواً وباطلاً.

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٢) نور الثقلين ٣: ٤١٥ في الكافي بسند عن عبد الأعلى قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الغنا وقلت: إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رخص في أن يقال: جئناكم جئناكم جيئونا جيئونا فقال: كذبوا إن الله عزّ وجلّ يقول: وما خلقنا السماء والأرض...

فالقائد اللاهي إن أمكنه اتخاذه من لدنه، لا يتخذه من شعبه مخافة العار والدمار، بل يتخذه من لدنه، فضلاً عن الله الحكيم الغني العليم، غير المحتاج أن يلعب أو يتخذ لهواً من لدنه فضلاً عن خلقه، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1] فإنهم بنكرانهم يوم الجزاء يبطلون الشرعة الإلٰهية إبطالاً لخلق الكون أجمع، وأن الله اتخذ لهواً من خلقه.

فلسنا نعمل باطلاً من لعب ولهو أيّاً كان وأيان:

﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾:

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[2] قذفاً مطلقاً ومنه ﴿عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ﴾ فالمحور للقذف الرباني قذفٌ بالحق تكويناً وتشريعاً وجزاءً بالعدل وفاقاً، فإذا عارضه باطل قذف به على الباطل، دمغاً له ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ ودمجاً لمنظومة الحق ﴿وَلَكُمُ﴾ الناكرين ليوم الدين ﴿ٱلۡوَيۡلُ﴾ كل الويل ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الله خلاف وصفه، أم شرعة الله خلاف وصفها.

ولأن حقيقة القذف هي للأشياء الثقيلة التي يرجم بها على الخفيفة، والحق ثقيل في ميزان الله والواقع، فقذفه على الباطل يرضُّ ما صكَّه ويدمغ ما مسَّه، إصابة دماغ الباطل فإهلاكاً عن بكرته، حيث الدماغ هو أهلك مَقتل.

فالحق - إذاً - قذيفة في يد القدرة الإلٰهية - على طول الخط - يقذف بها على الباطل فيشق دماغه، وهكذا مجيء الحق وزهوق الباطل، هنا حجة بالغة في صراع، وفي الأخرى تماماً دون إبقاء فـ «ليس من باطل يقوم بإزاء حق إلا غلب الحقُّ الباطل»[3] و«ما من أحدٍ إلا وقد يرد عليه الحق حتى

(١) سورة ص، الآية: ٢٧.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٨.
(٣) نور الثقلين ٣: ٤١٦ في محاسن البرقي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام: .... وذلك قول الله: بل نقذف...

يصدع قلبه قبله أم تركه»[1]، فإن لله الحجة البالغة.

ذلك! طالما يبدو الباطل أحياناً منتفشاً فاشياً فاحشاً كأنه غالب، ويبدو فيها الحق منزوياً خاوياً كأنه مغلوب، ولكنها ما هي إلا أياماً قلائل إملاءً لأهله. وإملالاً، ليزدادوا إثماً ولهم العذاب أليم.

فإذا وصل الباطل حيناً إلى قمة الزهو والإضلال فهنالك دمغٌ بالحق دون إمهال فـ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً...﴾ وإلى أن تؤسس الدولة الإسلامية الكبرى بقيام القائم بالعدل المهدي من آل محمد ﷺ وخسر هنالك المبطلون: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2].

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾:

وإذا كان له مَن فيهما فبأحرى له ما فيهما، و«له» تعني انحصار المُلك والمِلك الحقين الدائبين فيه، وانحسارهما عمن سواه.

﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾ هم المقربون إليه معرفياً وعبادياً دون قرب زماني ولا مكاني ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ بل يُستحصرون فيها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ عيّاً وكلالاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾[3] وهذه العندية لا تختص بالملائكة، فأحرى منهم فيها الرسل الكرام ولا سيما

---

(١) المصدر عنه عليه السلام يا أيوب ما من أحد... وذلك أن الله يقول في كتابه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ...﴾ [الأنبياء: ١٨].

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.

أولو العزم منهم، وإمامهم العظيم أقرب المقربين عند الله وأسبق السابقين وأوّل العابدين محمد ﷺ ثم المحمديون من عترته الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين.

وتلك السلطة المطلقة المستغرقة لكل كائن، تُحيلُ أي تفلت عن إرادته، وأي تلفت عن مشيئته في أية نشأة من النشآت، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[1].

ولماذا المقربون هنا يختصون بالذكر؟ لأنهم نبراس العبودية والخنوع لمن سواهم، حيث ينيرون الدرب عليهم، فهم الأدلاء إلى الله، المكرمون عند الله.

ثم وطبيعة الحال فيمن عند سائر الملوك أن يسمح له في بعض التخلفات خوفة منهم أو إكراماً لهم حيث التقرب فيهم تقاربٌ وتجارة بين الملوك وإياهم.

ولكن «من عنده» يزدادون له طوعاً كلما تقربوا، وتزداد مسؤولياتهم عنده، دون تسامح عنهم في صغيرة أو كبيرة، حيث الحاجة هنا هي من ناحية واحدة، وليست مزدوجة تجارية.

فكل عبد من العبيد يستحسر لوقتٍ ما عن الخدمة، منقطعاً بالإعياء، وعباد الله الذين هم عنده إنما يستحسرون عن ترك العبادة، ولا يستحسرون على أية حال عن عبوديته تعالى، حيث الشغف البالغ والهيمان الحالق حصراهم طول الحياة في العبودية دون تكلف فيها ولا تخلف عنها:

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

فهم مستيقظون لتسبيحه وإن كانوا نوماً فضلاً عن يقظتهم، فـ ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ فتوراً وإنْ لفترة قصيرة ما داموا هم أحياء، ثم في البرزخ والأخرى

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٥.

تقوى تسبيحاتهم وتزداد حيث الموانع زائلة والدوافع كاملة فهم «مسبحون لا يسأمون ولا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان»[1].

وترى كيف ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ عن تسبيحهم ولهم أقوال وأعمال دون ذلك، فإنهم رسل ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[2] برسالات تكوينية وتشريعية عدة؟.

علَّه لأن لهم مقام جمع الجمع كما لسائر الرسل بما جمع الله لهم الشتات، وإن رسالاتهم كلها تسبيحات لله قالاً وحالاً وأفعالاً، فليس ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ تختص بالقول فقط، بل هو أدنى درجاته، حاكياً عن حالهم وفعالهم، فالمسبِّح بهما دون قال مسبح لله، والمسبح بالقال دونهما غير مسبح لله، والجمع بين الثلاث أجمل وأكمل، أن يحلّق تسبيح الله كل كيان الكائن فيصبح بكله تسبيحاً لله.

وليس فقط ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ الله تنزيهاً في لفظة قول وحال وعمل، بل ويسبحونه عن أن تليق تسبيحاتهم لساحة قدسه معرفة وعبودية وكما يروى عن أفضلهم وأعلاهم الرسول محمد ﷺ: «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك» معترفين بالتقصير القاصر عن بلوغ تسبيحه!.

اتخذوا آلهة هم يخلقون ويدبرون أمورهم فيعبدون؟:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

الإنشاء هو الإحياء بعد الموت، كما هو إحياء بدائي لا عن موت،

---

(١) نهج البلاغة السيد الشريف الرضي عن الإمام علي عليه السلام وفي نور الثقلين ٣: ٤١٧ عن كتاب إكمال الدين وتمام النعمة عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن الملائكة أينامون؟ فقال: ما من حي إلا وهو ينام خلا الله وحده والملائكة ينامون فقلت: يقول الله عز وجل: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]؟ قال: أنفاسهم تسبيح.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١.

و﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كما تتعلق بـ ﴿يُنشِرُونَ﴾ أحياءً منها كما خلقوا منها، كذلك تتعلق بمقدّر ككائن: آلهة كائنة من الأرض، هم أنفسهم منها ومنها ينشرون الأموات، وتعلق ثالث بـ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ و﴿ءَالِهَةً﴾ في هذا التعلق هي الأصنام والأوثان، فمن ذا الذي يُنشرهم أنفسهم، وحين لا يقدرون على نشر أنفسهم فكيف يُنشرون سواهم.

فكما الله إلٰه الإنشاء، كذلك إله للإنشار وبأحرى، فلتقطع آمال المشركين الذين يحسبون لهم آلهة من الأرض هم ينشرون، فيسامحونهم فيما يعلمون، فـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

ولئن سئلنا: كيف يُنكِر عليهم إنشاراً هم ناكروه قائلين ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[2] مستبعدين أن يحيها الله وهو الخالق لها، فكيف يعتقدونه في أصنام ما هي إلا جمادات بلا أرواح؟.

والجواب: علها حجة إلزامية عليهم بما التزموا من عبادتهم لهذه الأوثان، ولزامها الثواب عليها فعلاً والعقاب تركاً، وليس شيء منهما في هذه الحياة الدنيا، فلتكن حياة أخرى فيها الجزاء، فهل أن آلهة من الأرض هم يُنشِرونهم فيجزون بما ينشرون؟.

وكيف ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ وهم يعجزون عن إنشار أنفسهم فأنّى تؤفكون؟.

أم كيف ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ والله خلقهم ومَن يعبدون، أليس الذي بدأ الخلق بأحرى أن يعيده: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[3]؟! ومن الدليل - القاطع القاصع القامع، المستمد من جوهرة الكون وواقعه - على وحدة الألوهية في كافة الحقول إنشاءً وإنشاراً:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.
(٢) سورة يس، الآية: ٧٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

آية منقطعة النظير في برهنتها الكاملة الشاملة، الماحقة كل فروضات تعدد الآلهة، نقدِّم تفسيراً لمفردات لها، ثم نخوض في البحث عن مدلولها.

فـ «لو» تحيل مدخولها وبأحرى في المسائل العقلية، إحالة جوهرية لا تقبل تحولاً إلى غير المحال على أية حال.

و﴿كَانَ﴾ تامة تعني أصل الكينونة، ضاربة إلى أعماق الماضي، أزلية لا أولية، فإذا لم تكن فيهما آلهة إلا الله منذ الأزل، فبأحرى بعده حتى الأبد، إذاً فهي حجة لسرمدية الإله الواحد دون شريك، ثم «إلا» هنا تعني الغير لا الاستثناء، حيث يعني - إذاً - «لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا» والنتيجة «لو كان معهم الله لم تفسدا»!.

فإنما هي بمعنى «الغير» فتعني «لو كان فيها آلهة غير الله»....

ومن ثم ﴿فِيهِمَآ﴾ هنا لا تعني مكاناً من السماوات والأرض لله والآلهة إلا الله، فإن الله هو الذي مكَّن المكان فليس له مكان، وكان إذ لا كان، فلا تعني ﴿فِيهِمَآ﴾ إلّا ما عنته ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾(١) أن يكون الكون ظرفاً لفاعلية الألوهية دون ذاتها.

وهنا حوار حول هذه الحجة الباهرة نطرحها بكل دقة وإمعان، لكي نحصل على حق المعني منها دون تزعزع وتلكع:

١ - المشركون لم يكونوا يدعون أن هناك آلهة غير الله كما الله، يخلقون كما يخلق ويميتون كما يميت، فما هي المغزى من ذلك التنديد الشديد وعرض الاستحالة في فرض مرفوض عند المشركين؟.

هذه الآية تحلِّق - حجة بارعة - على غير الموحدين أياً كانوا، من مشركين وثنوية وثالوثية يُعدِّدون ذات الإله بكل شؤون الألوهية.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.

٢ - فرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إنما يفرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾ من فساد السماوات والأرض، إذا كانا مختلفي العلم والحكمة، وأما الآلهة المتوافقة في الحكمة والتدبير فلا اختلاف في ربوبياتهم، فوحدة النظام في واقع الكون لا تدل إلا على وحدة التنظيم، وهي أعم من وحدة الناظم، أم تعدده بوحدة التنظيم، فـ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لم تفسدا إلا على فرض الاختلاف بينهم في التنظيم!.

ولا يرده أن الحكمة هي الموافقة للقوانين العقلية المأخوذة من واقع الكون، التابعة له، لكن الرب المدبِّر فعله هو نفس نظام الواقع، المتبوع للقوانين العقلية والعلمية، فكيف يكون فعله تابعاً لتلك القوانين؟.

حيث يرده، أن صالح الحكمة الإلٰهية هو الذي يُصلح واقع الكون، وصالح الكون آية لتلك الحكمة، وليس من المفروض أن تكون هذه الحكمة الصالحة من إله واحد، فقد تكون من آلهة متوافقة في صالح الحكمة، وكما أن المدبِّر الواحد فعله نفس النظام، كذلك غير الواحد!.

فاحتمال تعدد الآلهة لا يجتثه واقع النظام في الكون عقلياً وعلمياً، إذ يحتمل أن يكون من منظِّمين كثير، متوافقين في حكمة التنظيم، كما يحتمل أنه من منظم واحد.

والجواب الصالح عن هذه المشكلة الشائكة أن ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لا تعني فقط فساد السماوات والأرض بفساد التدبير نتيجة الاختلاف والتناحر، بل وكذلك ﴿لَفَسَدَتَا﴾ الآلهة إلا الله، وهي فساد الألوهية فيهم كلهم، أم فساد تعددهم!.

فلا يخلو تعدد الألوهية عن فساد في زاوية الكون، أو المكوِّن، أم تعدد المكون والمدبر، إذاً فهو ثالوث الفساد تحليقاً على كافة فروض التعدد، في أصل الذات أم في ربوبيات، أم في الخلق والأمر، أم ضغث

من هذا وضغث من ذلك، فإن وحدة النظام بهذه البراعة واليراعة تشي بوحدة المنظم ذاتياً وصفاتياً وأفعالياً.

فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات فتعددت النواميس وتناحرت و«فسدتا»!.

ولو اتحدت الإرادات رغم تعدد الذوات، فلا تخلو هذه الذوات من كونها مشتركة في كافة الذاتيات والصفات؟ فقضيتها إذاً وحدة الإرادات! فأين التعدد إذاً إذ لا مايز بين هذه الذوات، فإذاً ﴿لَفَسَدَتَاۚ﴾ عن تعددها، فلا ألوهية في هذا البين صالحة لأصل التكوين فضلاً عن نظامه!.

ولو اتحدت فيما قضيته وحدة الإرادات، واختلفت فيما لا رباط له بها، اختلافاً ذاتياً أم صفاتياً، فلنتساءل، هل أن هذه الذاتية أو الصفاتية المائزة بينها هي كمال مطلق، أم محدد، أم هي نقص؟ فليكن كلٌّ فاقداً لبعض ما يجده الآخر أياً كان، وهذا تخلُّف عن اللّامحدودية في الكمال التي هي لزام الألوهية، فالكل - إذاً - محدود مركب مما به الاشتراك وما به الامتياز، والكل يفقد ما يجده الآخر من كمال، أو يجد ما ليس في الآخر من نقص، إذاً فكلٌّ منهم محدود ناقص فـ ﴿لَفَسَدَتَاۚ﴾ فساداً في ذات الألوهية وصفاتها! ففساداً في الكون وكساداً عن بكرته حيث الناقص في ألوهيته مألوه وليس خالقاً، إذاً فلا خلق، وواقع الخلق المنتظم دليل أن لا إله إلا الله، ففرض آلهة إلا الله يفرض فساد الكون في أصله أو نظامه، وفساد كل الآلهة أو فساد التعدد، فينقلب فرض التعدد إلى حتمية الوحدة أم الفساد في الكون في بعديه وفي الآلهة.

وتأنيث ضمير التثنية إنما هو باعتبار شموله للسماوات والأرض كما يشمل الآلهة إلا الله.

ذلك وكما نجد على ضوء هذه الآية روايات محكمة حكيمة فيها سرد شامل لمحتملات تعدد الآلهة والقضاء الصارم الحاسم عليها:

فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في حوار مع الزنديق قوله: لا يخلو قولك أنهما اثنان من أن يكونا قديمين قويين أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً، فإن كانا قويين فلِمَ لا يدفع كل واحد منهما صاحبه وينفرد بالتدبير؟ - وإن زعمت أن أحدهما قوي والآخر ضعيف ثبت أنه واحد كما نقول للعجز الظاهر في الثاني، وإن قلت إنهما اثنان لم يخلو من أن يكونا متفقين من كل جهة أو مفترقين من كل جهة، فلما رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر دل صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أن المدبر واحد - ثم يلزمك إن ادعيت اثنين فلا بد من فرجة بينهما حتى يكونا اثنين فصارت الفرجة ثالثاً بينهما قديماً معهما فليزمك ثلاثة لزمك ما قلنا في الاثنين حتى يكون بينهما فرجتان فيكون خمسة ثم يتناهى في العدد إلى ما لا نهاية في الكثرة...[١]. وفي رواية أخرى «وإذا بطل هذا ولم يكن بينهما اختلاف بطل الاثنان وكان واحداً»...[٢].

فلأن فساد الألوهيَّة يقتضي نفي الإله، وصالح الكون المنسق المنتظم بتنسيق واحد دليل صالح الألوهية، إذاً فليس فيهما آلهة إلا الله الواحد القهار.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فالله الذي هو صاحب عرش الخلق والتدبير واحد لا شريك له، كما تدل عليه وحدة النظام من ناحية، وفساد التعدد من ناحية الذات والصفات من أخرى.

ومما يصفون ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ بجنب أن له شركاء، أنه جالس على عرشه كسائر الجلوس على العروش، ولكن الألوهية نفسها ثم الربوبية للعرش،

(١) بحار الأنوار ١٠: ١٩٤ - ١٩٥ عن التوحيد بإسناده إلى هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي أتى أبا عبد الله عليه السلام وكان من قوله عليه السلام: ....

(٢) نور الثقلين ٣: ٤١٨ عن تفسير القمي وأما الرد على الثنوية...

هما يزيفان هذه القولة الزائفة، فهو الذي يربي العرش ويحمله دون أن يحمله العرش!.

ومن ذلك سؤاله عما يفعل كأنه يخطل أو يجهل أو يغفل ولكنه:

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

طالما أصحاب العروش من الخلق يُسألون عما يفعلون لنقص في التقدير والتدبير بقصور أو تقصير، حيث تملكهم العروش ويملكهم سوء التدبير، ولكن رب العرش وهو رب كل شيء، إنه عليم حكيم قدير، لا يفعل ما يفعله إلا عن حكمة وتدبير، رحمة ناصعة بارعة على كل صغير وكبير، فلماذا يسأل إذاً؟ سبحان العلي الكبير!

أجل، إن رب العرش ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ - «لأنه لا يفعل إلا ما كان حكمة وصواباً وهو المتكبر الجبار والواحد القهار فمن وجد في نفسه حرجاً في شيء مما قضى كفر ومن أنكر شيئاً من أفعاله جحد»[١].

ففيما يُسأل لأي علة صارت الإمامة في ولد الحسين دون الحسن عليهما السلام فالجواب: لأن الله تعالى جعلها في ولد الحسين ولم يجعلها في ولد الحسن والله لا يسأل عما يفعل[٢] وكما «جعل الله النبوة في صلب هارون دون صلب موسى ولم يكن لأحد أن يقول لِمَ فعل الله ذلك فإن الإمامة خلافة

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤١٩ في كتاب التوحيد بإسناده إلى عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد الجعفي قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: يا بن رسول الله إنّا نرى الأطفال منهم من يولد ميتاً ومنهم من يسقط غير تام ومنهم من يولد أعمى وأخرس وأصم ومنهم من يموت من ساعته إذا سقط إلى الأرض ومنهم من يبقى إلى الاحتلام ومنهم من يعمر حتى يصير شيخاً فكيف ذلك وما وجهه؟ فقال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أولى بما يدبره من أمر خلقه منهم وهو الخالق والمالك لهم فمن منعه التعمير فإنما منعه ما ليس له ومن عمره فإنما أعطاه ما ليس له فهو المتفضل بما أعطى وعادل فيما منع ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون قال جابر: فقلت له: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكيف لا يسأل عما يفعل؟ قال: لأنه...

(٢) المصدر في عيون الأخبار بإسناده إلى محمد بن أبي يعقوب البلخي قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام فقلت: لأي علة...

الله عزوجل ليس لأحد أن يقول: لم يجعلها في صلب الحسين دون صلب الحسن، لأن الله هو الحكيم في أفعاله ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[1].

فمن الهراء هذه وتلك، وفي العراء قيلة من قال: قطع الله النبوة عن صلب يوسف لأنه لم يحترم أبويه ولم ينزل من العرش حتى خروا له سجداً، تقديماً لإخوته الحساد الفساق عليه وهو نبيٌّ مرسل من المخلصين!.

وعلى أية حال فسؤال المسؤولية التجهيل والتخجيل منفي عن ساحته، طالما سؤال التعلُّم والتبجيل مرضي عند سماحته وقد أمر أول العابدين ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2] ويؤمر كل عبد من عباد الله ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾[3].

ليس هناك ضابطة عادلة حاكمة على الله تنضبط بها أفعال الله تعالى، فيخضع لها في أفعاله حتى يُسأل، فإنه الضابط لكل ضابطة عادلة وفاضلة، وكل أفعاله صادرة عن حكمة وفضيلة متعالية.

فطالما النبيون وهم معصومون يُسألون هل طبقوا واجباتهم الرسالية وماذا أجيبوا: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾[4] ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[5] فليس الله ليُسأل عما يفعل وهم يسألون سؤال عدل، فـ «إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عما عهد إليهم ولم يسألهم عما قضى عليهم»[6].

---

(١) المصدر في كتاب الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام حديث طويل وفيه فقلت: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون ولد الحسن وهما جميعاً ولدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسبطاه وسيدا شباب أهل الجنة؟ فقال عليه السلام: إن موسى وهارون كانا نبيين مرسلين أخوين فجعل الله النبوة في صلب هارون....

(٢) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٦.

(٦) نور الثقلين ٣: ٤٢٠ في إرشاد المفيد قال رحمه الله وقد ذكر أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام=

وترى ﴿وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ هم الذين يُعبدون من دون الله؟ ومنهم الأصنام والأوثان، لا حول لها ولا حيلة فيما يفعل بها! طالما المسؤولية الكبرى على طواغيتهم.

بل هم المكلفون أجمعون، المرسل إليهم والمرسلون، طالما السؤال يختلف حسب اختلافهم عصمة أو قصوراً أو تقصيراً، وهذا هو الصحيح، فإنّ ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ هي من اختصاصات الربوبية، فكل من يؤهل للسؤال سواه يُسأل دون إبقاء، هل كان فِعْله موافقاً للحكمة والمصلحة الواقعية؟.

ولكن الله - وهو خالق الحكمة والمصلحة - هو فعله حكمة ومصلحة، نبراساً ومقياساً لكل فعل من كل فاعل، فلا يُسأل - إذاً - هل إنّ فعله يوافق الحكمة والمصلحة، فإنه هو الفاعل فيها والحاكم بها وليس محكوماً بها كأنها من فعل غيره إلهاً أو مألوهاً.

فالحق الصالح في فعله ليس لموافقته الواقع، حيث الواقع الصالح هو من فعله، بل الحق في أي واقع إنما يقاس بفعله أو قوله، دون أن يقاسا بواقع هو من فعله!.

فمن هذا الذي يسأله عما يفعل، أإله معه أم فوقه؟ وهو الله الواحد القهار! أم مألوه مسؤول عن فعله؟ ولماذا يسأل، اللهم إلا تعلماً وتفهماً، لا تعنتاً وتجهيلاً!.

وفي ﴿لَا يُسۡـَٔلُ﴾ إنشاءً حاسماً بصيغة الإخبار استئصال لكل سؤال عن جناب قدسه على أية حال، فهم بين ساكت مستسلم، وسائل فاشل قاحل.

= ومما حفظ عنه عليه السلام من موجز القول في العدل قوله لزرارة بن أعين: يا زرارة أعطيك جملة في القضاء والقدر، قال له زرارة: نعم جعلت فداك قال: إذا كان يوم القيامة. . . .

كما ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ تحلّق المسؤولية على كل من يصح عنه سؤال مهما كان من أقرب المقربين وأسبق السابقين.

ثم السؤال ﴿عَمَّا يَفْعَلُ﴾ قد يكون سؤالاً عن سببه؟ وهو خالق الأسباب ومسببها، فـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

أو سؤالاً عن غايته؟ وهو مغنّي الغايات! ولا غاية له من فعله ترجع إلى صالحه ذاتياً أم صفاتياً! بل إن فعله غاية لكل صالح من أفعال العباد! وغايته هي الرحمة على العباد!.

أو سؤالاً عن حكمته ومصلحته؟ وهو خالقهما ومقررهما بفعله وقوله!.

أو سؤالاً عن «كيف فعل» اكتناهاً لواقع فعله وإرادته؟ وهو سؤال ساقط لأي سائل إذ لا يحيطون به علماً وهو بكل شيء محيط!.

وعلى أية حال فكل سؤال ﴿عَمَّا يَفْعَلُ﴾ غير مسموح «فويل لمن قال كيف وكيف»[2]، اللهم إلّا سؤال التفهم فيما يصح، وسؤال الحاجة كما

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣١٦ - أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : إن في بعض ما أنزل الله في الكتب: إني أنا الله لا إله إلا أنا قدرت الخير والشر فطوبى لمن قدرت على يده الخير ويسرته له وويل لمن قدرت على يده الشر ويسرته له إني أنا الله لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل وهم يسألون فويل لمن قال كيف وكيف».

أقول التقدير لا يعني التسيير، بل هو تقدير لكل حسب ما يناسب عقيدته وطويته وفعلته بمشيئة. وفيه - أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ميمون بن مهران قال: لما بعث الله موسى وكلمه وأنزل عليه التوراة قال: اللهم إنك رب عظيم لو شئت أن تطاع لأطعت ولو شئت أن لا تعصى ما عصيت وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك تعصى فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن نوف البكالي قال: قال عزير فيما يناجي ربه: يا رب تخلق خلقاً تضل من تشاء وتهدي من تشاء فقال له: يا عزير اعرض عن هذا فأعاد فقيل له لتعرضنّ عن هذا وإلا محوتك من النبوة إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون وفي لفظ آخر: =

يصح فإنه ممنوح، وهذا الأخير سؤال أن يفعل لا عما يفعل، والأول سؤال عما يفعل لصالح التفهم الذي يصح.

و﴿عَمَّا يَفْعَلُ﴾ يعم كل أقواله وأفعاله تكوينية وتشريعية، فلو أنه لم يبعث رسلاً وأهلكهم بظلمهم لكانت لهم عليه سؤال وحجة: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾(١) ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾(٢) ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٣).

فقد قطع بعدله وحكمته وفضله كل سؤال عنه عن كل سائل، فليس ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ استبداداً واستكباراً أعمى، هو في العين قذى وفي الحلق شجى.

= إن عزيراً سأل ربه عن القدر فقال: سألتني عن علمي عقوبتك أن لا أسميك في الأنبياء أقول: وكما نراه غير مذكور في القرآن إلا ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ . . .﴾ [البَقَرَة: ٢٥٩]! وفي آخر يذكر القصة عن موسى وفي آخرها «فانتهى فلما بعث الله عزيراً وأنزل عليه التوراة بعدما كان رفعها عن بني إسرائيل حتى قال من قال: إنه ابن الله قال: اللهم إنك رب عظيم. . . فأوحى الله إليه إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون فأبت نفسه حتى سأل أيضاً فأوحى الله إليه: إني لا أسأل. . . فأبت نفسه حتى سأل أيضاً فقال: أتستطيع أن تصرصره من الشمس؟ قال: لا قال: أفتستطيع أن تجيء بمكيال من ريح؟ قال: لا قال: أفتستطيع أن تجيء بمثقال من نور؟ قال: لا قال: أفتستطيع أن تجيء بقيراط من نور؟ قال: لا قال: فهكذا أن لا تقدر على الذي سألت إني لا أسأل عما أفعل، وهم يسألون أما إني لا أجعل عقوبتك إلا أن أمحو اسمك من الأنبياء فلا تذكر فيهم فمحى اسمه من الأنبياء فليس يذكر فيهم وهو نبي فلما بعث الله عيسى ورأى منزلته من ربه وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. . قال: اللهم إنك رب عظيم. . . فأوحى الله إليه إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون وأنت عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتك إلى مريم وروح مني خلقتك من تراب ثم قلت لك كن فكنت لئن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك إني لا أسأل. . فجمع عيسى من تبعه وقال: القدر سرّ الله فلا تكلّفوه!

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

وما أسؤلة الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[١] والنبيين كنوح ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾[٢] إلا استفهاماً دونما استفحام وإلا لكان فسوقاً منهم أو كفراً، أجلَّهم الله من ذلك إجلالاً كريماً.

أجل! وإن إرادة الله طليقة لا يحدها تحدُّد أم تهدُّد إرادة أخرى، لأنها منطلقة من قدرة قاهرة حكيمة، فهو الذي يضع الحدود بتلك الإرادة الطليقة فكيف تُحدّ إذاً أو تحدَّد، اللهم إلا تحديداً من عنده كما يناسب ساحة الربوبية.

لا نقول ما يتقوله شذر من الناس النسناس، أنه طليق الإرادة حتى في الظلم، فينكرون وجوب العدل عليه بما كتبه على نفسه، أم واقعه في فعله.

إنما نقول إنها طليقة عن دوافع ونوازع خارجية فإنها كلها من فعله، ولكنه لا يفعل إلا الصالح لساحة الربوبية باختيار، دون منعة عليه باضطرار، سبحان العلي الحكيم الجبار!.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

فواقع الكون ببرهانه الساطع على وحدة الإله، خلوٌ عن آلهة إلا الله ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً. . .﴾ اتخاذاً جارفاً، اختلاقاً لما لا يكون ولن يكون.

فالبرهان على أصل وجود الإله وعلى وحدته قاطع قاصع، ولا ينازعه أي برهان ينقضه أو ينقصه، فـ ﴿قُلْ﴾ للذين يتخذون من دونه آلهة ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٥.

وقد قيل للإمام الرضا عليه السلام: أتقول إن الله واحد؟ قال: قولك إنه اثنان دليل على أنه واحد، لأنك لا تدعُ الثاني إلا بعد إثباتك الواحد، والواحد متفق عليه والثاني مختلف فيه»[١].

وما أحلاه برهاناً على من ليس له على الثاني برهان، إضافة إلى سائر البرهان عقلياً وكونياً وفطرياً على التوحيد، كما و﴿هَٰذَا﴾ الحق الحقيق بالاتباع ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين بالله الموحدين ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ﴾ رسلاً ومؤمنين، فلم يأت رسول ثابت الرسالة يقول غير ما نقول، إجماعاً نقلياً رسالياً هو من أعمق الأدلة العقلية على التوحيد، فإن كان في الكون إله آخر أم آلهة أخرى فمن هو رسولهم، وما هي آثارهم الربوبية بجنب هذه الربوبية الشامخة الشاملة المحلقة على الكون كله؟! و«ذكر» في «مَن معي - و - مَن قبلي» يعم كتاب الذكر، ونفسه في أنفسهم الناتج عن أدلة أنفسية وآفاقية، والذكر الأول من الثانية، وبصيغة أخرى تعمهما «يعني بذكر من معي ما هو كائن ويذكر من قبلي ما قد كان»[٢].

وقد يعني «هذا»: القرآن، فإنه يحمل ذكراً لـ ﴿مَن مَّعِيَ﴾ وهم المسلمون أجمع و﴿مَن قَبْلِيۗ﴾ حيث يذكر ذكري سائر كتب السماء دون إبقاء وكلٌّ محتمل والجمع أكمل وأجمل.

إذاً فـ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْۖ﴾ طلبٌ لبرهان على ما يدّعون بعد البرهان على توحيد الله، ولأنهم ليس لهم برهان ينقضه أصبح توحيد الله مزوَّداً بعدم برهان على التعدد بعد البرهان على التوحيد ونفي العدد!.

وهو الأصل في حوار الإمام الرضا عليه السلام: «قولك إنه اثنان دليل على

(١) التوحيد للصدوق عن الإمام الرضا عليه السلام أنه سئل: أتقول: . . .
(٢) المجمع في الآية قال أبو عبد الله عليه السلام: . . . .

أنه واحد لأنك لا تدعو الثاني إلا بعد إثباتك الواحد والواحد متفق عليه والثاني مختلف فيه»!

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾: دليلاً ومدلولاً، فلا يميزون برهاناً عن ادعاءٍ ولا ادعاءً عن برهان، وهو جهل الجهالة المقصرة، لا قاصرة غير مسؤولة، وهناك قلة مضللة يعلمون الحق وهم منكرون ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] وهم حملة مشاعل الضلالة والمتاهة.

فالأكثرية من المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ جهلاً فاتكاً، والأقلية المسيّرة لهم ﴿يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾، وأين إعراض من إعراض؟!.

وليس عدم العلم بالحق يدفع جاهله إلى الإعراض عنه إلا إذا تعرّق فأصبح كأنه علم ببطلان الحق، حيث «يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى»[2] ثم ومن ذكر من قبلي:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ فالرسالة الإلٰهية الموحدة تحلّق على تاريخ الرسالات كلها دونما استثناء، أفلا يكفي ذلك الوحي المتواتر المتواصل من عند الرحمن أنه لا إله إلا هو تصديقاً

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) خطبة لعلي عليه السلام بدايته: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث... (أصول الكافي - وفي النهج باختلاف لفظي يسير).

لوحيه، أم لا يكفي عدم إرسال رسول من قِبَل من يتخذونهم آلهة من دون الله أن ليسوا هم بآلهة إلا في خضمِّ الخيال والادعاءات الجوفاء الخواء؟.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

وهذه القولة الجاهلة نجدها بين فريق من أهل الكتاب هوداً ونصارى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[١].

كما ونجدها بين أقوام من المشركين، بل وقد انتقلت هذه المزعمة منهم إلى جماعة من الكتابيِّين كما أشارت له «يضاهئون»، والجواب هنا كلمة واحدة إضراباً عما يقولون ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ وهي تحصر مزعمة اتخاذ الولد بالعباد المكرمين، دون سواهم مثل الجنّة وسواهم: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[٢] وكذلك مثل سائر أبناء الله عند المشركين في ثالوثهم المرتسم عندهم برسومات عدة.

فـ ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ وهم المخلِصون المخلَصون من عباد الله الصالحين، ملائكة أو نبيين أو أئمة معصومين»[٣].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٥٨.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٢١ في تفسير القمي في الآية قال: هو ما قالت النصارى إن المسيح ابن الله وما قالت اليهود عزير ابن الله وقالوا في الأئمة ما قالوا فقال الله عزّ وجلّ: سبحانه - أنفة له - ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] يعني هؤلاء الذين زعموا أنهم ولد الله.... وفيه في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: وألزمهم الحجّة بأن خاطبهم خطاباً يدل على انفراده وتوحيده وبأن لهم أولياء تجري أفعالهم وأحكامهم مجرى فعله فهم العباد المكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، قال السائل: من هؤلاء الحجج؟ قال: هم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن حل محله أصفياء الله الذين قالوا: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] الذين قرنهم الله بنفسه وبرسوله وفرض على العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم منا لنفسه.
=

«الدعاة إلى الله والمظهرين لأمر الله ونهيه وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون»[1]. وقد يروى عن أكرم عباد الله المكرمين بعد أوّل العابدين «إن الله اختص لنفسه بعد نبيه ﷺ من بريته خاصة علاهم بتعليته، وسماً بهم إلى رتبته، وجعلهم الدعاة بالحق إليه، والأدلاء بالرشاد عليه، لقرن قرنٍ وزمنٍ زمنٍ، أنشأهم في القدم قبل كل مذْرُوٍّ ومَبْروٍّ أنواراً أنطقها بتمجيده بتحميده، وألهمها شكره وتمجيده، وجعلها الحجج على كل معترف له بملكة الربوبية وسلطان العبودية، واستنطق بها الخرسات بأنواع اللغات بخوعاً له بأنه فاطر الأرضين والسماوات، وأشهدهم خلقه، وولّاهم ما شاء من أمره، جعلهم تراجمة مشيته، وألسن إرادته، عبيداً: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[2] [3].

= وفيه في الخرائج والجرائح في أعلام أمير المؤمنين في روايات الخاصة: اختصم رجل وامرأة إليه فعلا صوت الرجل على المرأة فقال له علي عليه السلام: اخسأ - وكان خارجياً - فإذا رأس رأسه الكلب فقال له رجل: يا أمير المؤمنين صحت بهذا الخارجي فصار رأسه رأس الكلب فما يمنعك من معاوية؟ فقال: ويحك لو أشاء أن آتي بمعاوية إلى هاهنا على سريره لدعوت الله حتى فعل، ولكن لله خزان لا على ذهب ولا فضة ولا إنكار على أسرار هذا تدبير الله أما تقرأ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]. وفيه روى الأصبغ بن نباتة قال: كنا نمشي خلف علي عليه السلام ومعنا رجل من قريش فقال: يا أمير المؤمنين قد قتلت الرجال وأيتمت الأطفال وفعلت وفعلت فالتفت عليه السلام إليه وقال: اخسأ فإذا هو كلب أسود فجعل يلوذ به ويبصبص فرآه عليه السلام فرحمه فحرك شفتيه فإذا هو رجل كما كان فقال رجل من القوم: يا أمير المؤمنين أنت تقدر على مثل هذا ويناويك معاوية؟ فقال: نحن عباد مكرمون لا نسبقه بالقول ونحن بأمره عاملون.

(١) من زيارة الجامعة الكبيرة.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٢٢ في مصباح شيخ الطائفة في خطبة مروية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: . . .

أجل «سبحانه» أن يتخذ هؤلاء ولداً ﴿بَلْ﴾ هم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ بما أكرمهم الله بالعبودية بعدما أكرموا أنفسهم بها، فلا كرامة للعبد مهما بلغ الذروة، إلا كرامة العبودية، فلا يزال العبد يكرم ربه بعبوديته، كرامة لنفسه أن يعبده قَدَر مقدرته، ثم المعبود يكرمه بكرامة على كرامته أن يخلصه لنفسه، بعدما أخلص هو نفسه لربه، وأين إخلاص من إخلاص، إخلاصٌ من العبد وإخلاص من المعبود.

فليس من إكرام الله لهم أن يتخذهم له ولداً سبحانه، فإن الولادة التشريفية مستحيلة كما الحقيقية، حيث التشريف مجاز وهو لا يجوز في الأمور المستحيلة، وإنما هو جواز عن الحقيقة الكائنة أو الممكنة.

فقد يصح لعالم رباني أن يتخذ تلميذاً له صالحاً ولده تشريفاً له وذلك مسموح، دون معنى البنوَّة الحقيقية أو التبني، ولكنه لا يصح أو يمكن بحق الله، قضية الإمكانية في حقيقته هناك واستحالته هنا.

وحتى لو أمكن ذلك الاتخاذ لم يكن فيه تشريف، إذ لا شرف للعبد أشرف من شرف العبودية ولا يساميها أيُّ شرف، وكما التشريف بالربوبية له مستحيل كذلك البنوَّة.

ومن مواصفات هؤلاء العباد المكرمين التسليم السليم لرب العالمين:

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

ليس هنالك أي سبق لهم على ربهم فيما أمره إليه، إرادة أم قولة أم فعلة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

وعلَّ «القول» هنا يعم الأولين كما تدل عليه ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٠.

ثم الثالثة تخصها ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ وهذه عصمة كاملة شاملة كل كيانهم دون إبقاء.

وفي تقديم ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ على ﴿يَعْمَلُونَ﴾ حصر وتحتيم لاختصاص أعمالهم بأمر الله، فلا يعملون عن أمر أنفسهم ولا سواهم، إلا الله.

وليس ذلك الأمر تكوينياً يسيّرهم دون اختيار منهم، حيث «لا يسبقونه - و - يعملون» ينسبان السلب والإيجاب إليهم، والعمل المسيّر لا طاعة ولا معصية! ثم أمره يعم الفعل والترك، فـ «يفعلون» تعم فعل الفعل وفعل الترك، تدليلاً على أن ترك الحرام ممدوح فيما لك فيه الاختيار كفعل الواجب، فكما الفعل الممدوح هو المختار كذلك تركه.

فهم بكل إراداتهم وأقوالهم وأفعالهم يحملون أمر الله ومشيئته، حيث هم أداة مشيئته وولاة أمره دونما حاجة منه إليهم.

وتراهم - إذاً - كيف سبقوه سبحانه في القول ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(١) وقد جمعوا فيه إلى سبق القول وسؤال الفعل و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾؟

علَّه يستثنى من ذلك الإطلاق تفلتاً عما هم عليه، أم إنما قالوا ما قالوه وسألوا ما سألوه بأمره تعالى لكي يكونوا على ضوء جوابه ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢) عارفين مدى جهلهم فيزدادوا منه تعلماً ولديه تسليماً!:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

فمن ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مستقبلهم وحاضرهم، ومن ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ غابرُهم،

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

أم كل مستقبل وحاضر وغابر مما يعلمون وما لا يعلمون، فهو يحيط بهم ويمن سواهم علماً ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[١]!.

ثم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ الله من المشفَّع لهم، وقد كان فريق من المشركين يعبدونهم قائلين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[٢] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[٣].

فتزييفاً لهذه المزعمة الخاطئة يحصر شفاعتهم لمن ارتضى الله دينه، دون المشركين بالله، المتخذين عباد الله المكرمين أبناءه سبحانه، فغير الموحد لا تناله شفاعتهم لو شفعوا لهم ولن يشفعوا فـ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ و﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾.

فالموحِّد مرضي عند الله كأصل وضابطة في قبول الشفاعة على شروطها المسرودة في الذكر الحكيم، دون الملحد والمشرك والمنافق والمكذب بآيات ربه فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٤].

والشفاعة هي آخر المطاف لمرتكبي الخطيئة، ومرتكبي الضلالة إن ظلوا على توحيد الله، دون أن يضلوا عنه، فليست إذاً إلا لمرتكبي الكبيرة التي بقيت حتى القيامة غير مكفَّرة بتوبة في الأولى، أم بعذاب في البرزخ أم في جحيم القيامة، فمنهم مَن هم يخرجون من النار قبل توفية العذاب، بالشفاعة، وقد تلى رسول الله ﷺ هذه الآية فقال: إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٥) الدر المنثور ٤: ٣١٧ - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن جابر أن رسول الله ﷺ تلا قول الله: ولا يشفعون... فقال:.... وفي نور الثقلين ٣: ٤٢٣ في عيون=

وترى الموحِّد مشفَّع له مهما تعمد في المعصية ولم يحنّ قلبه إلى التوبة ولم تُحَسِّنه حسنته ولا ساءته سيئته؟ وذلك نكران ليوم القيامة، وللشرعة الإلهية!.

كلا فهكذا موحدٍ غير مرضي دينُه وعليه سخط الله، أترى من غضب الله عليه لنكرانه يوم القيامة، أو تَشَكُّكِه فيها، سوف يرضى الله عنه فتشمله الشفاعة؟!.

فالشافعون - إذاً - لا يشفعون إلّا لمن ارتضى «اللهُ دينه، والدين الإقرار بالجزاء على الحسنات والسيئات، فمن ارتضى الله دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبته في القيامة»[١]، وإن لم يقم بشروطات التوبة، أم سوّفها حتى قضى نحبه.

= الأخبار بإسناده إلى الحسين بن خالد عن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأما المحسنون فما عليهم من سبيل قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا عليه السلام: يا بن رسول الله فما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؟ قال: لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه.

وفيه عن الخصال عن الأعمش عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال: وأصحاب الحدود فساق لا مؤمنون ولا كافرون لا يخلدون في النار ويخرجون منها يوماً والشفاعة جائزة لهم وللمستضعفين إذا ارتضى الله دينهم.

(١) نور الثقلين ٣: ٤٢٣ في كتاب التوحيد بإسناد متصل عن محمد بن أبي عمير عن موسى بن جعفر عليهما السلام حديث طويل وفيه قلت له: يا بن رسول الله! فالشفاعة لمن تجب من المذنبين؟ فقال: حدثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل، قال ابن أبي عمير: فقلت له: يا ابن رسول الله كيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ومن يرتكب الكبيرة لا يكون مرتضى؟ فقال عليه السلام: يا أبا محمد، ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلا ساءه ذلك وندم عليه وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: كفى بالندم توبة وقال صلى الله عليه وآله وسلم: من سرته حسنته وساءته سيئة فهو مؤمن فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظالماً والله تعالى ذكره يقول: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا =

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ على فرض المحال حيث المعني من «هم» العباد المكرمون، أم كواقع إذا عني من «هم» كلّ من اتخذ لله ولداً أو اتخذ نفسه ولده، أم ادعى الألوهية، كما الشيطان وكل فراعنة التاريخ.

﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ رفضاً لألوهية الله، أم إشراكاً لنفسه بالله ﴿فَذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ وكضابطة عامة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بحق الربوبية.

وأما من لم يقل منهم ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ مهما اتُّخذ إلهاً من دونه وهو رافضه، فذلك يبقى على كرامته: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ...﴾[1] ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ...﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[2].

= شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] فقلت له: يا بن رسول الله ﷺ وكيف لا يكون مؤمناً من لم يندم على ذنب يرتكبه؟ فقال: يا أبا محمد ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أنه سيعاقب عليها إلا ندم على ما ارتكب ومتى ندم كان تائباً مستحقاً للشفاعة ومتى لم يندم عليها كان مصراً والمصر لا يغفر له لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم وقد قال النبي ﷺ: لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، وأما قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فإنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه....

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١١٦، ١١٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ

نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

.. ألم ير الذين كفروا آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ...﴾ عطفاً على ما أراهم الله تعالى ولم يروا ولم يتبصروا.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أو منهم هنا هم المشركون المقسِّمون الخلق والتدبير بين الله والآلهة، لا الماديين أو والكتابيين مهما شملهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ هامشياً حيث الحوار كان مع المشركين دون سواهم.

والرؤية المتساءل عنها هي العلمية رأياً كأنها رؤية بصر، وهي الأكثرية الساحقة من إطلاقات الرؤية، ولا سيما المقرونة بما هنا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا﴾ فأين كانوا هم ومَن قبلهم حتى ينظروا إلى فتقهما بعد رتقهما ومنهما خلقهما؟ ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[١].

وذلك الرتق والفتق في بناية الكون، وهما متواصلان بمختلف الصور على طول الخط، إنه نقض صارم على خرافة التفرقة بين الخلق والتدبير،

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥١.

فإنهما مجموعان لِصْق بعض في كل رتق وفتق، فهما - إذاً - فعلٌ واحد من فاعل واحد، وحتى إذا كانا منفصلين فتناسق الخلق والتدبير في كل رتق وفتق دليل وحدة الناسق، المدبر الخالق، وكما وحدة الخلق دليل وحدة الخالق.

ثم الرؤية العلمية، عقلية أو تجريبية، بالنسبة للفتق بعد الرتق، منها ما هي حاصلة عبر القرون البشرية لكل راءٍ مراعٍ صالحَ الرؤية، فـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ هنا استفهام إنكار، أنهم رأوا ثم حكموا بخلاف ما رأوا، سواء الماديين منهم استدلالاً بالتحولات المتواترة عبر الكائنات على المكوِّن، أو المشركين استدلالاً بوحدة الخلق والتدبير على وحدة الخالق والمدبر، أو الكتابيين، حيث تضاف إلى رؤيتهم العلمية الرؤية الكتابية القائلة بفتق بعد رتق، فليوحدوا الفاتق الراتق، وليؤمنوا بالشرعة القرآنية الفاتقة لما رتق قبلها، الفاتحة لما انغلق.

ومن ثم رؤية أخرى يُدفعون إليها على مرّ الزمن، فالاستفهام - إذاً - استنكار لمن لا يتدبرون حتى يروا فتقاً بعد رتق أكثر مما رأوا، حيث هما بعد بدايتهما مستمران مع الزمن في كافة أجزاء الكون.

إذاً فـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ غابر يحلِّق على المستقبل والحاضر، حيث الرؤية الحاضرة والمحضِّرة تعم عامة المكلفين دون إبقاء واستثناء.

فكما اختصاصها بالماضين تضييق لنطاق الدعوة القرآنية، كذلك - وبأحرى - اختصاصها بالآيتين من العلماء الغربيين، اختلاقاً من بعض المفسرين المتفرنجين المتأرجفين، إنهم هم المفترضون فرضية انفصال الأرض من الشمس، تأويلاً عليلاً لـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ إلى «أولا يرون» و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بهؤلاء فقط، و﴿السَّمَاوَاتِ﴾ بالشمس ﴿وَالْأَرْضَ﴾ هي الأرض، فـ ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ إنهما كانا جرماً واحداً، ثم ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بفصل الأرض عن الشمس»!!![1].

(١) تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوي ١٠ : ١٩٧ تحت عنوان: القرآن إذ أخبر بأمور لم تعلم إلا=

تخريجات فيها تحريجات وتهريجات كأنها خدمة غالية للقرآن، وفقاً بينه وبين هذه الافتراضة غير القانونية ولا الثابتة، المقبورة - أخيراً قانونياً علمياً - مع الأبد.

ولقد فصلنا في فصلت على ضوء الآية ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾[(١)] فصلنا هناك مدى خرافة هذه القيلة الغائلة الغيلة، وأنها تفسير للقرآن عن ساحته وسماحته وليس تفسيراً له، فإنه المحور في كل صغيرة وكبيرة عبر القرون، وليس حائراً حول الافتراضات التي لا سند لها علمياً فضلاً عن الواقعية المسنودة إلى قوانين تجريبية.

فكيف يعبِّر عن مستقبل خاص بماضٍ عام؟ وعن الشمس وهي قطرة صغيرة من خضمّ يمّ السماء الدنيا بالسماوات؟ وعن انفصال الأرض عن الشمس بفتقهما عن رتقهما وهو يعم المعاكسة أولاً ويخص الانشقاق لا الاشتقاق ثانياً؟.

كلا! وآيات «فصلت» توخر خلق الشمس عن الأرض بمرحلتين اثنتين حيث ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .... فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ... وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ...﴾[(٢)] والشمس هي من

= في القرن التاسع عشر يقول: تبت عن أهل أوروبا في هذه العصور إذ هم الذين قرروا هذا العلم وقالوا: إن الشمس كانت كرة أشبه بالنار دائرة ملايين من السنين، والأرض والسيارات وتوابعها كانت معها، ثم إن أرضنا انفصلت كما انفصل غيرها من السيارات انفصلن جميعاً من خط الاستواء الشمسي أثناء سرعة سير الشمس وجريها حول نفسها فتباعدت أرضنا والأرضون الأخرى وهي السيارات، فإن شمسنا والسيارات الأخرى كلها سيارات وكلها أرضون وهكذا كل الشموس التي نراها كأنها كواكب ثابتة على هذه الحال لها سيارات وقد اشتقت منها وقد قدروا على سبيل الظن أن الأرضين في العوالم كلها لا تنقص عن ثلاثمائة مليون أرض مسكونة... فثبت أن أرضنا مشتقة من الشمس والشمس أيضاً من شمس أكبر.. منها أقول وفي كل ذلك أسئلة ولا جواب له عنها!.

(١) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٢) سورة فصلت، الآيات: ٩-١٢.

مصابيح السماء الدنيا، فكيف تسبق أرضنا السابق عليها وعلى تسبيع السماء؟!.

فإليكم تفسيراً لآية الفتق جديراً بها حسب المستطاع دونما تحميل عليها ما ليس منها ولا إليها، ودون أن نحاول حمل النص أو الظاهر القرآني على افتراضات خاوية أو غير مستيقنة تُقبَل اليوم وتُرفض غداً، فإنه إمام العلم وأمامه، خالداً عبر كافة التقدمات العلمية وكشوفها المتعالية، فليطلق سراحه أينما انطلق دون أسرٍ له بنظريات أسيرة محصورة محسورة!.

هنا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هي السبع الطباق، أولاها هي السماء الدنيا حيث هي الأقرب إلينا، والشمس بمنظومتها جزء ضئيلٌ من أوليات هذه الأولى.

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ علها فقط هذه الأرض، فالأرضون الست الأخرى معنية في نطاق السماوات إن كانت مقسَّمة بينها أم هي في الأولى، أم هي جنس الأرض الشامل للأرضين السبع.

وعلى أية حال فـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هنا وفي غيره هما عبارة أخرى عن الكون كله.

﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ والرتق لغوياً هو الضَّمُّ والالتحام خلقياً أم خالقياً، والمعني هنا هو الثاني، وإنما أفردت ﴿رَتْقًا﴾ مصدراً وهو يثنى ويجمع كما الفاعل والمفعول؟ علّه للعناية إلى حالة الوحدة حيث لم تكونا حين الرتق الأول لا سماءً ولا أرضاً فضلاً عن سماوات وأرضين، وإنما كانتا المادة الفردة الأولى المعبر عنها بالماء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1] وطبعاً قبل خلق الأرض والسماء.

فقد كانتا حينذاك رتقاً في المادة الأمِّ، ففتقت الأم في تفجُّرة هائلة

(١) سورة هود، الآية: ٧.

فانقسمت إلى دخان السماء وزبد الأرض، كما تفصله آياته في فصلت، بعد إجماله في هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

فـ ﴿رَتْقًا﴾ هنا دلالة أولى على هذه الوحدة السابقة، فلو كان المعني منه التصاقهما، أم فقط فتق كلٍّ عن رتقة، لكانت الصيغة السائغة له «رتقين» ولكن ﴿رَتْقًا﴾ تعم الرتقات الثلاث ابتداءً من هذه الرتقة البدائية وانتهاءً إلى فتق السماء بالماء وفتق الأرض بالنبات.

ففي آية هود ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ يتبين بإجمال أنهما كانا في الأصل ماء وهو عبارة أخرى - وأحرى من غيرها - عن المادة الأم.

وفي فصلت يفصِّل ذلك ورتق ثانٍ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾(١).

فدخان السماء هو أصل ثانٍ لعالم السماء، وقد فتق عن الماء، ثم فتق إلى سبعها بمصابيحها، وكما زبد الأرض للأرضين السبع: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾(٢) (٣).

ومن ثم فتقت الأرض بالإنبات بما فتقت السماء بإنزال الماء، فتقاً ثالثاً بعد رتق ثالث كما هنا ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ - ﴿أَنَّا

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ١١، ١٢.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٣) الدر المنثور ٤ : ٣١٧ - أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد في الآية قال: فتق من الأرض ست أرضين معها فتلك سبع أرضين بعضهن تحت بعض ومن السماء سبع سماوات منها معها فتلك سبع سماوات بعضهن فوق بعض ولم تكن الأرض والسماء مما ستين ومثله عن أبي صالح.

صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾[1] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾[2].

وفي رواياتنا تصريحات وإشارات إلى هذه الفتقات بعد الرتقات كما وتستنكر الفتق المختلَق من أصحاب فرضية الانفصال: «فلعلك تزعم أنهما كانتا رتقاً متلازمتين متلاصقتين ففتقت إحداهما عن الأخرى...»؟[3].

ثم تُثبت سائر الفتقات ولا سيما المستفادة من ذيل الآية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وهي الفتقة الثالثة.

ومن جماع الدلالة على كلها أم جلها مقتطفات من خطب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «وناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها» - «وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعه أن جعل من البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً ثم

---

(١) سورة عبس، الآيات: ٢٥-٢٧.

(٢) سورة الطارق، الآيتان: ١١، ١٢.

(٣) المصدر في روضة الكافي في سؤال الشامي أبا جعفر الباقر عليه السلام عن هذه الآية قال عليه السلام: فلعلك... فقال: نعم فقال أبو جعفر عليه السلام: استغفر ربك فإن قول الله عز وجل: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ [الأنبياء: ٣٠] يقول: كانت السماء رتقاً لا تنزل المطر وكانت الأرض رتقاً لا تنبت الحب فلما خلق الله تبارك وتعالى الخلق وبث فيها من كل دابة فتق السماء بالمطر والأرض بنبات الحب...».

أقول: هذا تفسير بأظهر مصاديق الفتق بعد الرتق كما يبينه ذيل الآية، دون حصر فيه، وقد قدم الإمام عليه السلام خلق السماء والأرض من الماء وفي نفس الحديث بقوله: وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه وهو الماء الذي خلق الأشياء منه فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه وخلق الريح من الماء ثم سلط الريح على الماء فشققت الريح متن الماء حتى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور فخلق من ذلك الزبد أرضاً بيضاء نقية.. ثم خلق الله النار من الماء فشققت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء أن يثور فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقية... وذلك قوله: والسماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها... قال له الشامي: يا أبا جعفر قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟...﴾ [الأنبياء: ٣٠]؟ قال: فلعلّك..

فطر منه أطباقاً ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها» كما «وكانتا مرتوقتين ليس بينهما أبواب ولم يكن للأرض أبواب وهو النبت ولم تمطر السماء عليها فتنبت ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات»[١].

وليس الحصر في بعضها بالفتقة الأخيرة إلا نسبياً لاستنكار الفتقة المختلَقة، بإثبات ما يصدقها ذيل الآية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.

إذاً فـ ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ تحلِّق على كل فتق بعد رتق السماء والسماوات والأرض والأرضين، إجماعاً دلالياً بين الآيات والروايات ولا ينبئك مثل خبير.

وما تدبير الخلق تكوينياً وتشريعياً إلّا فتق الرتق، وهو مزيج مع كل خلق، إذاً فالخالق هو المدبر والمدبر هو الخالق دون أي فرق ولا فراق بين خلق وتدبير سبحان العلي القدير!.

﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾:

فمن ذلك الفتق فتق الماء عن رتق، إذ فتق عن أصله في السماء، ثم

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٢٥ في تفسير القمي في سؤال الأبرش أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية «فما كان رتقهما وما كان فتقهما؟ فقال عليه السلام: يا أبرش هو كما وصف نفسه كان عرشه على الماء.. فلما أراد الله أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربت الماء حتى صار موجاً ثم أزبد فصار زبداً واحداً... فلما أراد أن يخلق السماء أمر الرياح فضربت البحور حتى أزبدتها فخرج من ذلك الموج والزبد من وسطه دخان ساطع من غير نار فخلق منه السماء وجعل فيها البروج والنجوم ومنازل الشمس والقمر وأجراها في الفلك وكانت السماء خضراء على لون الماء الأخضر وكانت الأرض غبراء على لون الماء العذب وكانتا مرتوقتين ليس بينهما أبواب ولم يكن للأرض أبواب وهو النبت ولم تمطر السماء عليها فتنبت ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات وذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] فقال الأبرش: والله ما حدثني بمثل هذا الحديث أحد قط أعده علي فأعاد عليه وكان الأبرش ملحداً فقال: وأنا أشهد أنك ابن نبي ثلاث مرات.

فتق السماء عنه إلى الأرض، ثم فتقت الأرض به بإخراج نابتاتها[١] نباتية وحيوانية وإنسانية أمّا هيه من حيٍّ، كما فتقت سائر الكرات الحية بذلك الماء حيث لا يختص - ولم يكن يختص - بهذه الأرض.

فـ ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ تعم كل حي في السماوات والأرض، فكما أن كل شيء حي أو ميت فتق من المادة الأولية الأم[٢]: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ كذلك جعل من أفضل ولائدها: الماء - كل شيء حي، حياة ثانية بعد الأولى التي هي أصل الكون، فـ ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ يُخرج عن هذا المسرح الثاني كل شيء ميت وهو كل جماد، فالماء الثاني - إذاً - هو مادة كل حياة في ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ دون إبقاء، سواء كانت حياةً إنسانية أم ملائكية أم جنية[٣] أما هيه، وما دونها من حياة نباتية وحيوانية.

«وقد يعم «الماء» إضافة إلى أصله السائر في كل حي كضابطة كونية لأية حياة، قد يعم كل ماءٍ متولد من ذلك الماء بخليط أم دون خليط، كما النطفة الجرثومية المخلوق منها كل دابة: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ

---

(١) ومن الدليل على شمول «حي» للنبات: أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها - وإضرابها.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣١٧ - أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله ﷺ إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فأنبئني عن كل شيء، قال: كل شيء خلق من الماء.
أقول: الماء هنا غير الماء المشروب، بل هو المادة الأم كما في آية هود ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: ٧].

(٣) ولا ينافي خلق الجن من نار جعله من ماء فـ ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحِجر: ٢٧] هو أصلهم الأولي كما خلق آدم من تراب، فنسل الجان من ماء النطفة ومن أصل الماء، كما أن أصله النار فيه الماء.

اَللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)] فحين يخرج غير الدواب من الأحياء عن ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ فليس يخرج عن ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ مثل الملائكة والطير وحيوان البحر، بما يوجد في الأخيرين من ماء النطفة أحياناً، فمهما كانت الملائكة مخلوقة من ماء ولكنه ليس ماء النطفة إذ لا تزاوج بينهم[(٢)].

ثم «الماء» النطفة يعم المني الدافق وسواه كما في الإنسان وسواه.

ولأن الماء هو أصل الحياة فـ «طعم الماء طعم الحياة»[(٣)] وقد يكون بنفس السند شفاءً من بعض الأدواء[(٤)].

ولماذا هنا «جعلنا» دون خلقنا؟ علّه حيث المقصود أعم من الخلق

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٥.

(٢) ولا ينافيه خلق الملائكة من النور كما في بعض الأحاديث، حيث النور كما النار من أصل الماء، أم خليطه، أم أن الجعل هو جعل بقاء الحياة الملائكية والجنية بالماء وإن لم تكن أصولهم من هذا الماء، فلذلك لم يقل «خلقنا» والجعل يعم الخلق بداية، وبقاءه واستمراره، فطائفة من الأحياء مثل الإنسان مجعولة من الماء خلقاً وبقاءً، وثانية بقاءً كالملائكة - والله أعلم بما قال.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٢٧ عن المجمع وروى العياشي بإسناده إلى الحسين بن علوان قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن طعم الماء، فقال: سل تفقهاً ولا تسأل تعنتاً، طعم الماء طعم الحياة قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ورواه في قرب الإسناد مثله.

(٤) المصدر في كتاب طب الأئمة عبد الله بن بسطام قال: حدثنا ابن إسحاق ابن إبراهيم عن أبي الحسن العسكري عليه السلام قال: حضرته يوماً وقد شكى إليه بعض إخواننا فقال: يا بن رسول الله إن أهلي كثيراً يصيبهم هذا الوجع الملعون، قال: وما هو؟ قال: وجع الرأس، قال: خذ قدحاً من ماء واقرأ عليه هذه الآية ثم اشربه فإنه لا يضره إن شاء الله تعالى.

وبإسناده إلى حماد بن عيسى يرفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: إذا شكى أحدكم وجع الفخذين فليجلس في تور كبير وطست في الماء المسخن وليضع يده عليه وليقرأ هذه الآية وفيه عن سيف بن عمير عن شيخ من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال كنا عنده فسأله شيخ فقال: بي وجع وأنا أشرب له النبيذ ووصفه له الشيخ فقال له: ما يمنعك من الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي؟ قال: لا يوافقني، قال: فما يمنعك من العسل قال الله فيه شفاء للناس؟ قال: لا أجده، قال: فما يمنعك من اللبن الذي نبت لحمك واشتد عظمك؟ قال: لا يوافقني قال عليه السلام له: أتريد أن آمرك بشرب الخمر؟ لا والله لا آمرك!

بداية، ومن استمرارية المخلوق منه حيوية، فكما خُلق كل حي من ماء كذلك تستمر حياته بماء، دون إبقاء.

فهنالك فتق أول للخلق عن رتق الماء الأوّل وهو المادة الأولية، وفتق ثانٍ هو خلق هذا الماء المشروب مما خلق منه، وفتق ثالث هو خلق النُّطَف الجرثومية عن الماء الثاني، إذاً فدور الماء في أصل الخلق وفرعه دورٌ فعال منقطع النظير -:

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الخالق المدبر، المدبر الخالق، الذي بيده كل رتق وفتق، وبالنسبة للآلهة المختلقة ومختلقيها، حيث فتقها الله بعد رتق.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

هنا عرض لفتق بعد رتق في الأرض، وآخر في السماء، هما من طيات الفتقات الثلاث للسماوات والأرض، والرواسي المجعولة في الأرض - لا المخلوقة - هي الجبال الراسية الموتَّدة في أعماقها، الشاهقة رؤوسها، وعلّ المفعول الأول لـ «لجعلنا» هي الجبال قبل رسوِّها وقد خلقت من الأمواج السطح الأرضية، كما سئل الإمام علي عليه السلام مم خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج.

ولماذا جعلت الرواسي؟ ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ حفاظاً عن المَيَدان وهو سرعة الدوران، و«عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها... فسكنت من المَيَدان برسوب الجبال في قطع أديمها» «فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها»: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1] [2] فللرواسي علاقة عريقة بتوازن الكرة الأرضية

(١) سورة النحل، الآية: ١٥.
(٢) راجع تفسير آية النحل في النحل ففيها تفصيل أكثر مما هنا، وكذلك... ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغَاشِيَة: ١٩].

في سبحها الدائب بيمِّ الفضاء، فلا تميد بهم وتضطرب بل هي مهد ومهاد!.

هذه رواسي الأرض أن تميد بهم في رَجَفاتها، وتلك فجاجها السبل بينها لعلكم تهتدون، وبأحرى منها الرواسي القيادية الروحية، الراسية في أعماق أرض الحياة الإنسانية، عن أن تميد بكم من ضربات ورجفات، وهم الرعيل الأعلى الرساليين، ثم الفجاج السبل هم العلماء الربانيون، الوسطاء بينهم وبين الناس.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ عن التساقط من علياها إلى دنياها، إذ ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[(١)] ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾[(٢)] ومحفوظاً عن تسمُّع الجن إلى الملإ الأعلى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾[(٣)] ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾[(٤)].

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾: - ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[(٥)] فهم يعرضون عن آياتها كونية وشرعية.

ومن السماءِ السقف المحفوظِ بآياتها، سماءُ الوحي بآياته، إذ لا تدخُّل فيها من الشياطين وسواهم من المتسمِّعين.

فالسقف ما يظل الإنسان من علٍ والسماء هي أعلى السقوف، ولكنها خلاف سائر السقوف فإنها دون عمد مرئية، وكذلك سماء الرسالات غير مرئية العمد، وهي أعمدة الوحي ورباطاته الإلٰهية محفوظة عن كل انفراج

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.
(٢) سورة الحج، الآية: ٦٥.
(٣) سورة الصافات، الآيات: ٨-١٠.
(٤) سورة الحجر، الآيتان: ١٧، ١٨.
(٥) سورة يونس، الآية: ١٠١.

وانهدام وتشعث واسترمام، كما هي محفوظة من مسارق السمع، محصَنة بمقاذف الشهب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

هنا تعرفنا إلى سباحة الشمس والقمر، كل في فلكه الخاص به، فما هي سباحة الليل والنهار وهما من مظاهر سباحة الأرض والشمس دونما استقلال عنها؟.

إن لها ثانية في يسّ تعني في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ الأرض والشمس والقمر: ﴿...لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1]. حيث تسبقها الأرض، فهي - إذاً - معنية في هذه السباحة العاقلة مع النيرَين.

فكذلك الأمر في هذه حيث تسبقها الأرض كما هناك، وهنا زيادة «آياتها» ومنها نجومها بمجراتها فـ «كل» من هذه الثلاثة آياتها ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ دون حاجة إلى حمل التوجيه لـ ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهما ظاهرتان من سبح الأرض بواجهتها الخاصة للشمس!.

وقد نتلمح من هنا أن لا ثوابت في آيات السماء، فكلها سيارات، فردية في أفلاكها، وجماعية في مجرَّاتها وجزائرها في خِضِمِّ الفضاء!.

هذا وقد تعني ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ فيما عنت ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ والمعني من سباحتهما في فلكهما مدار كلٍّ تبعاً لدوران الأرض حول نفسها وشمسها، ولكن الليل والنهار مَسْبَحٌ لسابح الأرض وهما لا يسبحان، وهنا نتأكد أن ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ تشمل «آياتها» كلها، وهي الكواكب كلها.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿ٱلْخُلْدَ﴾ هنا هو البقاء في الحياة الدنيا، وهي زائلة بمن فيها وما فيها،

---

(١) سورة يس، الآية: ٤٠.

فلا خلد لها فضلاً عن مواليدها! ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ حيث قضوا نحبهم ومنهم من ينتظر كالمسيح والخضر وسائر الأحياء.

وقد تلمح الآية أنه ﷺ تمنى بقاءً، أم أكثر مما كان كما يروى «لمّا نعى جبريل للنبي ﷺ نفسه قال: يا رب فمَن لأمتي؟ فنزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ...﴾»[1].

وبذلك تُستأصل مُنية الخلود حتى عن الرسول ﷺ مهما هرف فيه هارف وخرف خارف رغم نص القرآن[2].

ولمحة ثانية تستأصل أمنيات المشركين ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[3] إذ كانوا يتربصون به الموت فيتخلصوا منه وكأنهم بعده باقون[4] ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾؟ كلا إلا متعة الحياة عاجلاً أو آجلاً في بلوى الخير والشر، كما الرسول لهم بلوى.

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣١٨ - أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: لمّا نعى...

(٢) المصدر - أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال: لما قبض رسول الله ﷺ كان أبو بكر في ناحية المدينة فجاء فدخل على رسول الله ﷺ وهو مسجّى فوضع فاه على جبين رسول الله ﷺ وجعل يقبله ويبكي ويقول: بأبي وأمي طبت حياً وميتاً فلما خرج مر بعمر بن الخطاب وهو يقول: ما مات رسول الله ﷺ ولا يموت حتى يقتل الله المنافقين وحتى يخزي الله المنافقين، قال: وكانوا قد استبشروا بموت النبي ﷺ فرفعوا رؤوسهم فقال: أيها الرجل أربع على نفسك فإن رسول الله ﷺ قد مات ألم تسمع الله يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٠]، وقال: وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون، قال: ثم أتى المنبر فصعده فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن كان محمد ﷺ إلهكم الذي تعبدون فإن محمداً قد مات، وإن كان إلهكم الذي في السماء لم يمت ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ...﴾ [آل عمران: ١٤٤] ثم نزل واستبشر المسلمون بذلك واشتد فرحهم وأخذت المنافقين الكآبة قال عبد الله بن عمر: فوالذي نفسي بيده لكأنما كانت على وجوهنا أغطية فكشفت...

أقول: وأبشر بأدب الخليفة عمر كيف يقول متغيظاً: «إن كان محمد إلهكم» ثم أبشر بمعرفته بالله كيف يمكّنه في السماء!.

(٣) سورة الطور، الآية: ٣٠.

(٤) المصدر السابق رقم (٢).

وقد تلمح ﴿لِبَشَرٍ﴾ أن الخلد جائز لغير البشر كما الملائكة هم خالدون مدى الحياة الدنيا فلا يموتون، ولا يعني الخلود الأبدية اللانهائية، إذ لا يزعمها أي عاقل ولا مجنون، وإنما هو البقاء مدة طويلة ومنها طول الحياة الدنيا، فذلك الخلود منفي عن كل بشر، مهما ثبت لغير بشر.

فالموت شامل كل بشر ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[١] مهما كان انتقالاً من حياة إلى أخرى، ومن نشأة إلى أخرى دون موت الفناء، اللهم إلّا في صعقة الإماتة حيث لا يستثنى منها إلا من شاء الله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[٢].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

أترى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ هنا تشمل كل نفس حية وسواها، إلٰهية وسواها حيث أطلق على ذاته تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾[٣] ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[٤] ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[٥]؟ ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٦]؟

كلّا! حيث النفس فيها وفي أضرابها لا تعني إلا نفس الكائن وذاته فلا تأتي إلا مضافة إلى نفس الكائن، حياً وسواه، إلهياً وسواه، فكما ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾ كذلك: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾[٧] ورأيت الدار نفسها،

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٦.
(٥) سورة طه، الآية: ٤١.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.
(٧) سورة يوسف، الآية: ٥٤.

ووقع الجدار نفسه، فبين النفس الذائقة الموت وهذه النفس الذات عموم من وجه تفترقان في الجماد، إذ لا حياة له حتى يذوق الموت، وفي الله فإنه الحي الذي لا يموت، وتجتمعان في الأنفس الحية التي تذوق الموت.

فالنفس الذات لا بد لها من إضافتها إلى الذات فلا تشملها غير المضافة كـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مهما شملت المضافة غير الذات: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1] ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾[2].

فالذات المقدسة الإلٰهية خارجة عن ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ كما الأنفس غير الحية، حيث إن ذوق الموت ليس إلا عن حياة، والإضافة فيها تعني النفس الذات.

والنفس غير المضافة، أو المضافة إلى غير ذاتها كاملةً، هي الجزء الحي من الكائن المركب من نفس وسواها، سواءً الروح ككل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[3] أو الروح بخاصة من أوصافه، كالنفس الأمّارة ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[4] واللوامة ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[5] والمطمئنة ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾[6] ولأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ غير مقيدة بواحدة من هذه الثلاث، وأن ذوق الموت هو لأصل النفس مصحوبة بهذه الثلاث، فهو إذاً كل نفس حية، وهي هنا المكلفة المبتلاة بالشر والخير، الراجعة إلى ربها، فخاصة بالمكلفين من الملائكة والجنة والناس أجمعين، مهما خُصَّت الملائكة بالبقاء مدى الحياة الدنيا، ولكنها قد تعرضها الصعقة

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.
(٢) سورة طه، الآية: ٩٦.
(٣) سورة الشمس، الآيتان: ٧، ٨.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٥٣.
(٥) سورة القيامة، الآية: ٢.
(٦) سورة الفجر، الآية: ٢٧.

إلا من شاء الله ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] والصعقة بين موت وذوق الموت.

ثم ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ لا تنافي عصمة الملائكة وكما ابتلوا في قصة آدم، أم أنها خصوص بعد عموم، فـ «نبلوكم» تخص غير الملائكة المعنيين بعموم ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ والأول أولى ولا سيما لشموله من هم أعصم من الملائكة وأعظم.

فلا تختص ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بالنفس الإنسانية بشاهد إطلاق النفس عليها دون سواها، فإنها تشمل كل نفس مكلفة مبتلاة راجعة إلى الله، وذوق الموت أعم من الموت نفسه، فقد تذوقه ولا تموت موت الفوت ككل من يموت عن هذه الأدنى، حيث الأرواح لا تموت فوتاً، وإنما تذوق موت أبدانها، وفراقها عنها، وقد تموت ردحاً ثم تحيى كما في صعقة القيامة ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أجل ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم...﴾ - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[3].

ثم الموت قد يعني ذوقه نفسه، كما في كل موتة عن الحياة الدنيا، أم هو الفوت ردحاً قبل قيامة الإحياء، أم يعنيهما ولا خارج عن هذه الثلاث اللهم إلا موت الآبدين في النار مع النار، حيث لا نار ولا أهل نار فإنه موت الفوت، دون الجنة فإنها دار القرار.

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾؟:

ذلك الخير حيث الخير كله بيديه، فما هو - إذاً - الشر، والشر ليس إليه؟.

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

فتنة الشر قد تكون جزاءً وفاقاً لشرّ قبلها كما فتن بنو إسرائيل: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾(١) فهذه شر بشرّ وهو خير في ميزان العدل مهما سمي شراً في ميزان الخلق لمكان ابتلائهم فيها ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾(٢).

وأخرى هي فتنة ملتوية صعبة، لا تلائم النفوس في البداية، ولكنها تبوء إلى خير في النهاية كما يفتن المؤمنون بفقد الأحبة أمّا هيه مما هم متعلقون به، مفتاقون إليه والعون فيه كما ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾(٣) ولقد مرض أمير المؤمنين عليه السلام فعاده إخوانه فقالوا: كيف نجدك يا أمير المؤمنين عليه السلام قال: بشرٍّ، قالوا: ما هذا كلام مثلك؟ قال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً...﴾ فالخير الصحة والغنى والشر المرض والفقر»(٤).

ومن البلاء الحسن نصرٌ من الله ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٥).

ثم وفي واجهة عامة شاملة، الدنيا بحذافيرها فتنة وبلوى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(٦) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾(٧) ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٤) نور الثقلين ٣٠: ٤٢٩ في مجمع البيان عن أبي عبد الله عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام مرض...
(٥) سورة الأنفال، الآية: ١٧.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٧.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾(١) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾(٢) ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

فلا كرامة في بلوى الخير ولا مهانة في بلوى الشر، اللهم إلا بلوى العقوبات: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا...﴾(٤) وبلوى المثوبات ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾(٥).

وترى الابتلاء بالشر أبلى أو الابتلاء بالخير، حقاً أن الابتلاء بالخير أشد وطأة وإن خُيِّل للبسطاء عكسه، فهنالك كثير من المؤمنين يصمدون في فتنة الشر، وأما فتنة الخير فقلة قليلة تصمد لها، فمن هذا الذي يصمد على قضية الإيمان في جماح القدرة الهائجة والسلطة المائجة إلا السابقون والمقربون ومن ثم أصحاب اليمين؟ حيث الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب، ولكنما الرخاء ترخي الأعصاب وتفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة.

لذلك ترى هؤلاء الذين يجتازون الكثير من عقبات الشر والضر، هم أنفسهم ليسوا ليجتازوا عقبات فتن الخير، فيسقطون في هوَّات الرعونات، ويتساقطون في مجالي الثروات والفرعنات، وكما نراهم طوال التاريخ، أعاذنا الله من تلك الفتن العضال.

وكما نرى الرسول ﷺ يعجب من هؤلاء المؤمنين القلة قائلاً: «عجباً

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.
(٢) سورة الملك، الآية: ٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.
(٤) سورة الفجر، الآيات: ١٥-١٧.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن إصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن إصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[(١)].

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ كما منا تبدأون فـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[(٢)] فقد كنا قبل عالم الاختيار في خِيَرة الله، إذ كنا أجنّة في بطون أمهاتنا، ثم حللنا عالم الاختيار ثم التكليف الاختبار، ومن ثم نرجع إلى ما كنا دون خيرة فيه منا اللهم إلا ما قدمناه لأنفسنا ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[(٣)].

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[(٤)].

رجعة إلى ما بدأ به في هذه السورة من: كيف كان المشركون يستقبلون الرسول وبه يستهزئون؟ وذلك بعد شوط بعيد في سنن الدعوات ومصائر الغابرين ومصارعهم في صراع الحق.

﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ دون أن يحسبوا لك حساباً آخر، كأنك مهزأ لهم وملعب يتخذونك هزواً لأنك أنت، وأنك تذكر آلهتهم بسوء ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ حال أنهم - وهم معترفون بالإله الرحمان - هم بذكر الرحمان هم كافرون، إيماناً واحتراماً بالآلهة الفروع، وكفراً واختراماً بالإله الرحمان»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم بسنده في كتاب الزهد والرقائق.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٣) سورة القصص، الآية: ٦٠.

(٤) سورة الفرقان، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٥) الدر المنثور ٤: ٣١٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: مرّ النبي ﷺ على أبي =

وذكر الرحمن، وجاه ﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ هو الذكر اللائق بالرحمن: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾(١) كفراً بالرحمن، ولكنهم بذكر آلهتهم مؤمنون، وحين تُذكر كما هي فهم مستاؤون ومستهزئون.

و﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ إضافة للمصدر إلى مفعوله هو أن يذكر الرحمن، وهو بتقدير اللام له مصداقان آخران، القرآن ونبي القرآن فإنهما أفضل ذكر للرحمن، ثم وسائر الذكر آفاقية وأنسية حيث تذكِّرنا الرحمن.

و﴿هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ تأكيد في تأنيب، أنهم الذين يستاؤون من ذكر آلهتهم بالحق تزييفاً لأنهم بهم مؤمنون، كيف هم يكفرون بذكر الرحمن وحده وهم به مصدقون: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(٢).

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾:

أترى ما هو العجل المخلوق منه الإنسان، وعلى أيٍّ كان فلماذا يندد به الإنسان وهو من خلق الرحمن؟ فهل أنه مبالغة في مواصفته كأنه مخلوق من عجل؟ والمبالغة فيها شطر من الكذب وكلام الله منه براء! ثم وكيف ينسب الله إلى نفسه ما هو فعل الإنسان!.

أم هو على القلب أن خلق العجل من الإنسان؟ وهو قلب لكلام الله! وتغلّب على ما رسمه الله! إضافة إلى مبالغة كاذبة!.

= سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف فغضب أبو سفيان فقال: ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوّفه وقال: ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك وقال لأبي سفيان: أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية فنزلت هذه الآية.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦١.

﴿عَجَلٍ﴾ هنا هو المعجول به في نشأته إذ ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾(١) معجول به في إنزاله وكما أب الإنسان الأول استعجل حيث خلق من عجل، وهو ترابه وروحه المستعجل في نضوجه(٢)، فالعجل - إذاً - في نشأته وذاته ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾(٣) منذ كان ماءً دافقاً، فهو مستعجل بطلب ما يؤثره واستطراف ما يحذره، والله سبحانه يعطيه ما طلب ويصرف عنه ما رهب على حسب ما يعلمه من المصالح، لا ما يهواه من المطالح.

فالعجل في أصله خيرٌ تحريضاً له على الاستعجال في مسارح الخيرات، كدحاً منه في الطلب، وكبحاً بلجام الصبر في مسارح الوقفة أو الهرب.

فلا مأخذ على الله في خلق الإنسان من عجل وفي عجل تضميناً للنجاح في طلبات الخير، بل هو على الإنسان الكادح غير الكابح في مجالاته الحيوية حيث يدعو بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً.

ومن ذلك العجل الطالح غير الصالح استعجال المكذبين بآيات الله بعذابات الله، ولها أجل مسمى: «ولولا أجل مسمى لقضي بينهم» ومن قبلهم لهم آجال في الحياة الدنيا مستأجلة إمهالاً وإملالاً وهم يستعجلونها!.

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ لوقتها ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ حينها بل وتستأجلونها ولات حين مناص، إذ قد مضى يوم الخلاص.

فالإنسان بطبعه يمد ببصره ويده إلى ما وراء اللحظة الحاضرة استعجالاً

---

(١) سورة الطارق، الآية: ٦.

(٢) المجمع عن أبي عبد الله عليه السلام أن آدم لما خلق وجعلت الروح في أكثر جسده وثب عجلان مبادراً إلى ثمار الجنة وهمّ بالوثوب وفي تفسير القمي لما أجري في آدم الروح من قدميه فبلغت إلى ركبتيه أراد أن يقوم فلم يقدر فقال الله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وفي الدر المنثور عن مجاهد في الآية قال: آدم - حين خلق بعد كل شيء آخر النهار من يوم خلق الخلق فلما أجري الروح في عينيه ولسانه ورأسه ولم يبلغ أسفله قال: يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١١.

لكل آجل وإن كان فيه ضره، إلا أن يتصل برحمة من الله، ويكل أمره إلى الله، ويستسلم في كل عاجل وآجل لله، ابتغاءَ مرضاة الله.

فـ «إياك والعجلة بالأمور قبل أوانها، والتساقط فيها عن إمكانها، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت، فضع كل أمر موضعه، وأوقِع كل عمل موقعه» فـ «مع التثبت يكون السلامة، ومع العجلة يكون الندامة، ومن ابتدأ العمل في غير وقته كان بلوغه في غير حينه».

ثم ومستأجل المستعجَل هو كمستعجِل المستأجَلَ، فليكُن التعجيل والتأجيل كلٌّ لوقته المؤَجَّل.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

وترى ما هي الرباط بين صدق الوعد ومَتاه وهم يرددون هذه القولة أمام الداعية كأنهم بذلك هم الغالبون!.

و﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ قد يعم عاجله وآجله في عاجل الحياة وآجلها، وعلى أية حال فهو وعد مجهول الأمد، معلوم البدد.

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿لَوْ﴾ قد تعني هنا استحالة علمهم بالزمن المحدد للوعد، فالجواب مقدر، لو يعلمون لكان شأنهم غير شأنهم المستهزئ الشائن، أم تعني تمني علمهم عرضاً لحالهم الظاهر من قالِهم، و﴿حِينَ﴾ على الوجهين مفعول «يعلم» فلو يعلمون وقد ناشتهم النار من وجوههم وظهورهم، في هذه المباغتة لوعدهم، حيث تلقفهم النار وهم يلعبون: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾(١).

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٨.

وأنها مباغتة تشل الإرادة وتذهل العقول، فلا هم يكفون عن وجوههم النار أو عن ظهورهم ولا هم ينصرون في ذلك الكف، إذاً فتبهتهم النار التي أحاطت بهم سرادقها ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ بقوة ذاتية أم نصرة ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ تأجيلاً وقد كانوا بها يستعجلون.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾:

تسلية لخاطر الرسول الأقدس ﷺ أن لست بدعاً من الرسل في هزئك ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ثم باغتهم العذاب في الأولى قبل الأخرى ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم﴾ نزولاً وحلولاً ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو العذاب الموعود، وهو نفس استهزاءهم ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1].

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

الكلاءة هي الحفظ للشيء وتبقيته، فمن ذا الذي يحافظ عليكم من الخطرات الناجمة لكم الهاجمة عليكم إلا الرحمن الذي خلقكم، ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ - ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[2] ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[3].

فـ ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم... مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إلا الرحمن وكما يقال: أعوذ بك منك! أمّن يلكؤكم من بأس الرحمن.. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[4] فلا كالئ إلا الرحمن ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٣) سورة هود، الآية: ٥٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٧.

فهم غافلون ألّا كالئ لهم من الرحمن إلا الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]!

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

تلك الآلهة الوالهة، الجاهلة العاجزة الكالحة، إذ لا يستطيعون نصر أنفسهم من بأس الرحمن ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ويجارون، أفهم ﴿تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ وهم «آلهة من دوننا»؟ آلهة من دوننا، تمنعهم من دوننا!.

فحين لا كالئ لهم في الأولى وهي دار الأسباب والبلوى، فكيف - إذاً - بالأخرى وقد تقطعت الأسباب، وحارت دونها الألباب؟.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

إنه ليس لهم حول ولا قوة في منعهم من دون الله ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ متاع الحياة الدنيا وزينتها فأترفوا فيها ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ﴾ في متعهم وأترافهم في كل أطرافهم، فنسوا ذكر الله، وذلك هو الابتلاء البعيد السحيق بالمتعة النعمة، حيث تبدل نَعمة ونقمة، فقد بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس القرار.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ . . .﴾ - ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾[2].

ذلك الإتيان الرباني هو إتيانه بالقوة القاهرة أرض الإنسانية لينقصها من

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٢) سورة الرعد، الآيتان: ٤٠، ٤١.

أطرافها بعد إكمالها بأطرافها، نقصاناً لناسها النسناس[١] وهو من كمالها، أم لناسها الناس كالعلماء الربانيين[٢] وهو من نقصها، وعلى أية الحالين فهو انتقاص من أرض عن ساكنيها قلةً أم ثلة، كما ومن نقصانها الزلازل والبراكين المدمرة المزمجرة لإطراف منها، حيث تعني الأطراف محيطاتها الحائطة بها فهي - إذاً - كلّها، وذلك المثلث من نقصانها تَهَدُّدٌ بمن يتمتعون كما الأنعام ولا يرعوون، فأوسطه للمسلمين الذين لا يسمعون ولا يعون من علمائهم والآخران للمكذبين بآيات الله الذين بدلوا نعمة الله كفراً.

وذلك من مسارح الغلبة الربانية على الذين هم عن ذكر ربهم معرضون ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾؟ كيف، ونحن نرى الأرض طول تاريخها الإنساني تطوى فيها رقعة الدول المتغلبة المتألبة فتنحسر وتتقلص وتتنكَّس، فإذا هي ويلات في دويلات بعدما كانت امبراطوريات كالروماني والإيراني، وإذا هي مغلوبة على أمرها وقد كانت غالبة على آخرين.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

إنذار رسالي ليس إلا بالوحي، دعاءً لمن يسمع الدعاء، فاحذروا أن تكونوا من الصّم الذين لا يسمعون الدعاء فتطوى الأرض تحت أقدامكم، وتقص يد القدرة الربانية أطرافكم، فتصبحون جيفة جيفة بعدما كنتم - كما تزعمون - في حياة ناعمة شريفة.

فلا قصور ولا تقصير في الإنذار بالوحي، وإنما ذلك فيمن يُنذَرون ولا يسمعون ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٣] حيث تنازلوا

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١٩ عن الحسن يقول في الآية : ظهور النبي ﷺ على من قاتله أرضاً أرضاً وقوماً قوماً.

(٢) في المجمع : وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : نقصانها ذهاب عالمها.

(٣) سورة الأنفال، الآية : ٢٢.

عن السمع والعقل إنسانياً، فأصبحوا شر الدواب ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾(١):

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿نَفْحَةٌ﴾ فقط دون زيادة، وهي النفحات الدنيوية بمختلف العذابات مستأصلة ودونها، وهي على أية حال نفحة من العذاب وإصابة اليسير منه القصير، دون نفسه الطويل العسير، يدل واقعه على عظيم متوقَّعه، وشاهده على فظيع غائبه.

وهنالك الويل والاعتراف ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ولاتَ حين مناص،! وقد مضى يوم الخلاص.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

الموازين هي جمع الميزان: ما يوزن به، و﴿ٱلْقِسْطَ﴾ عطف بيان للموازين أم وصف لها، وانما أفردت تأشيراً إلى وحدة الموازين في كونها قسطاً، مهما كان لكلّ حالة وقالة وفعالة ميزان من نوعها هو القسط المعني، منها، كما ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾(٢) حيث الحق هو الوزن، فحق الصلاة وزن لها، كما حق الإيمان أم أياً كان هو حقه المُرام، كتاباً ونبيّاً هما الجناحان المحلِّقان على الحق المُرام الطائران بنا إلى الحق المُرام.

فلذلك يجمع الوزنُ الحقَّ بعده مفرَّعاً عليه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨.

ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم...﴾[١].

ولأن القسط هو فوق العدل فهو أحق الحق، فقد تلمح أن الله يثيب الصالحين أكثر مما عملوا قسطاً، ويعاقب الطالحين أقل مما عملوا للحد الذي لا ينافي العدل.

فالحق القسط هما الموازين وهما متمثلان في كتابات الوحي ورجالاته[٢] ولكلّ جنبات من الميزان، توزن بها الأقوال والأحوال والأعمال ثم لا وزن كما لا ميزان للباطل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[٣] ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾[٤] وكما يروى «الحسنات ثقل الميزان والسيئات خفة الميزان».

فليس - إذاً - الميزان ما له كفتان أم أياً كان من وزن نتعوده فـ«إن الأعمال ليست بأجسام إنما هي صفة ما عملوا..»[٥] فإنما هو القياس للحسنات على الحق والقسط، فعلى قدر تمثلهما فيها يكون الوزن، ثم لا وزن للسيئات[٦]

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٨، ٩.

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٣٠ في معاني الأخبار بإسناده إلى هشام قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية قال: هم الأنبياء والأوصياء.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠٥.

(٤) سورة القارعة، الآيات: ٦-٩.

(٥) البرهان ٣: ٦١ في الاحتجاج عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث له مع سائل يسأله قال: أو ليس توزن الأعمال؟ قال: إن الأعمال.. وإنما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء ولا يعرف ثقلها وخفتها وإن الله لا يخفى عليه شيء قال: فما الميزان؟ قال: العدل، قال: فما معناه في كتابه: فمن ثقلت؟ قال: فمن رجح عمله.

(٦) المصدر في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين عليهما السلام في الوعظ والزهد في الدنيا في =

اللهم إلا قياساً على سيئات لغير من خفت موازينه كأهل الإسلام[(١) (٢)].

ومن قسط الموازين - حيث ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[(٣)]: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ تصويراً لا صغر ما تلحضه العيون، تمثيلاً مثيلاً لأقل الحسنات، وأما السيئات فلا يؤتى بصغائرها لمن ترك كبائرها: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[(٤)] وكذلك الكبائر المعفوة بتوبات، وعلّه كذلك صغائر السيئات لمقترفي الكبائر، فلا تكفيهم كبائرهم بأساً، وذلك قضية الحق القسط لمقترفي السيئات[(٥)].

فلا يفلت عن الوزن ما له وزن ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ حيث الحيطة العلمية والقدرة اللّامحدودة وهو سريع الحساب.

= الآية اعلموا عباد الله أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين ولا تنصب لهم الدواوين وإنما يحشرون إلى جهنم وإنما نصب الموازين ونشر الدواوين لأهل الإسلام فاتقوا الله عباد الله.

(١) الدر المنثور - أخرج جماعة عن عائشة أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: يُحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل، فجعل الرجل يبكي ويهتف فقال رسول الله ﷺ: أما تقرأ كتاب الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا...﴾ [الأنبياء: ٤٧] فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهم شيئاً خيراً من مفارقتهم أشهدك أنهم أحرار.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة يس، الآية: ٥٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٥) البرهان ٣: ٦١ عن الطبرسي في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث له مع زنديق في جواب مسائله قال عليه السلام: وأما قوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] فهو ميزان العدل يؤخذ به الخلائق يوم القيامة يدين الله تعالى بعضهم من بعض ويجزيهم بأعمالهم ويقتص للمظلوم من الظالم ومعنى قوله: فمن ثقلت موازينه ومن خفت موازينه فهو قلة الحساب وكثرته والناس يومئذٍ على طبقات ومنازل فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً، ومنهم من يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم لم يتلبسوا من الدنيا بشيء وإنما الحساب هناك على من تلبس منها هاهنا ومن يحاسب على=

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ
مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ
وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا
عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ
﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن
فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ
يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ
﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ
كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا

= النقير والقطمير ويصير إلى عذاب السعير أئمة الكفر وقادة الضلال فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يعبأ بهم لأنهم لم يعبؤوا بأمره ونهيه يوم القيامة فهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها طالحون.

يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

سرد لقصص من بعض المرسلين وما لا قوة وذاقوه من بأس المكذبين، وما نصرهم الله عليهم والعاقبة للمتقين، تسلية لخاطر الرسول الأقدس تأسياً بسنن المرسلين.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو آية الرسالة الحقة المعبَّر عنه هنا في التوراة بـ ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1] فليست

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٣.

التوراة بنفسها آية وفرقاناً بين حق الدعوى وباطلها، وإنما هو القرآن الذي هو بنفسه فرقان وضياءٌ وذكر للمتقين، ولذلك يعقبها كلها بـ ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾، ففرقان موسى هو ثعبان العصا واليد البيضاء وأضرابهما من آيات الله الكبرى، وفرقان محمد ﷺ هو القرآن: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[1] - ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[2].

ثم ﴿وَضِيَاءً وَذِكْرًا﴾ يتمثلان في التوراة ورسول التوراة، فليسا هما الضياء والذكر ككل، وإنما ﴿وَضِيَاءً وَذِكْرًا﴾ ولكنما القرآن الفرقان هو الضياء والذكر ككل ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾[3] كما هو الفرقان ككلٍّ.

و﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ...﴾ مواصفتان للمتقين المستضيئين بضياء والمتذكرين بذكر، ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ وهو ﴿بِالْغَيْبِ﴾ و﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ وهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ عن المشاهد» أم ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ بالغيب في قرارة أنفسهم، أم بسبب الغيب وهو الآخرة التي هم منها مشفقون، محتملات أربع تحتملها كلها ﴿بِالْغَيْبِ﴾ باختلاف الجار والمجرور صدقاً ومصداقاً[4].

﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ﴾ القيامة ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خوفاً تشوبه الهيبة والعظمة.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾:

﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ يحمل كل فرقان وضياء وذكر دون إبقاء، فالبركة هي الرحمة الواسعة المباركة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ بعد كتابات السماء وآياتها كلها، وهي

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٣، ٤.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٠.

(٤) فالياء على الثلاثة الأول بين ظرفية وسببية، وعلى الأخيرة سببية، والغيب على الترتيب غيب الله - غيبهم عن الناس - غيبهم في أنفسهم - غيب الآخرة.

تشملها وزيادة قضيةَ الخلود ﴿أَفَأَنتُمْ﴾ المألوفون بمرور الضياء وكرور الذكر والفرقان ﴿لَهُۥ﴾ الشامل لها كلها ﴿مُنكِرُونَ﴾ فبأحرى أن تنكروها إذا «أنتم لَهُ مُنْكِرُونَ».

فنكران القرآن الفرقان نكران لكل فرقان لأي نبي كان، ولا مجال لنكرانه لكتابي حيث الألفة بوحي الكتاب تلزمه على الإيمان به ولا سواه، فإنه آية بيّنة إلّهية تدل على وجود الله لناكريه، وعلى وحدته لمشركيه، وعلى وحيه الرسالي القمة للمترددين فيه، فهو الفرقان الضياء الذكر المبارك الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾:

﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا قد يعني - فقط - من قبل موسى وهارون، ولكنه إيضاح للواضح حيث القبلية الزمنية لإبراهيم واضحة لدى الكل!.

فقد تعني - فيما عنت - القبلية الرتبية وأوليتها بالنسبة لموسى مهما شملت الزمنية، وكما عبر عن الرسول ﷺ بأول العابدين فقد أوجس ﴿فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[2] ولم يوجس إبراهيم حين وضع في المنجنيق[3] وابتلي بابتلاءات لم يبتلَ بها موسى، وهذه من قبليته الرتبية على موسى.

أم وقبلية في حياته، أن رشده في الدعاية الصامدة التوحيدية كان قبل إمامته ورسالته، حيث كان في حضانة آزر وهو بعدُ طفل، لم يبلغ مبلغ

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٢) سورة طه، الآية: ٦٧.

(٣) بحار الأنوار ١٢ : ٣٥ عن إسماعيل بن الفضل الهاشمي قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن موسى بن عمران عليه السلام لما رأى حبالهم وعصيهم كيف أوجس في نفسه خيفة ولم يوجسها إبراهيم عليه السلام حين وضع في المنجنيق وقذف به في النار؟ فقال: إن إبراهيم عليه السلام حين وضع في المنجنيق كان مستنداً إلى ما في صلبه من أنوار حجج الله عزّ وجلّ ولم يكن موسى عليه السلام كذلك فلهذا أوجس في نفسه خيفة موسى ولم يوجسها إبراهيم.

الرجال ولا الشباب، فقد بزغت دعوته هذه منذ بزغت حياته العقلية الطفولية، وذلك الرشد هو من عطيات الله.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ولم تكن عطية مجانية فوضى، بل ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أنه يوفّي ويكفّي أمانة الله.

إذاً فليس رشده المؤتى من لدنا ﴿مِن قَبْلُ﴾ فوضى جزاف، بل إنه حلّ محلّه اللائق اللابق، وذلك هو الرشد الرشيد لمن يبتعثه الله رسولاً إلى خلقه، إنه يصنعه بعينه ورعايته، ما يعبِّد طريقه إلى الرسالة، منذ أصلاب الآباء وأرحام الأمهات حتى الولادة والطفولة والغلمة البالغة والكهولة والشيخوخة، فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً، ولكي يؤهَّل لحمل الأمانة الكبرى، متعباً نفسه فيها.

وهذه الآية بما بعدها حلقة رسالية شاخصة في ميادينها تحلّق على تاريخها مُقَسَّمةً إلى مشاهد متتابعة بينها فجوات، بادئة بسابق الرشد لإبراهيم في ذلك المسرح الصريح الجريء ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ وباستعداده لحمل الأمانة الكبرى التي حملها المرسلون، وهو صاحب الراية في الطليعة:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

وإن بين قالِه لأبيه آزر وقالِه لقومه ردحٌ من الزمن، إذ قال لأبيه وهو تحت حضانته وكفالته ولما يبلغ مبلغ الرجال والشباب ليخوض خِضَمَّ المجتمع حتى يكون له قوم، مهما كان القال نفس القال، لوحدة المجال، وداء الشرك العضال.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾[١] -

(١) سورة مريم، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١). والتماثيل هي الأشباه، إذ كانوا يعملون الصور المجسمة الشبيهة بذوات الأرواح، وهي أشباح بلا أرواح، وكيف يعكف ذوو الأرواح لما يصنعونه من غير ذوات الأرواح، وهم لئن يُعبدوا لها أحرى من أن يَعبدوها، لأنهم أولاء صانعوها.

وفي إنجيل القديس برنابا الحواري حوار بين إبراهيم وأبيه آزر نذكر منه هنا مقتطفات(٢).

و﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ استجواب فيه تزييف آلهتهم التماثيل، أجساداً بلا أرواح يعكف لها ذوو الأرواح؟!.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

قالوه عذراً لعكوفهم القاحل الجاهل على هذه التماثيل كسنّة قومية محترمة بين الأقوام، وذلك تحجّر عقلاني داخل القوالب التقليدية الميتة، وتنازل عن العقلية الإنسانية بل والحيوانية، التي لا ترضى تذللاً أمام الأذل الأرذل، المصنوع للعابد نفسه وأضرابه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.

(٢) الفصل ٢٦: ٢٥ «كان إبراهيم ابن سبع سنين لما ابتدأ أن يطلب الله فقال يوماً لأبيه: يا أبتاه من صنع الإنسان.. (٤٦): أي شيء تشبه الآلهة (٤٧)؟ أجاب يا غبي إني كل يوم أصنع إلهاً أبيعه لآخرين لأشتري خبزاً وأنت لا تعلم كيف تكون الآلهة (٤٨) وكان في تلك الدقيقة يصنع تمثالاً (٤٩) فقال: هذا من خشب النخل وذلك من الزيتون وذلك التمثال الصغير من العاج (٥٠) انظر ما أجمله ألا يظهر كأنه حي (٥١) حقاً لا يعوزه إلا النفس (٥٢) أجاب إبراهيم: إذاً يا أبي ليس للآلهة نفس فكيف يهبون الأنفاس؟ (٥٣) ولما لم تكن لهم حياة فكيف يعطون إذاً الحياة؟ (٥٤) فمن المؤكد يا أبي أن هؤلاء ليسوا هم الله.. (٥٧) إن كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان فكيف يتأتى للإنسان أن يصنع آلهة؟ (٥٨) وإذا كانت الآلهة مصنوعة من خشب فإن إحراق الخشب خطيئة كبرى (٥٩) ولكن قل لي يا أبت كيف وأنت قد صنعت آلهة هذا عديدها لم تساعدك الآلهة لتصنع أولاداً كثيرين فتصير أقوى رجل في العالم...؟».

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾:

فالضلال المبين، الذي يبين أنه ضلال إنه ليس ليُتبع مهما كان سنّة الآباء، وليست عبادة الآباء لأنهم آباء بالتي تكسب هذه التماثيل قداسة وقيمة، حيث القيم تنبع من الواقع المتحرر الطليق، سواء عرفها الآباء أم جهلوها، وليست مفتعلة تصبح سنناً متّبعة مهما تواترت بين الآباء.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

ومجرد استفهامهم هذا دليل تجردهم عن الحق، وعن أي برهان لما هم عليه، فإنه سؤال المزعزع العقيدة، حيث لا يطمئن إلى ما هو عليه، تيه يتخبط فيه من لا يدينون دين الحق، انحساراً وتخلفاً عن حكم الفطرة، وانحصاراً بالأحكام التقليدية القالحة الجاهلة.

﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ الناصع كما تدعيه ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ بعقائدنا، تبديلاً لها إلى أخرى من أضرابها، أم من اللاعبين بالحق حيث تظهر الباطل بمظهر الحق.

وقد يُعنى من الحق فيما يُعنى «الجد» بقرينة اللاعبين، هل أنت مجد فيما تقول أم لاعب، حيث الجد خلاف الآلهة بعيد عمن يعيش جوّ الإشراك.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

بل جئت بالحق ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ لا هذه التماثيل التي أنتم خلقتموهن، وقد فطر الله الخلق كله بفطرة التوحيد، ومنه الإنسان المفطور على ذلك ﴿وَأَنَا۠﴾ المفطور على ما فطرهن ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ الحق الناصع ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ والسماوات والأرض هي كلها بمن فيهما وما

فيهما ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ شهادة فطرية وعقلية وكونية أما هيه، ولا تملك أية حقيقة هكذا شهود في كمها وكيفها، ما يملكه التوحيد من شهود، حيث الكون كله شهوده دون إبقاء، إلا من تنازل عن فطرته وعقليته.

وعلّ ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ جمعاً دون فطرهما، لكي تشمل معهما هذه التماثيل، فهو - إذاً - رب للعابدين والمعبودين سواه، فكيف يُعبدون سواه؟.

فلست أنا - فقط - الذي جاء بالحق في التوحيد، بل الكون كله، ولست أقوله دون إيمان كالذين ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[1] بل أشهد به كما يشهد الشاهدون، فلست أنا من اللاعبين، بل جئتكم بحق مبين.

هذه شهادة إبراهيمية على التوحيد وأنه الحق الجدّ، وبالتالي يثنّيها بالواقع الذي توعَّده.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

موقف جريء ما أجرأه وأجراه على يديه، أمام تلك الحشود المحتشدة المشركة، تاركاً ما اعتزمه من كيد الأصنام، الأكيد، مبهماً دون إفصاح، مما يضخِّم أبعاد الوعيد، وكأنهم نظروا إلى وحدته دون ناصر فوهدته لو اعتزم، فلم يأخذوا وعيده بعين الاعتبار، سناداً إلى قوتهم وضعفه، لذلك لم يرجعوا له جواباً، فلو كان لبان حيث الموقف موقف البيان.

كيد مؤكد لأصنامكم ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ كما ولّوا وتركوه، تهويناً لكيده المعتزم وتوهيناً لحقه المخترم وقبولاً لعذره الكائد المكتتم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾[2]:

فلمّا هموا بالذهاب إلى عيدٍ لهم، طلبوا إليه أن يرافقهم فأبى عن

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ٨٨-٩٠.

الانسلاك في سلكهم بعذره العاذر: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ دونما سقم ظاهر، إلا سقم النفس واضطراب الحال وكسوف البال، حيث كان يتقطع حزناً على إشراكهم، ويتميز غيظاً لأنهم لم يلبوا نداءه، وقد عقد عزمه أن يهدم صرح آلهتهم التي ألهتهم ويقوّض عرشهم، لما رأى الحجة القولية لا تنفع فأراد أن يشرك أبصارهم ببصائرهم، وحواسهم مع أفئدتهم علّهم إلى رشدهم يثوبون وعن غيِّهم يتوبون:

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

خلى الجو من رصد العيون، فدلف إلى أصنامهم فوجد باحة قد اكتظت بالتماثيل وانتشرت في أرجائها الأصنام فخاطبها محتقراً لشأنها «ألا تأكلون! ما لكم لا تنطقون» وأنّى للحجارة أن تأكل أو تنطق، فأخذ يلطمها بيده ويركلها برجله وتناول فأساً وهوى عليها يكسرها ويحطمها حتى جعلها جذاذاً إلا كبيراً لها في أجسادها، ليجعلها جذاذاً في قلوب عابديها بذلك الواقع، بعد أن جعلها جذاذاً من ذي قبل بـ ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ جذاذات ثلاث تجتث جذور الخرافة الشركية لو كانوا يعقلون.

فلقد كاد أصنامهم بـ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ حتى خلى الجو لما اعتزم، ثم جعلهم جذاذاً: قطعاً مكسورة مفتّتة مهشّمة ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ يرأسهم كأنه إله الآلهة ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ حيث الموقف يتطلب رجوعاً إلى كبيرهم كمتَّهم في جعلهم جذاذ فيسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة، أم هو الذي جعلهم جذاذاً ليبقى في الميدان وحده كما هو قضية الحال في تعدد الآلهة لو كانوا يشعرون:

«ولعلى بعضهم على بعض»! ثم رجوعاً إلى إبراهيم الذي تركوه لحاله وهو المتهم الثاني إذ لا حول ولا قوة لكبيرهم، ومن ثم رجوعاً إلى الله بعد انتباهة هنا وهناك، وضمير المفرد الغائب في ﴿إِلَيْهِ﴾ يتحمل الرجوع إلى كلٍّ

من الثلاثة على الأبدال، حيث الكل من بنود الرجاء لإبراهيم وقد حصل على الأولين تماماً، وعلى الأخير بعضاً حيث زلزل أركان تقاليدهم العمياء.

وبالفعل رجعوا إلى المعبد، وبدل أن يرجعوا إلى أنفسهم أن الآلهة لا تُغلب، إذاً فما هي بآلهة، حيث الخرافة قد عطلت أنفسهم عن إنسانية التفكير، وبدل أن يرجعوا إلى كبيرهم ثم إلى إبراهيم فإلى الله، فإذا هم يتساءلون فيما بينهم حائرين.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾:

حكماً على من فعل هذا أياً كان ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بلا أي عذر ولا عاذر، حيث التغلب هكذا على الآلهة، وكسرها عن آخرها إلا.. أن ذلك هو الظلم العظيم والضيم الحطيم فلنفتش عن الظالم أياً كان أهو كبيرهم أم هو إبراهيم؟

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾:

وهنا ﴿سَمِعْنَا﴾ دون: رأيناه أو سمعناه و﴿فَتًى﴾ دون رجلاً، ثم ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ دون إبراهيم، هي توهينات ثلاث لكاسر الأصنام، تجهيلاً لأمره وتصغيراً لشأنه وتعريضاً به أنه ﴿فَتًى﴾ شاب وهذه الجرأة الظالمة هي من فعل الشباب، مجهولاً لا يعرف ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ كأنه اسمه المستعار، أو أن معرفة اسمه عار، أم أنه في الأصل مجهول الاسم والرسم ليس له أي مقدار حتى يعرف بيننا باسم أو رسم، فإنه مجهول حيثما دار.

وهي هي دأبة دائبة عائبة لمن يراد توهينه وتهوينه مهما كان فعله عظيماً، إشعاراً بأنه في نفسه صغير صغير، مهما ارتكب الكبير الكبير.

﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بسوء، وأنه سوف يكيدهم فقد كادهم بالفعل، و﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ رفعا فاعل ﴿يُقَالُ﴾.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾:

فلقد تقاطرت الوفود، وتكاثرت الجموع إلى أجساد الآلهة وأجداثها، كلٌّ يرغب في القصاص من إبراهيم، فجاؤوا به وسط الجمع الزاخر بالقمع القاهر، وأخذوا يحاكمونه استجواباً عن الطامّة الواقعة، أمام الجماعة المتغيِّظة التي تحرق الإرمَّ حنقاً وغيظاً.

﴿فَأْتُواْ بِهِۦ﴾ إتياناً جاهراً ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ حيث يعاينونه في نفس المشهد وقبل أن تتفرقوا ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ يشهدونه من هو هذا الجريء، ويشهدون عليه أنه الفتى الذي كان يذكرهم، فـ ﴿يَشْهَدُونَ﴾ إقراره على فعلته، ثم ﴿يَشْهَدُونَ﴾ نكاله بفعاله، كي لا يطمع طامعٌ بعدُ في فعلته، اجتثاثاً لجذور هذه الضغينة الشكيمة بالآلهة، ولكي يرتاح عابدوها بما يشهدون من نقمته.

شهادات أربع علّها معنية كلها حيث يتحملها اللفظ والمعنى، فإن ﴿يَشْهَدُونَ﴾ الأجرد عن متعلقات، تعم كافة المتعلقات من شهادة نفسه وإقراره وعذابه والشهادة عليه أنه هو لا سواه.

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾:

استفهام استنكار للأخذ بالإقرار حتى يشهدوا إقراره، ليكون في عزمهم على تحريقه إعذارُهم، و«آلهتنا» دون «الآلهة» كاعتراف منهم أنه كان ينكرهم.

وإبراهيم الذي اصطنع ذلك الجو الحاشد، والمسرح السائد، تراه ماذا عليه في الإجابة عن ذلك السؤال العضال، حتى يحقق مأموله؟.

فهل يصارح بالواقع كما وقع: «أنا فعلت» وفي ذلك تهديم لصرح الحجاج، وتعجيل منهم لكل عقوبة ولجاج، فيصبح ما صنعه باطلاً يرجع إلى بوار، فلا حجة تحصل، ولا الرسول يبقى بل يُنكل، حتى إن بقي فما

فائدة بُقية في حياة الرسول دون تحقيق لحجته، بل والناكرون للتوحيد يزدادون لجاجاً حين يرون آلهتهم جذاذاً دونما حجة، تجعلها جذاذاً بها بعد جذاذها في أجسادها!.

أم يقول كذباً ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ باتاً في قوله، والكذب فشل وخلل في الرسالة، وسوء سابقة للرسول، فلا يُعتمد على أقواله وإن كان الكذب مصلحياً، ولماذا يكذب والحق يملك كل حجج الصدق دونما حاجة إلى أي كذب! والرواية القائلة أنه كذب مطروحة أو مؤوّلة، لمخالفتها الآية ومسها من ساحة الرسالة الصادقة(١).

عليه في ذلك المَسْرح المَصْرع أن يأخذ أمراً بين أمرين تكون فيه نبهتم بحجة قارعة قاصعة في عاجله، قبل أن يعزموا عليه نقمة لآجله، وقد فعل فنسب الفعل في ظاهر الحال إلى كبيرهم لكي لا يهجموا عليه دون إمهال ولا مجال، ثم جعل هذه النسبة في شرطية مشتملة على حجتين:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

ليٌّ في الصدق ما أحراه بساحة الرسالة الصادقة، حجة تجعلهم في لُجة، ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا . . . إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ - ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ فقد «والله ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم، إنما قال

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٢١ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: لم يكذب إبراهيم في شيء قط إلا في ثلاث كلهن في الله: قوله: إني سقيم ولم يكن سقيماً، وقوله: لسارة أختي وقوله: بل فعله كبيرهم هذا وفيه عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: يأتي الناس إبراهيم فيقولون له: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات فقال النبي ﷺ ما منها كذبة إلا حل بها عن دين الله، قوله: إني سقيم بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة إنها أختي.

أقول: لقد صدق في: إني سقيم كما بيناه في آيته، حيث سقم روحه في ضلالهم، ثم في الحديث الثاني تضاد، فإن لم يصلح إبراهيم للشفاعة لأنه كذب، فهو كذب غير معذور، وإن كان معذوراً في كذبه فتركه للشفاعة غير مشكور!.

فعله كبيرهم هذا إن نطق وإن لم ينطق فلم يفعل كبيرهم هذا شيئاً»[(١)].

وهذه طبيعة الحال في الآلهة الناطقة الحية أن كبيرهم يصرع شركاءه ليتوحد هو بالألوهية: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[(٢)].

ثم ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ فهم أحرى أن يُسألوا من فعل بهم هذا، إذاً ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ ولا تسألوني أنا، شرطية صادقة باهرة تحمل حججاً قاهرة: فاسألوهم هل قتلهم كبيرهم أم سواه، ولا بد لهم من إجابة ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ فإذ لا ينطقون فما هم بآلهة، ولو نطقوا فليس إلّا كبيرهم فعله قضية التغالب في آلهة عدة، دون عبيد كأمثال إبراهيم.

فعدم نطقهم، وجعلهم جذاذاً بفعل إبراهيم، هما برهانان اثنان أنهم أضعف من أحد من العباد فكيف يعبدهم العباد.

فلقد فسحت هذه الشرطية المجملة الجميلة تلك المجالات الفاسحة لاحتجاج إبراهيم على من حضر من عبدة الأصنام، ولا شك أن اجتماع القوم في صعيد واحد كان أمنية إبراهيم التي طالما جاشت نفسه بها وتوخاها ليقيم عليهم الحجة جميعاً.

ويا له من تهكم ساخر يهزئهم هزءاً ويهزّهم هزّاً، حيث يحمل برهاناً صارخاً في الحشد أنها ليست بآلهة إذ لا تنطق ولا تحافظ على أنفسها، فضلاً عن أن تنطق بصالح عبادها، والحفاظ على مصالحهم.

وهنا نرى تلك الأنفس الفالتة عن عقولها، المتخبطة في كل حقولها، ترجع إلى أنفسها عند الجواب الحاسم القاصم:

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٣١ عن تفسير القمي في الآية: فقال الصادق عليه السلام: والله....
فقيل: كيف ذلك؟ فقال: إنما قال... أقول: إن كانوا راجع إلى كلتا الجملتين: فعله فاسألوهم..

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

بادرة خير في أنفسهم الخاوية أن يحكموا بظلمهم أنفسهم دون إبراهيم، حيث ﴿أَنتُمُ﴾ تحصر ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فيهم، تبرئة لساحة إبراهيم عن الظلم فيما فعل، بل هو العادل فيما فعل حيث رجّعنا إلى أنفسنا وأشعرنا بظلمنا أنفسنا.

فاتحة فيها بارقة الأمل كما تفأّل: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ تفتحاً لبصائرهم لأوّل مرة في حياتهم المشركة، وتدبراً في ذلك السخف الذي كانوا عنه صادرون، والظلم الذي كانوا هم فيه سادرون، وقد قالوا من قبل ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فما مضى إلّا آونات حتى حكموا على أنفسهم: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وما أحلاها كلمة حق على لسان المبطل بحجة رسالية وامضة كهذه، تجعل حجتهم داحضة وتراهم ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ كل للآخر؟ والكل غرقى في لجة الحجة! ولم يكونوا ليصارحوا بهذه النكسة أمام إبراهيم! أم كلٌّ لنفسه في نفسه؟ وهذه قضية الموقف، و﴿أَنفُسِهِمْ﴾ دون «بعضهم إلى بعض» كما ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾[1] دون «على أنفسهم».

وقد تعني ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ هنا ما عنته ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[2] رجوعاً لكلٍّ إلى نفسه، ثم إلى الآخرين دون مصارحة تُعرف، في لمحات وإشارات فيما بينهم، ولكن إبراهيم وهو شيخ العارفين عرف رجوعهم إلى ذات أنفسهم فضلاً عن إشاراتهم لمن سواهم، ومن ثم أدركتهم الحيرة وعقد الحصر ألسنتهم فأطرقوا برؤوسهم منكرين واستجمعوا شارد عقولهم:

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

ويا لها من نكسة على الرؤوس بعد رجعة إلى النفوس، ثم قالة صارخة

(١) سورة القلم، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٤.

بتأكيد الخطاب ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ ارتكاسة مثلثة الزوايا بحجة واحدة في المسرح كان فيها مصرعهم لو ظلوا منتبهين، وهذا وصف ما لحقهم من الخضوع والاستكانة والإطراق عند لزوم الحجة وقد شُبِّهوا بالمتردي على رأسه، تدويخاً بنصوع البيان، وإبلاساً عند وضوح البرهان.

وهنا ينتهض الداعية الواعية بكلمتين كالمتين كحجة أخيرة فيها كل تأنيب على ضلالتهم:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1] فعبادة الإله، إما هي لاستجراء نفع وليست هي نافعة لأنفسها فضلاً عن عابديها، أم لاستدفاع ضر، وليس هي ضارة، بل متضررة كما جُعِلت جذاذاً، أم لكمال ذاتي وإن لم تنفع أو تضر، وهي ميتة لا تشعر، أم وحتى لو كانت تشعر فكيف تُعبد وهي لا تنفع ولا تضر، ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ تضجراً وتبرّماً لصنيعكم، ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقد ضعف الطالب والمطلوب، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

وإنها قالة في حالة تقتضيها قضاءً حاسماً، استعجاباً من السخف الذي يتجاوز كل مألوف ويتجاهل كل معروف، فضربة صارمة قاضية علّهم يفيقون، أم يفعلون كما يشتهون.

هنالك احترقوا بما فعل، فأخذتهم العزة بالإثم، تجاهلاً عما قالوه، وتغافلاً عما فعلوه فـ :

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٩٥، ٩٦.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾[1] تحريقاً عريقاً كما أحرق أكبادهم حيث جعل آلهتهم جذاذاً كوناً وكياناً، وجعلهم جذاذاً فيما كانوا يعتقدون، فلم يجدوا بداً إلا أن يؤمنوا وهم لا يؤمنون، أو يعكسوا أمر الحرق عليه وقد فعلوا زعم أنهم قاهرون.

ويا لها من آلهة كالحة ينصرها عبادها بعد جذاذها! وذلك التحريق هو في الحق تحريق لأجداث الآلهة بعد جذاذها، أن لا حول لها ولا قوة، حيث هي بحاجة إلى نصرة عبّادها، وليسوا لينصروها ولو أحرقوا إبراهيم!.

﴿قَالُوا﴾ وافتعلوا ما بمكانتهم من بنيان الجحيم، فلما ألقوه في الجحيم أصبحت جنة بِقالَة تكوينية:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾:

وهنا يطوي السياق الحال بين القالين، مما يلمح أن لم يكن لإبراهيم مقال آخر معهم، ولا مقالٌ مع آخر، وإنما هي الحال والله يرى الحال على أية حال.

في هذه الحالة المُحرِجة يروي النبي ﷺ عن جبرئيل عليه السلام قال: لما أخذ نمرود إبراهيم ليلقيه في النار قلت: يا رب عبدك وخليلك ليس في أرضك أحد يعبدك غيره، قال الله تعالى: هو عبدي آخذه إذا شئت، ولما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار تلقاه جبرئيل عليه السلام في الهواء وهو يهوي إلى النار فقال: يا إبراهيم لك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، وقال: يا الله يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد نجني من النار برحمتك، فأوحى الله تعالى إلى النار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم[2].

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٩٧.

(٢) بحار الأنوار ١٢: ٣٩ بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اختبرني أبي عن جدي عن النبي ﷺ عن جبرئيل قال:... وفيه (٣٥) عن الرضا عليه السلام قال: إن إبراهيم لما وضع =

أجل «أما إليك فلا وأما إلى رب العالمين فنعم»[١].

﴿قُلْنَا﴾ هنا وفي أضرابها من الأمور التكوينية هي الإرادة القاطعة الإلهية، فالذي قال للنار كوني حرقاً وإيلاماً، هو القائل هنا ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ والنار هي النار، وقد تلمح له ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ﴾ إذاً فلم تبرد النار حتى تتحول عن ماهية النار، بل بقيت ناراً حارة إلّا على إبراهيم، ولو لم يقل «سلاماً» بعد «برداً» لأثلجت إبراهيم ببردها، ولكنها البرد السلام فأصبح إبراهيم كأنه في روضة خضراء معتدلة الهواء، اصطيافية الفضاء[٢].

فما يروى أنه «ما انتفع أحد بها ثلاثة أيام وما سخنت ماؤهم»[٣] كأنه

= في كفة المنجنيق غضب جبرئيل عليه السلام فأوحى الله عزّ وجلّ: ما يغضبك يا جبرئيل! قال: يا ربّ خليلك ليس من يعبدك على وجه الأرض غيره سلطت عليه عدوّك وعدوه فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: اسكت إنما يعجل العبد الذي يخاف الفوت مثلك، فأما أنا فإنه عبدي آخذه إذا شئت قال: فطابت نفس جبرئيل فالتفت إلى إبراهيم عليه السلام فقال: هل لك حاجة، فقال: أما إليك فلا، فأهبط الله عزّ وجلّ عندها خاتماً فيه ستة أحرف «لا إله إلا الله - محمد رسول الله - لا حول ولا قوة إلا بالله - فوضت أمري إلى الله - أسندت ظهري إلى الله - حسبي الله» فأوحى الله جل جلاله إليه أن تختم بهذا الخاتم فإني أجعل النار عليك برداً وسلاماً.

أقول وليس هذا إلا خاتماً بيد خاتم حيث إبراهيم عليه السلام أصبح تجسيداً لهذه الكلمات.

(١) وفيه عن تفسير القمي مثله إلا فيما نقلناه وقبله: هو عبدي آخذه إذا شئت فإن دعاني أجبته فدعى إبراهيم بسورة الإخلاص: يا الله يا واحد يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد نجني من النار برحمتك.

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٣٦ عن كمال الدين وتمام النعمة عن مفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: أتدري ما كان قميص يوسف عليه السلام: قال: قلت: لا، قال: إن إبراهيم عليه السلام لما أوقدت له النار نزل إليه جبرئيل بالقميص وألبسه إياه فلم يضر معه حر ولا برد وفيه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن نمرود الجبار لما ألقى إبراهيم في النار نزل إليه جبرئيل بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فألبسه القميص وأقعده في الطنفسة وقعد معه يحدثه.

(٣) في الدّر المنثور عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن إبراهيم حين ألقي في النار لم تكن في الأرض دابة لا تطفئ عنه النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتله!.

وفي بحار الأنوار ١٢: ٣٨ بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰنَارُ =

هَباءً وهُراءً، حيث النار الإبراهيمية كانت تحرق غيره فضلاً عن كل نار سواها، ولو بردت النيران كلها لتواترت فوق كل ما حدث في تاريخ الإنسان! ثم لم يكن إذاً في برد النار على إبراهيم آية معجزة لو أن النيران بردت كلها، بما في ذلك البرد الشامل من ضرٍّ على سكنة الأرض دونما فائدة لهذه الآية الخارقة إلّا بائدة تقضي على كونها آية قضية الشركة بينها وبين سائر النار.

هذه آية إلهية إبراهيمية دون شك، لا تتحمل أي تأويل يجعلها خارجة عن خارقة، مثل أن تخلّي إبراهيم عن كل ما سوى الله حتى عن نفسه جعله لا يشعر بحرق النار، حيث أحرقته ولم يشعر أو لم تحرقه قضية الانقطاع عن حياة البدن؟.

ولكنها حالة إبراهيمية تقتضي البرد والسلام، لا القالة الربانية، وهي على أية حال لا تقتضي البرد مهما اقتضت زوال الحرّ، فإن قصارى هذه الحالة ألّا يتأثر بحر النار، لا أن تُبدَّل برداً وسلاماً!.

وكالقول إن في ذلك تضاداً في النار لحالة واحدة، إنها محرقة كل محترق سوى إبراهيم، وكما أحرقت وثاقه الملقى به في النار ولم تحرق نفسه[1].

= ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ما انتفع أحد بها ثلاثة أيام وما سخنت ماؤهم ورواه مثله عن أبي جعفر الباقر عليه السلام وفيه: لم يعمل يومئذٍ نار على وجه الأرض ولا انتفع بها أحد ثلاثة أيام...

أقول: ويقابلها المروي فيه عن الرضا عليه السلام قال: لما رمي إبراهيم في النار دعا الله بحقنا فجعل الله النار عليه ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ والمروي عن الباقر عليه السلام في حديث (٤٠) فنزل جبرئيل يحدثه وسط النار قال نمرود: من اتخذ إلهاً فليتخذ مثل إله إبراهيم فقال عظيم من عظمائهم: إني عزمت على النيران ألّا تحرقه قال: فخرجت عنق من النار فأحرقته...

(١) الدر المنثور ٤: ٣٢٢ - أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن كعب قال: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه وفي نور الثقلين ٣: ٤٣٩ - القمي عن الصادق عليه السلام في حديث النار فإذا هم بإبراهيم مطلقاً من وثاقه...

وليس في نسبية الإحراق تضاد التناقض حتى يكون من المحال، وما سواه ممكن بجنب القدرة الإلهية على أية حال، كما الزمهرير في النار والنار معه لا يتناحران.

أو أنه ألبس قميصاً من صنيع الله هو ضد الحرارة[1] ولا بأس به حيث الخارقة الإلهية لا تخرق ضوابط العلية والمعلولية، وإنما تقفزها قفزة لا يستطيعها إلا الله، ولكن القميص ضد الحرارة لا يمنع المواضع الخارجة عنه، فعلى أية حال كُوِّنت النار على إبراهيم برداً وسلاماً بما أراد الله بقميص وغير قميص!.

﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[2].

هم ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا﴾ ليحرقوه إحراقاً لدعوته، وإجثاثاً لدعايته ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ إحراقاً لأكبادهم في ذلك المسرح الصارخ حيث يسمعه كل العالمين.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾:

لقد ضرب السياق عن مصير إبراهيم بعد البرد السلام صفحاً، وقضيةُ الحال أن الطاغية لم يسطع أن ينكل به بعد حيث أُرغم في أشد نكاله به، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ هنا إجمال عن نجاته من يد الطاغية «نجيناه» من بابل نمرود

---

(١) بحار الأنوار ١٢ : ٤٠ تفسير الإمام ١١٥ قال الإمام قال النبي ﷺ في احتجاجه على اليهود بمحمد وآله الطيبين: نجّى الله تعالى نوحاً من الكرب العظيم، وبرّد الله النار على إبراهيم وجعلها عليه برداً وسلاماً ومكنه في جوف النار على سرير وفراش وثير لم ير ذلك الطاغية مثله لأحد من ملوك الأرض وأنبت من حواليه من الأشجار الخضرة النضرة النزهة وغمر ما حوله من أنواع النور بما لا يوجد إلا في فصول أربعة من السنة.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٩٨.

﴿وَلُوطًا﴾ من سدوم وهي ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[١] نجيناهما ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ وهي القدس الشريف أو الفلسطين ككل وهي الشام في إطلاقها العام، الشاملة للأردن ولسوريا ولبنان.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

هذه الوهبة المباركة بجمعية الصفات، اللامحة لمجموعة من الرحمات، هي ﴿نَافِلَةً﴾: زائدة على سائر هباته الموهوبة، هبة منفصلة بعد متصلة، هي استمرارية للكيان الإبراهيمي على طول خط الرسالة العظيمة الإسرائيلية التي تضم ألوفاً مؤلفة من النبيين والمرسلين.

وقد تعني ﴿نَافِلَةً﴾ - فيما عنت - نسبة إلى «إسماعيل» فإنه أوّل وهبة زمنياً ورتبياً: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ... وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾[٢].

إذاً ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ تحقيق لسؤله في سؤاله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٣] وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن في ذريتهم من رسل وأئمة ونبيين، فهذه الهبة تحلِّق على كافة الرسالات والقيادات المعصومة منذ إسماعيل وإسحاق ويعقوب إلى كافة المرسلين الإسماعيليين والإسرائيليين، وهاتان الرسالتان هما كل خطوط الرسالات الإلهية منذ إبراهيم إلى يوم الدين.

ويا لها من هبة عظيمة قائمة الأصول، منتشرة الفروع، حيث تشمل كافة

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٤.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ٩٨ - ١١٣.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠٠.

الرسالات والإمامات، أصالة في الإسماعيلية المحمدية مهما كانت خاتمتها، وفرعاً في الإسحاقية الإسرائيلية، مهما كانت من بدايتها، هكذا:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)﴾:

و«هم» في ذلك الجعل العظيم: إبراهيم وإسماعيل ومحمد والمعصومون من عترته، كذلك وإسحاق ويعقوب والمرسلون من عترته، مهما اختلفت درجات الإمامة والهداية بأمر الله بينهم، فمنهم أئمة أربعة من أولي العزم من الرسل محمد وإبراهيم وموسى وعيسى، ثم الاثني عشر المحمديون، وهم في درجته العليا إلّا الوحي، ومن ثم إسماعيل وإسحاق والرسل الإسرائيليون.

فحين يفسَّر «هم» بأئمتنا المعصومين[1] فهو تفسير بأصدق المصاديق وأعلاها بعد الرسول محمد ﷺ وبعدهم هم كافة الرسل الإبراهيميين.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٤١ في كتاب المناقب عن النبي ﷺ حديث طويل في فضل علي وفاطمة عليهما السلام وفيه قال ﷺ: وارزقهما ذرية طاهرة طيبة مباركة واجعل في ذريتهما البركة، واجعلهم أئمة يهدون بأمرك إلى طاعتك ويأمران بما يرضيك وفيه في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الأئمة في كتاب الله عزّ وجلّ إمامان قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] لا بأمر الناس، يقدمون ما أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم قال: وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار - يقدمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله،و فيه وفي العيون عن الرضا عليه السلام في حديث الإمامة قال: ثم أكرمه الله عزّ وجلّ يعني إبراهيم بأن جعلها يعني الإمامة في ذريته وأهل الصفوة والطهارة فقال عزّ وجلّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣] فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرناً قرناً حتى ورثها النبي ﷺ فقال الله جل جلاله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] فكانت خاصة...

وفي تفسير البرهان ٣: ٦٥ ابن بابويه بسند متصل عن زيد بن علي قال: كنت عند أبي علي =

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ هؤلاء المصطفين - ككل - من ذُكروا هنا ومَن يُذكروا ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فكما ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ كذلك هم ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فإن ﴿بِأَمْرِنَا﴾ متعلق بكليهما، فالإمامة المجعولة بأمر الله، هي الهادية بأمر الله، هدىً معصومة من إمامة معصومة لا قصور فيها ولا تقصير:

فليست الإمامة الهادية بأمر الأمّة شورى وسواها، ولا بأمر الإمام معصوماً وسواه، وإنما الإمامة بجعل الله، وهدايتها بأمر الله لا سواه وحتى رسول الله ﷺ، إذ لا يسمح له أن يجعل إماماً معه أم يخلِّفه بعده.

و﴿يَهْدُونَ﴾ يعم التكوينية وهي الإيصال إلى الهدى، إلى جانب التشريعية وهي الهدى نفسها، فهم يهدون الناس بشرعة الله بأمر الله، ويهدونهم توفيقاً للهدى بأمر الله، فلا هم أنفسهم يهدون تشريعياً ولا تكوينياً، وإنما هم أداة رسالية بياناً لشرعة الله، وإيصالاً إلى هدى الله:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[1] فـــ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ

= بن الحسين عليه السلام إذا دخل عليه جابر بن عبد الله الأنصاري فبينما هو يحدثه إذ خرج أخي محمد من بعض الحجر فأشخص جابر ببصره نحوه ثم قال: يا غلام أقبل فأقبل ثم قال: أدبر فأدبر فقال: شمائل رسول الله ﷺ ما اسمك يا غلام؟ قال: محمد قال: ابن من؟ قال: ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: إذن أنت الباقر عليه السلام فاتكى عليه وقبل رأسه ويديه ثم قال: يا محمد إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، قال: وعلى رسول الله ﷺ أفضل السلام وعليك يا جابر بما فعلت، ثم عاد إلى مصلاه فأقبل يحدث أبي ويقول إن رسول الله ﷺ قال لي يوماً: يا جابر إذا أدركت ولدي محمداً فأقرئه مني السلام أما إنه سميي وأشبه الناس بي علمه علمي وحكمه حكمي سبعة من ولده أمناء معصومون أئمة أبرار السابع منهم مهديهم الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ثم تلا رسول الله ﷺ: وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين.

وفيه محمد بن العباس.. عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال عليه السلام يعني الأئمة من ولد فاطمة عليها السلام يوحى إليهم بالروح في صدورهم ثم ذكر ما أكرمهم الله به فقال: فعل الخيرات.

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

﴿ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1] وكما أن كلتا الهدايتين للأئمة رسلاً وسواهم، هما بوحي الله وأمره، كذلك ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ حيث ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ...﴾ لا - فقط - كيف يفعلون؟ فإنه وحي الشرعة، بل نفس ما يفعلون، فإنها بوحي الله، عصمة وتسديداً من الله، وليس ذلك الوحي فوضى جزاف دونما صلاحية لهم مسبقة، بل ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ قبل مثلث الوحي، حتى استحقوه فاصطفاهم الله له رسالياً أم سواه.

هذه هي الإمامة المعصومة لا تجعل إلا بأمر الله، كما هدايتهم للناس بأمر الله بنص خاص، ولتكن كذلك الإمامة غير المعصومة في أية درجة من درجاتها بأمر الله، أن تنطبق على النصوص الواردة في شروطات الإمامة، حيث القيادة الروحية هي من اختصاصات الربوبية، فلا تصلح لمن سواه إلّا بأمره.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

علّ ﴿حُكْمًا﴾ هو حكم القيادة الروحية ﴿وَعِلْمًا﴾ علمها بماذا يقود وكيف يقود وهذه هي الإمامة و﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ هي سدوم و﴿تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ مؤنثاً قضية أدب اللفظ، حيث حلّقت خبائثُ أهلها جوَّها تماماً لحدٍّ كأنها كانت تعمل الخبائث، ثم و﴿إِنَّهُمْ﴾ مذكراً قضيةُ المعنى وهم عاملوا الخبائث ﴿كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ...﴾ «نجيناه إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين» فكان مع إبراهيم وفي حضن رسالته وإمامته، مع أنه أيضاً كان إماماً لأمّته.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

وهكذا يكون دور كل صالح في ميزان الله أنه يدخله في حرمته قدر

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

صلاحه وصلوحه، رحمة في النشآت الثلاث، والرحمة الأخيرة هي حق الخلاص.

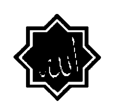
﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾:

﴿وَنُوحًا﴾ ومن بعده عدة من هؤلاء الأئمة، منصوبين إعراباً لأنهم منصوبون كسائر الأئمة في ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾[1] «نادانا» بقوله: رب ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ... وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾[2] و﴿الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ هو الغم الشديد والهم المديد من تماديهم في الطغيان، وهو الطوفان الشامل، كما ﴿وَأَهْلَهُ﴾ آهل كقرينة على ثاني الكربين، ومنهم من آمن معه في غير أهله ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ...﴾[3].

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

ولأن نوحاً من أولي العزم من الرسل، فشرعته عالمية تحلّق على كافة المكلفين، إذا ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يستغرق كافة المكذبين به في الكرة الأرضية كلها.



(١) سورة الصافات، الآية: ٧٥.
(٢) سورة القمر، الآيات: ١٠-١٤.
(٣) سورة هود، الآية: ٤٠.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)﴾:

الحكم هنا هو القضاء فصلاً لخصومة في قضية واقعة، لا الحكم الشرعي العام من الشرعة الإلهية، فإن تفهمه من لزامات الرسالة، وذلك الحكم المختلف فيه بين داود وسليمان كان مسرحاً للامتحان دون امتهان لداود، واحترام لسليمان ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ على سواء، بل ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ...﴾.

إنّما ذلك لكي يثبت داود ويعلم معه العالمون أنه خاطئ في حكم خاص لولا تفهيم من الله، فضلاً عن حكم الإمامة الرسالية وهو عامة الشرعة الإلهية.

ويبدو أن داود عليه السلام - لأنه كان الملك النبي والحاكم المطلق في بني إسرائيل، وقد جعله الله خليفة في الأرض: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[1] - يبدو أنه لذلك كان هو المسؤول في تلك المنازعة. ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فأبدى ما فهّمه ربه وطبعاً بإذن من داود، إظهاراً للقصور الذاتي للمرسلين لولا الوحي، ولأهلية سليمان للخلافة بعده[2].

(١) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٢) البحار ١٤: ١٣٢ عن الكافي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الإمامة عهد من الله عزّ وجلّ معهود لرجال مسمين ليس للإمام أن يزويها عن الذي يكون من بعده، إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى داود عليه السلام أن اتخذ وصياً من أهلك، فإنه قد سبق في علمي أن لا أبعث نبياً إلا وله وصيّ من أهله وكان لداود عليه السلام أولاد عدة وفيهم غلام كانت أمه عند داود عليه السلام وكان لها محباً فدخل داود عليها حين أتاه الوحي فقال لها: إن الله عزّ وجلّ أوحى إلي يأمرني أن أتخذ وصياً من أهلي فقالت له امرأته: فلتكن ابني، قال: ذاك أريد، وكان السابق في =

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾!

وهل أن داود حكم قبل أن يفهِّمه الله؟ وذلك خلاف حكم الله والحكمة الرسالية ولا سيما عند الاختلاف بين حاكمين رساليين!.

كلّا! ولا إشارة هنا أنه حكم، بل ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ دون «إذ حكماً» دليل أنهما كانا يتشاوران ويتناظران[1] في حكم القضية، ثم الحاكمان المتفقان فضلاً عن المختلفين ليسا ليحكما في قضية واحدة، ولا سيما إذا كان أحدهما الحاكم الأصل والثاني هو الفرع، اللهم إلّا تشاوراً في «كيف الحكم»؟ فكلٌّ يرتئي رأياً في نقاش بينهما، حتى تنتج الشورى حكماً واحداً.

ثم ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ دليل أنه كأبيه داود كان محتاراً في الحكم خاطئاً لولا تفهيمه.

ثم ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ قد تعني أحكام المرسلين ككلٍّ، ولذلك ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ وإلّا فحق الصيغة ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾[2] أم -

---

= علم الله المحتوم عنده أنه سليمان، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى داود أن اجمع ولدك فمن قضى بهذه القضية فأصاب فهو وصيك من بعدك فجمع داود ولده فلما أن اقتضى الخصمان قال سليمان: يا صاحب الكرم متى دخلت غنم هذا الرجل كرمك؟ قال: دخلته ليلاً، قال: قد قضيت عليك يا صاحب الغنم بأولاد غنمك وأصوافها في عامك هذا ثم قال له داود فكيف لم تقض برقاب الغنم وقد قوم ذلك علماء بني إسرائيل فكان ثمن الكرم قيمة الغنم؟ فقال سليمان: إن الكرم لم يجتث من أصله وإنما أكل حمله وهو عائد في قابل فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى داود أن القضاء في هذه القضية ما قضى سليمان به، يا داود أردت أمراً وأردنا أمراً غيره فدخل داود على امرأته قال: أردنا أمراً وأراد الله غيره ولم يكن إلا ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ فقد رضينا بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وسلمنا، وكذلك الأوصياء ليس لهم أن يتعدوا بهذا الأمر فيجاوزون صاحبه إلى غيره.

(١) المصدر عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ في الآية قال: لم يحكما، إنما كانا يتناظران ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وفي الفقيه بسنده الصحيح عن جميل عن زرارة مثله.

(٢) البحار ١٤: ١٤١ - عن تفسير القمي في الآية حدثني أبي عن عبد الله بن يحيى عن ابن =

وبأحرى - لحكمه، والشهادة هي الحضور علمياً وتعليمياً ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ قبل أن يحكم أحدهما.

أم و﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ الواحد، حاكمين ومحكوم عليهم، ولكنه - أن عُنيَ وحده كان خلاف الفصيح والصحيح، والجمع أجمع وأجمل.

فلم يحكم داود - إذاً - بغير الحق خلافاً لأمر الله ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[(١)] إذ لم يكن الحكم بالحق في السنة الداودية إلا بالواقع المطلق، وليس - إذاً - إلّا بتفهيم الله وقد فهمه سليمان دونه للمصلحة.

والروايات الواردة أن داود حكم بخلاف الحق الذي فُهِّمه سليمان، هي مأوّلة أم خلاف الحق[(٢)] ولا يصدَّق من سواها إلّا ما يصدقه القرآن أنهما كانا يحكمان تشاوراً غير باتٍّ ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فرضيا به حَكَماً، دون أن يكون هناك نسخ فإنه خلاف النص، وإن النسخ ليس إلّا في شرعة لولي عزم ولم يكن سليمان صاحب شرعة مستقلة[(٣)].

= مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان في بني إسرائيل رجل كان له كرم ونفشت فيه غنم لرجل آخر بالليل وقضمته وأفسدته فجاء صاحب الكرم إلى داود عليه السلام فاستعدى على صاحب الغنم فقال داود عليه السلام: اذهبا إلى سليمان ليحكم بينكما فذهبا إليه فقال سليمان: إن كانت الغنم أكلت الأصل والفرع فعلى صاحب الغنم أن يدفع إلى صاحب الكرم الغنم وما في بطنها، وإن كانت ذهبت بالفرع ولم تذهب بالأصل فإنه يدفع ولدها إلى صاحب الكرم وكان هذا حكم داود وإنما أراد أن يعرف بني إسرائيل أن سليمان عليه السلام وصيه بعده ولم يختلفا في الحكم ولو اختلف حكمهما لقال: وكنا لحكمهما شاهدين.

(١) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٢) المصدر عن الفقيه بسنده الصحيح عن الوشاء عن أحمد بن عمر الحلبي قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن هذه الآية قال: كان حكم داود عليه السلام رقاب الغنم والذي فهم الله عز وجل سليمان أن يحكم لصاحب الحرث باللبن والصوف ذلك العام كله.

أقول: علّ «كان حكم داود» غير حكمه البات، وإنما كان يرتئي مشورة ولكن حكم سليمان بالصوف واللبن خلاف حكمه إذ حكم بولدها كما في أحاديث أخرى.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٤١ عن الكافي بسند عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: قول =

وعلى الجملة فالقصد من ذلك التفهيم في ذلك التحكيم للرسول الفرع أمام الرسول الإمام الأصل ليس تحطيم ساحته والمس من كرامته تقديماً للمفضول على الفاضل، وإنما هو لبيان القصور الذاتي حتى للمرسلين حتى لا يزعم زاعم أنهم على شيء من عند أنفسهم، أو أنهم مخوَّلون فيما يحكمون، بل هو فيض قدسي إلهي مستمر مع الرسالات، وليست هذه الفلتات - إن صح التعبير - قاصدة مع المعصومين، إلّا بياناً عن ذاتياتهم ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾[1].

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾:

أجل وإن داود هو النبي المفضل في بني إسرائيل بعد موسى والمسيح فإن لهما شأنهما: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[2] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[3] فليس - إذاً - ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾ احتراماً لداود واحتراماً لسليمان، بل هي حكمة بالغة إلهية ولطف خفي بأمر جلي مهما كان ظاهره إمراً.

ومن تسخير الجبال معه ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أوبة منها تتبع أوبته كما

= الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ...﴾ [الأنبياء: ٧٨] قلت حين حكما في الحرث كان قضية واحدة؟ فقال عليه السلام: إنه كان أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى النبيين قبل داود إلى أن بعث الله داود: أي غنم نفشت في الحرث فلصاحب الحرث رقاب الغنم ولا يكون النفش إلا بالليل فإن على صاحب الزرع أن يحفظ بالنهار وعلى صاحب الغنم حفظ الغنم بالليل فحكم داود بما حكمت به الأنبياء عليهم السلام من قبله وأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى سليمان عليه السلام وأي غنم نفشت في زرع فليس لصاحب الزرع إلا ما خرج من بطونها وكذلك جرت السنّة بعد سليمان عليه السلام وهو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] فحكم كل واحد منهما بحكم الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٠.

يسمعها وكذلك الطير، وليس ذلك بدعاً منا لخصوص داوود، بل ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ في سلسلة الرسالات بمختلف الجلوات.

وقد عرف داود بمزاميره الرنانة الحنانة، تسابيح لله يرتلها بصوته الحنين الحزين، فتتجاوب معه الجبال والطير، وكأنما الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة معه بجلال الله وحمده.

صحيح أنه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] إلا أن داود فُقِّه تسبيحهم بل وكان يسمعهم كيف يسبحون ربهم، فالجبال هنا مثل الجوامد، والطير مثل الحيوان وبينهما النباتات، فعلَّه فُقِّه منطق كل شيء، أم ما حوله من الجبال والطير دمجاً للجماد في الحيوان إلى تسبيحه!.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ تلمح بأنَّ ذلك العلم المعلَّم بادئ من داود، فلم يكن يُصنع قبله لبوس، وهذا يلمح أنه الدرع والمغفر أم وسائر ما يلبس لخصوص البأس إحصاناً منه، و﴿لَبُوسٍ﴾ مبالغة «لباس» ما يبالغ في لبس الإنسان حالة البأس، وهو الحرب، ومما عبَّد له علمُها وصنعُه بسهولة ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ إلانة دون أسباب معوَّدة ﴿. . . وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[2].

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3] والسابغة هي الدرع التام، وتقدير السرد هو نضج الحديد فنسج الدرع ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ اللبوس المقدَّر المسرود، أم والمغفر وعلَّه أحرى ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ حرباً ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ ذلك الإحصان الإحسان إليكم منذ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٢) سورة سبأ، الآية: ١٠.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١١.

داود عليه السلام بما في هذه الصفة من تطوُّرات حيث الحضارة البشرية سائرة في طريقها إلى التقدم خطوة خطوة وراء الكشوف المتجددة يوماً فيوماً دون قفزة ولا طفرة، ولكن صنعة لبوس لكم بإلانة الحديد وعمل السابغات كانت قفزة وطفرة تخترق العادة المألوفة.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ...﴾[(١)] ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[(٢)]، والريح منصوب حيث هو معطوف على مفعول التسخير «وسخرنا لسليمان الريح...».

ريح عاصفة غدوها شهر ورواحها شهر، تجري بأمره رخاءً حيث أصاب، إلى الأرض التي باركنا فيها وسواها حيث أصاب[(٣)] ﴿وَكُنَّا﴾ من قبل ومن بعد وفي ذلك الذي علمناه وسخرناه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

ولَيس فقط تسخيراً لمن لا يعقل وليس له اختيار، بل وسخرنا له ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ...﴾:

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ وهم بعضهم الذين استخدمهم لشاقة الأعمال ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحر لاستخراج متاع منه ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ حيث ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ...﴾[(٤)]

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٢.
(٢) سورة ص، الآية: ٣٦.
(٣) راجع تفسير الآيتين في سبأ وص تجد فيهما تفصيل جريان الريح حيث أصاب.
(٤) سورة سبأ، الآية: ١٣.

أم ودون ذلك مما لا نعلمه والله يعلمه ﴿وَكُنَّا لَهُمْ﴾ الشياطين العاملين له ﴿حَٰفِظِينَ﴾ عن شيطناتهم وتخلفاتهم في أعمالهم لسليمان، حفظاً عن الهَرَب وأي إفساد وجَرَب، لصالح الخدمة السليمانية.

وعلّ الشياطين هنا تعم شياطين الجن والإنس، وقد لا ينافيه ﴿. . . وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ . . .﴾[1].

فالشياطين نص في الكفار ظاهر في شياطين الجن والإنس، والجن نص في الجن ظاهر في كفارهم وسواهم، والنصان متوافقان في شياطين الجن، فهم القدر المعلوم من عماله، ثم يخرج مؤمنو الجن والإنس، ويبقى شياطين الإنس في الظاهر الأول، ولا ينافيه نص الجن لعدم الحصر.

«ولو أن أحداً يجد إلى البقاء سلماً أو لدفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان بن داود الذي سخر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة فلما استوفى طعمته واستكمل مدته رمته قِسيُّ الفناء بنبال الموت وأصبحت الديار منه خالية والمساكن معطلة، ورثها آخرون»[2].

ويا لها من نعمة سابغة لسليمان حيث يُسخر له الشياطين رغم أنوفهم، ولكي تظهر رحمة الله وعنايته الخاصة لسليمان النبي الملك، حيث يحلّق في سلطته على الجبال والطير والشياطين، لا فقط على الإنس المؤمنين، ولكي نعلم أن العاقبة للمتقين، وأنه يأتي على العالم زمان يسيطر فيه من يصطفيه الله حاكماً وقائداً على كل العالمين، وهو الإمام القائم المنتظر المهدي من آل محمد عليهم السلام.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا

(١) سورة سبأ، الآيتان: ١٢، ١٣.
(٢) نهج البلاغة ١: ٣٤١ - ٣٤٢.

لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرࣲّۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةࣰ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

وقصة أيوب مفصلة في «ص» ومجملة هنا، وقد فصلناها هناك كما فصلت، ونجملها هنا كما أجملت، وهي دعاء واستجابة ومزيد، وما ألطفه وأنظفه دعاءً لا يتطلب فيه المبتلى كشف بلائه، وإنما هو عرض بلاءه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ وعرض الرب بعليائه ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فلا يدعو بتغيير حاله، ولا يقترح شيئاً على ربه، تأدباً معه وتوقيراً وصبراً على بلائه، فهو من أفضل النماذج للعبد الصابر في بليته، دون أي تململ!.

ثم نرى الاستجابة ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ سؤله المعلوم عن عرضه وسؤاله ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرࣲّۖ﴾ والضُّر ضماً يختص بما يمس غير الروح، وليس للشيطان سبيل إلى أرواح النبيين ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبࣲ وَعَذَابٍ﴾[1] وهي فتحاً يعمهما، وضماً كما هيه يخص غير الروح، وعلّ العذاب عبارة عنه أخرى.

وعلّ «أهله» يعم زوجه وولده، أم وكلّ من كان يعوله من أقربائه وأنسبائه، سواء الذين هلكوا في ضره، أم تفرقوا عنه، فـ «آتيناه» تعم إحياء من هلك، ورجوع من سلك، ثم ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ قد تعني مماثلة الكم والكيف، والمعية وهي الملائمة الموافقة، قد تلمح أن الزوجة الثانية انضمت إلى الأولى بكل وئام واحترام، وكل ذلك ﴿رَحۡمَةࣰ مِّنۡ عِندِنَا﴾ لأيوب الصابر في محنته ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ على مر الزمن ليقتفوا أثره في الصبر على الضُّر لله وفي الله، دونما شكوى على الله! وهنا اللمحة اللامعة أن العبودية كلما ازدادت وتقدمت ازداد العبد بلاءً، ولكي يرتقي العابد بذلك المرقى ما لا يرتقي بسواه.

(١) سورة ص، الآية: ٤١.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾:

واذكر «إسماعيل» ابن إبراهيم ﴿وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ في حياتهم الرسالية فـ ﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولا سيما إسماعيل إذ قال له أبوه ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[(١)].

فلذلك الصبر البالغ ذروته ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فالصبر الصالح والصالح الصابر داخل في رحمة الله، والصبر مفتاح الفرج[(٢)].

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ هذا وهو يونس بن متى النبي، يُضرب هنا مثلاً مذكِّراً لقصور الصبر اللائق في تطبيق الرسالة، بعد التذكير بأنبياء صابرين، وكما يلمح في «القلم»: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾[(٣)] والقصة مذكورة فيها وفي يونس والصافات، وفي كلٍّ تفصيل كما تعنيه آيتها، وهنا كما هيه، دون إعادة شاملة للثلاثة الباقية.

وتراه هنا ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ ممن؟ أمن ربه؟ وهو كفر به، وأين يذهب مغاضباً من ربه وليس له مكان، فإنه محيط بكل كائن ومكان، وهو مع كل أنس وجان! ثم ﴿مُغَٰضِبٗا﴾ تعني غضب المتناوئين، فليس غضباناً حتى يعنيه

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.
(٢) راجع تفسير قصة إدريس في «مريم» وإسماعيل في «الصافات» وذي الكفل في «ص».
(٣) سورة القلم، الآيات: ٤٨-٥٠.

هو على ربه وسبحانه، وإنما «مغاضباً» وطبعاً مع من كانوا معه في قريته، فقد غضب عليه قومه لكرور دعوته وصموده في دعايته، فأيس منهم وغضب عليهم فـ ﴿ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ غضباً على قومه في ذات الله إذ غضبوا عليه لدعوته الدائبة إلى الله، فأيس من إيمانهم بالله، ولكنهم كان لهم استعداد للإيمان ما كان يعلمه يونس ولا رجاه:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَـمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[١].

فلأن الموقف كان موقف الإياس من إيمانهم، فلم ير - إذاً - بأساً من الذهاب عنهم مغاضباً، ولأن ذهابه كان ذهاب المغاضب دون فرار عن الدعوة أم تمهُّل فيها ﴿فَظَنَّ﴾ حسن ظنه بربه ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْـهِ﴾ تضييقاً في ذلك الذهاب، فليس ﴿نَّقْدِرَ﴾ من القدرة، بل هو القدْر الضيق كما ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[٢] في آيات عدة[٣] ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[٤].

فقضية الموقف الحاسم، أن لن نضيق عليه بذهابه عنهم مغاضباً، فلم يكن يرى في ذلك الذهاب بأساً، بعدما استعصى عليه قومه وهو مستقصٍ في دعوتهم، فغادرهم مغاضباً ولم يصبر على معاناتها بمماداتها وعرقلاتها، ظاناً أن الله لن يضيق عليه الأرض، فهي فسيحة والقرى بأقوامها كثيرة، وأنه لن يضيق عليه توبيخاً لذهابه عنهم، إذ رأى نفسه معذورة في ذهابه.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٦.
(٣) وهي ١٣: ٢٦ و١٧: ٣٠ و٢٨: ٨٢ و٢٩: ٦٢ و٣٠: ٣٧ و٣٤: ٣٦ و٣٩ و٣٩: ٥٢ و٤٢: ١٢، ثم لا نجد ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤] بمعنى القدرة إلا في ٢: ٢٦٤ و١٤: ١٨ و٥٧: ٢٩، مما يجعل الترجيح للمعنى الأول عند التردد، فضلاً عن موضع اليقين كما في ذا النون.
(٤) سورة الطلاق، الآية: ٧.

هذا الذي ظنه ذا النون، ولكن الرسالة الإلَهية لها مسؤوليتها الخطيرة، المحلِّقة على سائر المسؤوليات، فليس لصاحب الدعوة الرسالية أن يتركها، أو يترك جو الدعوة بسند الإياس عن تأثيرها، فإنها ليست - فقط - نذراً، بل ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾[1] فحتى إن أيقن الداعية بعدم تأثير الدعوة فعليه المواصلة فيها حتى النفس الأخير، ولا يسمح له بالذهاب عنهم إلّا إذا خاف على نفسه عذابهم الناكل أم عذاب الله عليهم، أم مسا من كرامة الدعوة، فهنالك المهاجرة حفاظاً على الدعوة والداعية، لا إراحة لنفسه عن الدعوة غير المؤثرة.

إذاً فقد كان من ذا النون بعض التقصير في الدعوة الصامدة، مهما يعذره بعضَ الإعذار ظنُّه أن لن يضيق عليه ربه في ذهابه عنهم مغاضباً، ولكنه كان ظناً بغير حساب ولا صواب، حيث الموقف الصالح لذلك الظن أو اليقين بعدم التضييق هو تمام الدعوة، ولا تتم بنفس الإياس إلا إذا واجه أمراً أهم إمراً من واجب الدعوة العاذرة غير المؤثرة، كالخطر على الدعوة أو الداعية، وقد هاجر الرسول ﷺ أرض الدعوة الأصيلة إلى أخرى لما هجَّروه وأرادوا ليقتلوه، فانقلب واجبه المقام إلى المهاجرة إلى المدينة، حتى أسس فيها دولة الإسلام ورجع في نهاية أمره إلى مكة فاتحاً محبوراً مشكوراً.

وهاجر موسى ومن معه فراراً من بأس فرعون وملئه، وإبراهيم ولوط حيث نجاهما الله إلى الأرض المباركة، ولوط حيث نُجِّي بأهله عن قومه الهاجم عليهم الخطر الناجم عن تكذيبهم ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[2]!.

وإما أن يذهب الداعية عن جو الدعوة بمجرد أنهم بالفعل لم يتأثروا

(١) سورة النازعات، الآية: ٦.
(٢) سورة هود، الآية: ٨١.

بها، فلا، علّهم يتأثرون في المستقبل، أم تلزمهم الحجة الدائبة عليهم إذا كانوا ممن ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1] ولكن الدعوة المتواصلة ليست سواء عليك وإنما عليهم.

فأصحاب الدعوات رسولية ورسالية لا بدل لهم أن يتحملوا تكاليفها، صبراً على التكذيب بها والإيذاء من أجلها، ومهما كان تكذيب الصادق الأمين مريراً عليه ولكن الصبر عليه هو بعض تكاليف الرسالة.

لا يجوز للداعية أن ييأس من إصلاح النفوس المتمردة، فإذا كانت المئات لم تصل إلى القلوب فلتكن ألفاً وآلافات، فقد تصل مرة إلى القلب مهما كان كرور الدعوة المستمرة مُرَّة، وحتى إذا أيقن - وكيف له ذلك وأنّى - إنه سواء عليهم الإنذار وتركه، فليواصل في دعوته عذراً، كما كانت قبلُ نُذراً.

أجل، وإن طريق الدعوات ليست هينة ولا استجابة النفوس يسيرة، فهناك ركام من مختلف الشبهات والشيطنات تجثم على القلوب لا بد من إزالتها بكرور الدعوة، بأية وسيلة ممكنة، تلمُّساً لكافة المراكز الحساسة، محاولة العثور على العصب الحساس، وقد تُصادف إحدى اللمسات ذلك العصب فيتحول تحولاً، وكما قوم يونس آمنوا لما رأوا بأس الله، إيماناً صالحاً لدفع العذاب، رغم أن الإيمان عند رؤية البأس لا يفيد: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾[2].

إن الدعوة هي الأصل ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ لا شخص الداعية أم شخصيته، اللهم إلا فيما أصبحت الدعوة في خطر بالقضاء عليها أم على الداعية، فإلى المهاجرة حفاظاً على أصلها واستمراريتها في مجالات أخرى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٨.

لقد سجن ذا النون في بطن الحوت النون تأديباً له أديباً لماذا استعجل عن قومه ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمة بطن الحوت وظلمة الليل وظلمة البحر»[١] ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ إقراراً بالتوحيد ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لله عن كل ما يمس من كرامته وعن أن يظلم عبده في ظلماته، ثم إقراراً بظلمه: انتقاصاً عن واجب الدعوة ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ظلماً بنفسي لمكان نقصي كرسول.

وتراه كيف ناله عهدٌ من الله رسالة ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] إذا كان ظلماً قبل الرسالة، وهو ظالم حين الرسالة؟ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾[٣]!.

إن ﴿عَهْدِي﴾ الذي لا ينال الظالمين هو عهد الإمامة دون مطلق الرسالة، والظلم الذي ينافي الرسالة هو المعمّد الخائن في حمل الرسالة أو أدائها، دون الانتقاص عن كمالها، المجبر بتأديب الله، ولا سيما إذا كان الله يمتحن الرسول بذلك الانتقاص، تنبيهاً له أنه ليس على شيء لولا رحمة من الله وعصمة وتسديد، وقد يصدق فيه ما يروى عن الرسول ﷺ في دعائه «اللهم ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً» فسألته أم سلمة في ذلك فقال ﷺ: يا أم سلمة وما يؤمنني وإنما وكل الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين فكان منه ما كان»[٤] وقد يشبهه ظلمه هذا ظلم موسى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي

---

(١) البحار ١٤: ٣٨٣ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال في تفسير الظلمات... وفي ٣٨٧ روى مثله عن الإمام الرضا عليه السلام.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٣٩، ١٤٠.

(٤) البحار ١٤: ٣٨٤ عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد الله ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ في بيت أم سلمة في ليلتها ففقدته من الفراش فدخلها من ذلك ما يدخل النساء فقامت تطلبه في جوانب البيت حتى انتهت إليه وهو في جانب من البيت قائماً رافعاً يديه يبكي وهو يقول:
اللهم لا تنزع مني صالح ما أعطيتني أبداً، اللهم ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً، اللهم =

ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾[١] مهما كان ذلك قبل رسالته، وهما على أية حال أدنى من ظلم آدم حين عصى ربه فغوى.

ثم وعلّها لابن متّى كما لموسى كانت رسالة تدريبية تجريبية، حتى إذا اكتمل بعثه لرسالة أصلية، وقد تشهد له ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[٢] بعد قوله بعدة آيات ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣] ولكي يثبت على حاق رسالته وحقها دون أي تفلُّت عنها أو تلفُّت!.

فلما أناب ذا النون إلى ربه بما أناب ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ عما قصّر ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حين يدعون كذلك الذي دعى ذا النون.

ولقد تكاثرت الروايات وتضاربت حول قصة يونس، بين ما تكذبها الآيات أم لا تصدقها، وما تصدقها الآيات، فلا نصدق منها إلا ما صدقته، ولا نكذب إلا ما كذبته، ثم نتردد في عوانها لا مصدَّقة ولا مكذَّبة.

= لا تشمت بي عدواً ولا حاسداً أبداً، اللهم لا تردني في سوء استنقذتني منه أبداً، قال: فانصرفت أم سلمة تبكي حتى انصرف رسول الله ﷺ لبكائها فقال لها: ما يبكيك يا أم سلمة؟ فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ ولم لا أبكي وأنت بالمكان الذي أنت به من الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، تسأله أن لا يشمت بك عدواً أبداً وأن لا يردك في سوء استنقذك منه أبداً وأن لا ينزع منك صالح ما أعطاك أبداً وأن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً فقال: يا أم سلمة... (نقلناه بكامله عن الهامش نقلاً عن الأصل).

وفيه (٣٨٧) عن الكافي ٢: ٥٨١ عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول - وهو رافع يده إلى السماء - «رب لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً» لا أقل من ذلك ولا أكثر، قال: فما كان بأسرع من أن تحدر الدموع من جوانب لحيته، ثم أقبل عليّ فقال: يا بن أبي يعفور إن يونس بن متى وكله الله عزّ وجلّ إلى نفسه أقل من طرفة عين فأحدث ذلك الذنب قلت: فبلغ به كفراً أصلحك الله؟ قال: لا ولكن الموت على تلك الحال هلاك.

(١) سورة القصص، الآية: ١٦.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤٧.
(٣) سورة الصافات، الآية: ١٣٩.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

إن قصة ولادة يحيى العجيبة مضت في سورة آل عمران ومريم، وهنا ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ استدعاءً لولد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾[1].

ولما كانت هذه الوراثة المطلوبة توهم أن لولاها لم تكن هناك وراثة والله خير الوارثين، يُلَحِّق دعاءه بتلك الوراثة الإلَهية، وأنه يطلب وارثاً من جنسه حتى يرثه في حمل الرسالة الإلَهية، فحتى إن لم ترزقني ولداً فـ ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ وإن رزقتنيه أيضاً فـ ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

﴿وَأَصْلَحْنَا﴾ زوجه عن عقرها إذ كانت عاقراً، ثم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ من قبلُ، قد تعني فيما عنت إصلاح حاله عن كبره إذ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا...﴾[2] ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾[3].

هذه تبين لنا أن المسارعة في الخيرات والدعاء رغباً ورهباً والخشوع لله، إن في ذلك مادة الإجابة الخارقة للعادة في الأدعية الصالحة، وكما نرى السابقين والمقربين وشطراً من أصحاب اليمن تستجاب لهم دعواتهم العجيبة.

والعبادة ﴿رَغَبًا﴾ هي الرغبة في الله ثواباً ولقاءً ورضواناً، و﴿وَرَهَبًا﴾

(١) سورة مريم، الآيتان: ٥، ٦.
(٢) سورة مريم، الآية: ٤.
(٣) سورة مريم، الآية: ٥.

هي الإشفاق من الله خوفة ورهبة وفَرَقاً منه، والدرجة العليا من الرغب والرهب تناسب السابقين والمقربين الذين يعبدون الله حبّاً له، ثم سائر الناس عبيد «رهباً» أم تجار «رغبا»[١].

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

والروح المنفوخ فيها هو المسيح، وفي الطلاق ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا...﴾[٢] بياناً أن الموضع المنفوخ فيه الروح منها هو فرجها لا سواه، وقد فصلناه في محالها الأنسب كالطلاق وسواها.

وترى كيف جُعلا هما ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لا «آيتين» والمسيح بنفسه آية إلّهية بما معه من آيات؟ القصد من «آية» هنا هي الذاتية الكونية، وهذه الولادة المنقطعة النظير آية واحدة، قائمة بكلا الولد والوالدة، لولا أحدهما لم يكن الآخر آية، إذاً فهما آية نظراً إلى هذه الولادة القائمة بهما كليهما، آية واحدة فذة في تاريخ الإنسان على مر الزمان، ومثَل واحد من ذلك النوع يكفي تأملاً للإنسانية في أجيالها على طولها وعرضها في سمائها وأرضها، لمساً معرفياً وواقعياً ليد القدرة الطلقية المطلقة الإلّهية التي تخلق النواميس، دون حصر واحتباس داخل النواميس! و﴿رُّوحِنَا﴾ هنا هي روح المسيح إضافة إلى جسمه وقد جرت من مجراها في مريم نفخاً دون علوق من ذكر،

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٥٧ في كتاب الخصال عن يونس بن ظبيان قال: قال الصادق عليه السلام: إن الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهي الطمع وآخرون يعبدونه فرقاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي الرهبة ولكني أعبده حبّاً له فتلك عبادة الكرام.
أقول: ولأن هؤلاء الرسل هم من الكرام فعبادتهم رغباً ورهباً لا تعني ما عنته هذه الرواية.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١٢.

ولا انتقال من طبق إلى طبق، وأضيفت إلى الله لمزية الاصطفاء بالتكريم والاختصاص بالتعظيم في بعدي خرق العادة لخلقها، والميزة على سائر الأرواح، اللهم إلا التي ساماها بل فضِّلت عليها كروح محمد والمحمديين من عترته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.



﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ (٩٢)
وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعۡمَلۡ
مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ
(٩٤) وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰٓ إِذَا
فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ (٩٦) وَٱقۡتَرَبَ
ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ
كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمۡ وَمَا
تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ (٩٨) لَوۡ
كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٩٩) لَهُمۡ فِيهَا
زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا
ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ (١٠١) لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا
ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ (١٠٢) لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ
وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوۡمَ
نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ
وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ
ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا
لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ (١٠٦) وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ (١٠٧) قُلۡ إِنَّمَا
يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٠٨) فَإِن

تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ الأمم بأسرها وعن بكرتها ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أيها الرسل بأسركم وعن بكرتكم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ في مغزاها ومرماها، كما الرسالة واحدة مهما حملها مرسلون عدة، وهما تتلاقيان في ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ دون سواي، إذاً ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ دون سواي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾[1].

آيتان كريمتان في الذكر الحكيم تؤكدان على وحدة الرسالة ووحدة الأمم في عبادة الله الواحد وتقواه والرجوع إليه فـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[2].

ويا له من إله واحد ورب واحد مبدءً ومرجعاً، ويا لهم من أمّة واحدة على ضوء رسالة واحدة تلتقيان على عبادة واحدة وتقوى واحدة ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ...﴾! خطاباً شاملاً للرسل بأممهم، هم يحملون «كيف يُعبد الله ويُتقى» إلى كل الأمم، فمهما اختلفت الطقوس والصور فالأصل والاتجاه واحد هو عبادة الله وتقواه.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٥١-٥٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

ولأن الرسالة تعم العالمين ككل من الجِنة والناس ومن سواهما أجمعين، فالكل هم ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ كما و«كم» تعم رسل الجن إلى جانب رسل الإنس مهما كانت الرسالة الأولى على هامش الثانية.

فالرسالات كلها هي باتجاه واحد من إله واحد وإلى إله واحد، وكل رسول يحمل شرعة خاصة من الخمس، يجمع العالمين على رسالته، وكل لاحق هو على خط سابقه، وعلى كل أمّة لاحقة اتباع شرعتها اللاحقة، تركاً للسابقة صورة، وتمسكاً بها سيرة، فلم يكن القصد من شرعة بعد شرعة - وهي كلها عن دين واحد - أن تُختلق أمم متصارعة طول تاريخ الرسالات، حيث الاختلافات على أية حال مرفوضة، والوحدة في كل حال ملحوظة مفروضة ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1]!:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[2] ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾[3].

فقد أمروا بالتوحد في دين الله بشرعته ولكنهم ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ...﴾ تقطعاً إلى أمم، وتقطعاً في كل أمّة إلى مذاهب، وتقطعاً في كل مذهب أيضاً إلى مذاهب... ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم﴾ وهو دينهم بشرعتهم، رغم أن ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ في الأولى تكويناً وديناً، وفي الأخرى خلقاً جديداً وجزاءً على دين! أمر واحد لله هو أمرهم، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا...﴾[4] ولكنهم بديل أن يظلوا تحت ظله متوحدين،

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٤) سورة الجاثية، الآية: ١٨.

جعلوا أمرهم فُرقة وإمراً، تفرقاً في الأهواء، واختلافاً في الآراء، وتقسُّماً في المذاهب، وتشعباً في الولائج.

فقد كانوا حسب وحدة التكوين ووحدة الدين أمّة واحدة، بينهم وسائل متناسجة، وعلائق متشابكة، ثم تباعدوا تباعد قطعٍ لتلك العلائق، وشذبٍ لتلك الوسائل، فصاروا أخيافاً مختلفين، وأوزاعاً مفترقين، وأوضاعاً مختلقين.

وهل من منجى في ذلك البين البائن، والاختلاف الشائن، أم كل في شأنهم شائنون؟.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

إنما الأصل المنجي في هذا البين والبينونة هو عملٌ من الصالحات على ركيزة الإيمان، جناحان لأي مؤمن يعمل من الصالحات، يجنحان به عن كل مصيدة ومكيدة إلى سماء الرحمة والرضوان، فأيًّا كان الإيمان وعملٌ من الصالحات، ومن أي كان وأيان ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ لصالح العمل بصالح الإيمان «وإنّا» بجمعية الصفات رحمانية ورحيمية «له» لسعيه إيماناً وعملاً صالحاً ﴿كَٰتِبُونَ﴾ في مختلف الكتابات الأربع: أعضاءً وأجواءً وملائكةً وأنبياءهم شهداءَ على الأعمال يوم يقوم الأشهاد، وهي كتابة الاستنساخ لمثلث الأحوال والأعمال والأقوال في سجلاتها كما هيه.

أجل، فالإيمان أينما حلّ بصالح العمل كان مشكوراً محبوراً مهما اختلفت الدرجات، كما أن ما سواه أينما حل كان مكفوراً منكوراً مهما اختلفت الدركات.

وكضابطة شاملة توضّح الآية آية البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ

رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١] وكذلك الأمر في آية المائدة (٦٩) وآية آل عمران أوضح من جهة: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾[٢].

إذاً فـــ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[٣].

﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ إذاً لسعي الساعي المؤمن العامل من الصالحات مهما كان يهودياً أو نصرانياً، ولا شكران لغير الساعي بمجرد أنه مسلم ولكنه لا يعمل من الصالحات وهو مؤمن، إلا أن الإيمان الإسلامي وعمل الصالحات على ضوئه له درجته بين الدرجات، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾:

آية ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ بما بعدها هي معركة الآراء المتضاربة بين المفسرين، كلٌّ يحوم فيها حول ما يروم تأويلاً لها كما يروم، والتجرد في تفسيرها مع التأمل فيها وما يحتفُّ بها دون تحميل عليها، يهدينا إلى معناها ومغزاها.

هنا الموضوع ﴿قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ وهي كل قرية هالكة لذنوبها بعذاب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.
(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١١٣-١١٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

الاستئصال، على مدار الزمن في تاريخ الرسالات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾.

ثم ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ﴾ هي طابع الحرمان على القرى الهالكة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا...﴾ و﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ هي مادة الحرمان، فذلك الحرمان أياً كان هو لزام القرى الهالكة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ فيزول عنهم حرمانهم هذا، فلم يكن - إذاً - حرمانهم إلى يوم الوعد الحق على طول خط البرزخ، وانما ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ... وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ فهم فيه يرجعون.

ولأن الحرمان عرفياً ليس إلا عما يرام، فليكن رجوع القرى الهالكة قبل الفتح مما يرومونه، وكما هو الواقع المذكور في آيات عدة ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1] - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا...﴾[2].

فالرجوع إلى حياة التكليف هو أمل المجرمين، وآية ﴿لَا يَرۡجِعُونَ﴾ تخيِّب ذلك الأمل رجاء العمل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ... وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ فإذا هم راجعون لا للإصلاح، وإنما لذوق العذاب يوم الرجعة.

وذلك مضاعفة للعذاب الحساب، في ثالوث منه، هلاك في الأولى، ثم في رجوعهم يوم الرجعة إليها، ومن ثم في ﴿ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

فلأن الحرمان عن عدم الرجوع يوم القيامة لا يخص ﴿قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ فإنها يوم الجمع، وأن ذلك الحرمان محدَّد بـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ...﴾

(١) سورة السجدة، الآية: ١٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

فليكن رجوعاً خاصاً قبل يوم الجمع، وذلك حسب تلميحات آيات وتصريحات روايات محتوم على «من محض الإيمان محضاً أو محض الشرك محضاً»[١].

إذاً فـ ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ هي بيان لمادة الحرمان ﴿وَحَرَامٌ... أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أم هي بتقدير اللام «لأنهم لا يرجعون».

فقيلة القائل أن «لا» هنا زائدة، هي نفسها قيلة زائدة بائدة، اللهم إلا على غرار ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[٢] حيث تعني ما منعك عن السجود، ولكن الممنوع هناك غير مذكور، يعرف من ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ ما منعك عن السجود ألا تسجد، فلا زائدة هنا وهناك.

ثم ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ تحتِّم رجوعهم عند الفتح لأنه غاية محتومة لحكم الحرمان أياً كان، فإن كان حرماناً عن الرجوع إلى الدنيا فهو رجوع عند الرجعة واقتراب الوعد الحق، كما يلوح من الآية، وإن كان حرماناً عن عدم الرجوع فهم يرجعون ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ رجوعاً محتوماً عند الفتح، ومحروماً عنه قبل الفتح.

وفي الحرمان الثاني تعريض على الناكرين للرجوع يوم الدين، فإنهم لو صدقوا رجوع ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[٣] فما هم بمصدقي رجوعهم، والآية هنا تقول «وحرام عدم رجوعهم» يوم الدين، بل وعدم رجوعهم حتى يوم الفتح، فهم على أية حال راجعون مرة ليوم الجمع ككل، أم وأخرى قبلها ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ...﴾ وهو للقرى

(١) البحار ٥٣: ٣٩ عن أبي عبد الله عليه السلام.. وإن الرجعة ليست بعامة وهي خاصة لا يرجع إلا من محض الإيمان محضاً أو محض الشرك محضاً». أقول: والقرى الهالكة هي القدر المعلوم ممن محض الشرك محضاً فهم يرجعون.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٢.

الهالكة، وقد يعنيهم ﴿فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ في النمل ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا...﴾(١).

فالرواية القائلة أن القرى الهالكة لا ترجع لا تناسب آيتي الأنبياء والنمل، فهي مُؤوّلة أو مطروحة(٢).

وفي رجعة أخيرة إلى الآية ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ﴾ تعني حرماناً شاملاً على القرى الهالكة، يبيّنه ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ...﴾ أم لـ ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ...﴾ أم هم محرومون عن عدم الرجوع - إذاً - فهم يرجعون حتى.. فهم على آية حال راجعون يوم الرجعة ليذوقوا وبال أمرهم مرة أخرى، ولعذاب الآخرة أمرُّ وأنكى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ...﴾ فصلناها في آية الكهف، وأنه فتح الشر الشامل للأرض، حيث تملأ به الأرض ظلماً وجوراً، ثم يملؤها الله بالمهدي عليه السلام قسطاً وعدلاً.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٣.

(٢) البحار ٥٣: ٥٢ عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي بصير ومحمد بن مسلم عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام في الآية قالا: كل قرية أهلك الله أهله بالعذاب لا يرجعون في الرجعة فهذه الآية من أعظم الدلالة في الرجعة لأن أحداً من أهل الإسلام لا ينكر أن الناس كلهم يرجعون إلى القيامة من هلك ومن لم يهلك فقوله: ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص: ٣٩] عني في الرجعة فأما إلى القيامة يرجعون حتى يدخلوا النار.

أقول: ولكن لا يرجعون - أياً كان - محدد بـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا...﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢] فهم إذا يرجعون!

وفيه (٦١) عن القمي وقال الصادق عليه السلام: كل قرية أهلك الله أهلها بالعذاب لا يرجعون في الرجعة فأما إلى القيامة فيرجعون ومن محض الإيمان محضاً وغيرهم ممن لم يهلكوا بالعذاب ومحضوا الكفر محضاً يرجعون.

وفيه (١١٨) تفسير النعماني فيما رواه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: وأما الرد على من أنكر الرجعة وقوله سبحانه: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبيَاء: ٩٥] في الرجعة فأما في القيامة فهم يرجعون، أقول: ويرد كل ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ﴾ [الأنبيَاء: ٩٦] إذاً فهم عنده يرجعون!

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم كل من محض الكفر محضاً أحياءً وأمواتاً، حيث هم يحشرون يوم الرجعة عند اقتراب الوعد الحق.

ثم ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قد تعني كافة الأحداب والمرتفعات الجوية والبرية والبحرية، والنسل هو الانفصال عن الشيء، انفصالاً عن مثلث المرتفعات لإفساد الأرض بمن عليها، وانفصالاً عن أحداب الأصلاب والأرحام، إذاً فالأشرار كلهم ينسلون ولادة عن كل حدب، ونزولاً عن كل حدب.

وقد يعني: ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ فيما يعنيه، المفسدين من بني إسرائيل وسواهم ممن يعيث في الأرض فساداً في المرة الثانية من مرتي الإفساد الإسرائيلي، حشراً من كل حدب لجموع المفسدين، يرأسهم ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ و«بنو إسرائيل» كأصول، ثم وسائر المفسدين في الأرض هم على هوامشهم وآثارهم يهرعون.

فـ آية الإسراء ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[1] توصّل بني إسرائيل في عالمية الإفساد، وهذه توصل ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ إذاً فهما أصلان في ذلك الميدان، يتمازجان أم يتناحران في الإفساد العالمي بعلو كبير ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾[2]!.

فطالما لا ذكر عن ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ في الإفساد الأول، ولكنهم محادبون مع بني إسرائيل في الثاني ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

إن أحزاب الإفساد العالمي بأحدابها، ليست لتنهض النهضة الأخيرة

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧.

المدمرة إلّا عندما ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ تعبيداً سلبياً لإقامة دولة الحق، كما وإيجابيته هي التحصُّل على أنصار هذه الدولة المباركة.

فدولة الباطل الأخيرة تكرِّس كافة الطاقات المفسدة وإمكانياتها لكي تملأ الأرض ظلماً وجوراً، ثم دولة الحق تملؤها قسطاً وعدلاً.

وعلّ ﴿كُلِّ حَدَبٍ﴾ دون «كل مرتفع» للتأشير إلى أصلاب الأحداب الناسلة عنها كل يأجوج ومأجوج، وكذلك كافة القوات المتظاهرة المتظافرة، فإن أصل الحدب هو مرتفع الظهر، فإنه ظهير القوة البدنية، إذا فـ ﴿كُلِّ حَدَبٍ﴾ قد تعني كل طاقة مرتفعة مترفعة انتسالية، أم حربية وسياسية واقتصادية وثقافية وعقيدية أما هيه من أحداب وقوات بشرية، حيث تُحشر في آخر الزمن، فتهدر الإنسانية إلى هوّات البهيمية من ناحية وإلى سقطات مختلف الموتات روحية وبدنية من أخرى، فتصبح الحياة الإنسانية ظلمات بعضها فوق بعض، ويحلّق الظلم على كافة جنبات الحياة، فلا يبقي من الحيوية الانسانية أثراً وثمراً إلا اجترم، ولا حرمة إلا اخترم، حتى يقوم قائم الحق الذي «به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً»! وقد تؤشر ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ لبني إسرائيل، أن يأجوج ومأجوج، هم أياً كانوا، ليسوا إلا من جنودهم الأصلاء في الإفساد العالمي بعد الجنود الإسرائيليين، حين يسيطر بنو إسرائيل على كافة الأحداب، فتنسل يأجوج ومأجوج ومن معهم من «كل حدب» وكما هم أنفسهم ينسلون.

فإذا تم فسادهم وطمّ ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا في دولة الإمام القائم المهدي عليه السلام، وهناك في القيامة الكبرى قائلين هنا وهناك: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فإنها كانت غفلة التغافل التجاهل، عامدة مقصرة غير قاصرة،

تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة الرائعة المروِّعة بغتة فيذهل ويشخص ببصره فلا يطرف، ويدعو بالويل والثبور، معترفاً بالتقصير متندماً وقد فات الأوان.

فهذه الدولة المباركة السعيدة - بتلك الرجعة عندها - هي من أشراط الساعة، كما والرسول محمد ﷺ هو نبي الساعة ونبوته من أشراط الساعة، كما وبعض آياته الرسالية كانشقاق القمر، هي من أشراط الساعة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[1] ولكنما الدولة الأخيرة هي أقرب شرط من أشراط الساعة، وهي باقية حتى الساعة!.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾:

﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ تعم كل ما يُعبد من دون الله أوثاناً وطواغيت، فلا تعني «ما» فقط غير ذوي العقول بل وذوي العقول أيضاً كالطواغيت فإنهم أحرى حصباً لجهنم مما لا يعقل، ولا ضير في شموله - إذاً - لعباد الله الصالحين حيث هم ناجون لمكان مكانتهم من الله، وإنهم لم يدعوا أحداً إلى عبادتهم، وقد سبقت لهم الحسنى فهم عنها مبعدون كما بعد آيتين، واستعمال «ما» في ذوي العقول، أو في المجموعة غير شاذ في القرآن، و﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تؤيد هنا العموم، وعلّ «ما» هناك دون «من» للتأشير إلى أن عبادتهم خلاف المعقول، وأن الداعي منهم إلى نفسه داعٍ إلى غير معقول، فغير الداعي الذي لا يدعي لنفسه ما يدّعون، كالذين سبقت لهم الحسنى، فهم عنها مبعدون.

وترى هؤلاء الطواغيت حقاً عليهم أنهم معهم حصب جهنم، فما بال الأصنام وهي لا تشعر وليست لها دعوة؟.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١

إنها لا تلمس العذاب ولكن عابديها يلمسونه بما تدخل هي في النار، عذاباً لهم فوق العذاب إن آلهتهم كأمثالهم وقود النار، فكما أن أبدانهم أنفسهم لا تحس العذاب وإنما الإحساس للأرواح، كذلك أوثانهم، والقصد إيصال العذاب نفسياً إلى أرواحهم الجهنمية، وكما تبينه:

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

حيث الإله يورِد النار ولا يردها، إذاً فما هؤلاء الواردون فيها بآلهة، وكلّ من العابدين والمعبودين فيها خالدون، وهذه الحجة برهان واقعي ووجداني ينتزع من نفس المشهد الواقع هناك، المعروض عليهم هنا وكأنه المشهود الآن! وحصب جهنم هي وقودها التي تتقد النار بها، لأنهم أصول الضلالة عابدين ومعبودين، فليكونوا أصول الجحيم ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[1] فالناس هم العبدة والطواغيت هم المعبودون والحجارة هي الأصنام ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[2].

فما الحصب - فقط - الحطب، إذ لا حطب في الجحيم، وإنما الوقود أجساداً وأحجاراً هنا، ووقودات أخرى تناسب تلك النار المتأججة الشديدة، من طاقات حرارية فوق ما نعرفها في حياتنا الدنيا.

والحصب في أصل اللغة هو ما يرمى به من الحصباء وهي الحصى الصغار، يقال: حصبنا الجمار: قذفناها بالحصبات، فشبّه سبحانه قذفهم في جحيم النار بالحصباء المرمية فيها، من ذلّ مقاذفهم، وهوان مطارحهم.

ولماذا هناك ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ وهنا ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾؟ علّ اللام للتأشير أنهم كحصب الوقود يصلحون للنار حيث يصلحونها إحراقاً لمن في

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

النار، فمن أهل النار من يردها وهم المصطلون بوقودها الصلاء، ومنهم من يردونها لأنهم أنفسهم الصلاء.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

﴿لَهُمْ﴾ العابدين والمعبودين اللهم إلا غير ذوي العقول منهم ﴿فِيهَا زَفِيرٌ﴾ وهو صوت بردّ النفس إلى داخل ضغطاً عليها حتى تنتفخ منه الضلوع، وازدفر فلان كذا، إذا تحمله بمشقة فتردد فيه نفسه، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ بعضهم أصوات بعض كما لم يسمعوا يوم الدنيا صوت الحق.

وحين يصل الأمر إلى ذلك الحد الحديد الإمر، قد ينبري المشركون قائلين للنبي ﷺ: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ...﴾ وقد عبدنا الشمس والقمر والملائكة وعزيراً وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟! فتنزل إذاً:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[1]:

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٥٩ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية وجد منها أهل مكة وجداً شديداً فدخل عليهم عبد الله بن الزبعرى وكفار قريش يخوضون في هذه الآية: - ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ [الأنبياء: ٩٨] - فقال ابن الزبعرى: أمحمد تكلم بهذه الآية؟ فقالوا: نعم - قال ابن الزبعرى: لئن اعترف بها لأخصمنه فجمع بينهما فقال: يا محمد أرأيت الآية التي قرأت آنفاً فينا وفي آلهتنا خاصة أم الأمم وآلهتهم؟ فقال: بل فيكم وفي آلهتكم وفي الأمم وفي آلهتهم إلا من استثنى الله فقال ابن الزبعرى: خصمتك والله ألست تثني على عيسى خيراً وقد عرفت أن النصارى يعبدون عيسى وأمه وأن طائفة من الناس يعبدون الملائكة؟ أفليس هؤلاء مع الآلهة في النار؟ فقال رسول الله ﷺ: لا، فضجت قريش وضحكوا، قالت قريش: خصمك ابن الزبعرى فقال رسول الله ﷺ: قلتم الباطل أما قلت: إلا من استثنى الله وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾، وقوله: حصب جهنم يقول: يقذفون فيها قذفاً وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ويعني الملائكة وعيسى ابن مريم عليه السلام.

وفيه عن قرب الإسناد للحميري بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن رسول الله ﷺ=

﴿... مُبۡعَدُونَ﴾ عابدين ومعبودين، وسابق الحسنى وسابغة الأحرى هو للملائكة والنبيين، مَن عُبِدوا من دون الله وسواهم على سواء، فإنما حصب جهنم هو للدَّاعي إلى نفسه كإلَّه، والمتقبل أن يُعبد من دون الله وإن لم يدع إلى نفسه صراحاً، والعابد من دون الله، فذلك الثالوث المنحوس ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ثم سائر أهل النار يُتحصَّبون بهم اتقاداً في النار، حيث يُتحسَّبون منهم أتباعاً.

﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ هم السابقون والمقربون وشطر من أصحاب اليمين الداخلين الجنة بغير حساب، مبعَدين عن النار على طول خطها في البرزخ والأخرى، ثم بين من هم حصب جهنم والسابقة لهم الحسنى، درجات ودركات لم يذكروا هنا وهناك.

والحسنى السابقة، منها الصابغة لهم استجابةً لربهم: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾[1] وهي السابغة لهم الحسنى الأخرى كما هنا وفي سواها: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾[2].

= قال: إن الله تبارك وتعالى يأتي يوم القيامة بكل شيء يعبد من دونه من شمس أو قمر أو غير ذلك ثم يسأل كل إنسان عما كان يعبد فيقول كل من عبد غير الله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، قال: فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة: اذهبوا بهم وبما كانوا يعبدون إلى النار ما خلا من استثنيت فأولئك عنها مبعدون.

وأخرج مثله في الدر المنثور ٤ : ٣٣٨ بألفاظ عدة يجمعها ذلك الاستثناء، ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: جاء ابن الزبعرى إلى النبي ﷺ فقال: تزعم...

وفي تفسير البرهان ٣: ٧٢ عن محمد بن العباس عن النعمان بن البشير قال: كنا ذات ليلة عند علي بن أبي طالب عليه السلام سماراً إذ قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فقال: إنا منهم وأقيمت الصلاة قريب وهو يقول: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] ثم كبّر للصلاة، ورواه أيضاً صاحب كشف الغمة عن النعمان بن بشير.

وفي تعليقات إحقاق الحق ٣: ٣٩٠ عن أبي حيان الأندلسي وروي أن علياً كرم الله وجهه قرأ هذه الآية ثم قال: أنا منهم (بحر المحيط ٢٦ : ٣٤٢) وممن أخرجه الترمذي في مناقب مرتضوي (٥٩) والألوسي في روح المعاني ١٧ : ٨٩ والبيضاوي ٣: ١٠٠.

(١) سورة الرعد، الآية: ١٨.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣١.

وهي الحياة الحسنى الموعودة لهم سابقة فقد ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ واقعاً هنا ووعداً لما هناك.

ولماذا ﴿مُبْعَدُونَ﴾ وهي تلمح بدخولهم فيها ثم إبعادهم عنها؟ علّه لأنه ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[1].

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾:

والحسيس هو الصوت المحسوس من زفير وشهيق، ولكنهم وهم واردوها مع أهلها كما لا يعذبون بحرّها، كذلك ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ ثم ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ عند ورودها وخروجها ودخول الجنة، دون أي سغب ولا لغوب.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

ومن الفزع الأكبر ما يَطمُّ كل أهل الحشر في النفخة الأولى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[2] وذلك فزع الصعقة للأرواح موتاً أم غشية: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾[3] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾[4].

فلأنهم - وهم ممن شاء الله - لا يفزعون ولا يصعقون في تلك النفخة

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.
(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٤) سورة الحج، الآيتان: ١، ٢.

ولا يعذبون بعذابها الشامل إذاً فـ ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ بل و﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقيامة الإحياء في النفخة الثانية ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ «فلا يبقى ذو روح إلا انخلع قلبه وطاش لله وذكر ذنبه وشغل بنفسه إلا ما شاء الله»[1].

قائلين لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وهذه الحياة المشرقة فيه هي من الحسنى السابقة لهم.

ليس فقط أنه ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ بل ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[2].

فلا الموت عن الحياة الدنيا يفزعهم لأنه لقاء الله، ولا النفخة المفزعة المصعقة تفزعهم أو تصعقهم، لأنهم ممن شاء الله، ولا أي فزع يومئذٍ، فإنما ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بكل سلام ووئام إلى يوم الله.

«فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره، رافق بهم رسله، وأزارهم ملائكته، وأكرم أسماعهم عن أن تسمع حسيس نار أبداً، وصان أجسادهمأن تلقى لغوباً ونصباً، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3] [4].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٦١ في إرشاد المفيد ولما عاد رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة قدم عليه عمرو بن معد يكرب الزبيدي فقال له النبي ﷺ: أسلم يا عمر ويؤمنك الله من الفزع الأكبر فقال: يا محمد وما الفزع الأكبر فإني لا أفزع؟ فقال ﷺ: إنه ليس كما تظن وتحسب أن الناس يصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقى ميت إلا نشر ولا حي إلا مات إلا ما شاء الله ثم يصاح بهم صحية أخرى فينشر من مات ويصفون جميعاً وتنشق السماء وتهد الأرض وتخر الجبال وتزفر النار بمثل الجبال شرراً فلا يبقى ذو روح إلا انخلع قلبه وطاش لبه وذكر ذنبه وشغل بنفسه إلا ما شاء الله فأين أنت يا عمرو من هذا؟ قال: ألا إني أسمع أمراً عظيماً، فآمن بالله ورسوله وآمن معه من قومه ناس ورجعوا إلى قومهم.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٩.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٤.

(٤) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

وفي ظل ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ «المتحابون في الله في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله على منابر من نور يفزع الناس ولا يفزعون»(١).

فـــــــ ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ. . .﴾ وتراه أي يوم ﴿يَوۡمُكُمُ. . .﴾ و﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ﴾؟ إنه:

﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾:

وذلك يوم قيامة الإماتة، فإذا لا يحزنهم ذلك الفزع العام الطام لأهل الحشر لأنهم ممن شاء الله فبأحرى ألا يحزنهم الأفزاع التي بعده في مسارح الحساب والجزاء.

وطي السماء هو نقض بنيتها وإعفاء جملتها عن صورتها، حيث تطوى حتى تجتمع بعد انتشارها، وتتقارب بعد تباعد أقطارها، فتصبح كالسجل المطوي وهو ما يكتب فيه، والكتب هنا جمع الكتابة.

إذاً نطوي أوراق السماء المتفرقة المتباعدة بما كتب عليها من كواكب، نطويها للكتب جديداً، لا طياً فيه القضاء التام الحاسم على السماء بكتبها، فللأخرى سماء كما للأولى، ولسماء الأخرى كتب كما للأولى بل هي أحسن وأحرى ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾(٢).

وقد يحتمل أن الكتب هنا كما في غيرها هي المكتوبات، فالسجل هو

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٤٠ - أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: . . . وأخرج البزار وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: للمهاجرين منابر من ذهب يجلسون عليها يوم القيامة قد آمنوا من الفزع، وأخرج الطبراني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: بشّر المدلجين في الظلم بمنابر من نور يوم القيامة يفزع الناس ولا يفزعون.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

الصحيفة المكتوبة هي فيها، إذا طويت انطوت بطيِّها كتبها عن الشهود، وهي في الغيب لا تخلو عن وجود، فكما السجل المطوي لا ينعدم، وكتبها لا تنمحي عن الوجود، كذلك سجل السماء بكتبها الأنجم، وكتبها الأعمال المسجلة عليها، المستنسخة فيها، إنها لا تنمحي، فمهما تنمحي صورة الكون، ولكن صور الأعمال باقية في سجلات الكون، حيث سجلت فيها للشهادة يوم يقوم الأشهاد[١].

وعلّ «السماء» هنا هي صيغة أخرى عن الكون كله، فإنها مطلق الجو الحامل للكرات، والأرض كسائر الكرات من المعلقات في جو السماء.

والمعنيان - علهما - معنيّان، فالطيّان إذاً مرعيّان، وذلك يناسب الحالة الطليقة في أسلوب القرآن، وهما يناسبان هنا أدب اللفظ وحدب المعنى!.

آيات ثلاث بين أضرابها تقرر أن هناك مضاهاة بين العود والبدء، فكما كان أوّل خلق من الإنسان - وهو آدم - ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[٢] كذلك ثاني خلقه.

وكما الإنسان الأوّل خلق ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[٣] و﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[٤] ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾[٥] وكل ذلك دون تحوُّل للتراب منياً ثم جنيناً، ودون نسل من صلب ومكوث في رحم، بل هو قفزة من تراب إلى إنسان تسلُّلاً في سلالات، فكذلك خلقه ثانياً في المعاد، حيث يعاد كلٌّ من طينه كما يناسب العدل والحكمة الإلّهية وقضية الحساب والجزاء والخلود.

---

(١) تفسير البرهان ٣: ٧٥ ابن بابويه بسند عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن في الهواء ملكاً يقال له إسماعيل على ثلاثة آلاف ملك كل واحد منهم على مائة ألف يحصون أعمال العباد فإذا كان رأس السنة بعث الله إليهم ملكاً يقال له: السجل فانتسخ ذلك منهم وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٦.

(٤) سورة الصافات، الآية: ١١.

(٥) سورة الرحمٰن، الآية: ١٤.

فأصل القفزة في المَعاد للمُعاد كما الإنسان الأوّل، والتسلل فيها كما يخلق كل إنسان ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾(١) ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾(٢).

فسلالة الماء المهين هي النطفة الجرثومية المتسللة عنه، فليكن كذلك العود طبق البدء في صورتيه، قفزة في التحول، وتسلُّلاً عن ترابه.

إذاً فالمُعاد في المَعاد هو نفس النطفة التي خلقت منها، بما معها من الأجزاء الأصيلة التي تعيشها طول حياتها، وقد نمَّتها فطمَّتها وأتمَّتها جنيناً حتى ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٣) (٤).

ثم وكما بدأنا عراة حفاة كذلك الإعادة حيث «استبدلوا بظهر الأرض بطناً وبالسعة ضيقاً، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، فجاؤوها كما فارقوها حفاة عراة، قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية كما قال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٢، ١٣.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٧.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٤) الدر المنثور ٤ : ٣٤٠ – أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: يبعثهم الله يوم القيامة على قامة آدم وجسمه ولسانه السريانية عراة صفاة عزلاً كما ولدوا» أقول: المصدق منه الجملة الأخيرة وأما قامة آدم ولسانه فلا اللهم أن يعني كما خلق آدم من تراب.
(٥) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وفي المجمع ويروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تحشرون يوم القيامة عراة حفاة عزلاً (جمع الأعزل وهو الذي لم يختن) ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].
وفي الدر المنثور ٤: ٣٤٠ – أخرج ابن جرير عن عائشة قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعندي عجوز من بني عامر فقال صلى الله عليه وآله وسلم: من هذه العجوز يا عائشة؟ فقلت: إحدى خالاتي، فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن الجنة لا يدخلها العجوز فأخذ العجوز ما أخذها فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله ينشئهن خلقاً غير خلقهن ثم قال: تحشرون حفاة عراة غلفاً، =

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

بشارة عظيمة في إشارة تحملها هذه الكريمة بين الكريمات إلى الدولة الإسلامية الأخيرة العالمية، وعداً من الله محتوماً لا حِوَل عنه كما ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ . . .﴾[1].

فذلك وعدٌ للحياة الدنيا في عاقبتها ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] وكما وعدوا كذلك ميراث أرض الجنة طبقاً عن طبق: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ﴾[3] فـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ . . .﴾[4].

فلا يختص الوعد المكتوب ﴿فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ فقط ميراث الأرض بعد الموت برزخاً وأخرى[5] كما لا يختص بالحياة الدنيا وإن كانت هي الظاهرة من «الأرض» حين إطلاقها، وقد يؤيد الشمول لهما، تلحيق الآية بالأخرى وقبلها الرجعة إلى الأولى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ . . . . . . وَحَرَٰمٌ

= فقالت: حاش الله من ذلك فقال رسول الله ﷺ: بلى إن الله تعالى قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ . . .﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠، ١١.
(٥) تفسير البرهان ٣: ٧٥ عن محمد بن العباس بسند عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام في الآية قال: آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين ومن تابعهم على منهاجهم والأرض أرض الجنة أقول: قد يؤول أرض الجنة بأن أرض الدنيا حينئذٍ تصبح كأرض الجنة، أم أنها تشمل أرض الدنيا الجنة وأرض الجنة.

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ... وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ... إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ... يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ... وَلَقَدْ كَتَبْنَا...﴾ فلتحق آية الوراثة لـ ﴿عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ - ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ كلتا الوراثتين في كلتا النشأتين، فمهما كانت الأولى هي القدر المعلوم من نفس الآية، ولكن الثانية تلحقها بآيات القيامة وآية الزمر وأضرابهما، مهما اختلف ميراث الأخرى عن الأولى في درجات، ولكنهما يلتقيان في ظاهرة باهرة لدولة الإيمان، ولا سيما بين دويلات الكفر التي يقضى عليها في هذه الدولة المباركة الكريمة.

والوراثة الأولى لـ ﴿عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ هي السلطة الطليقة عن أسر الطواغيت بأسرها، ليبلغ بها ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ لها كما لا تهم المقدرة لهم في هذه الحياة، مادية - هي من الذريعة - ومعنوية هي الغاية المعنية في دولة مباركة عالمية، فلا ينتكسون حيواناً في وسط الحضارة المادية المزخرفة، ولا يهبطون إلى دركات اللّاإنسانية المتخلفة، ولا يبتعدون عن مظاهر الحياة متقشفين عن الماديات، إخلاءً لميادين الحياة للشيطنات والفرعنات، وإنما صلاحاً تاماً طاماً كافة جنبات الحياة، دون أن تزوى عنها شطرات، جاعلين غير الصالحين في زواياهم منعزلين عن كل حيوية إلا صالحة.

ونحن نرى طول التاريخ الرسالي والإنساني عدم التوازن والتناسق في الحياة الأرضية المرضية، حيث تشيل كفة من ميزانها وترجح أخرى.

فقد يغلب - تغلباً - على الأرض بكل ثرواتها وبركاتها جبارون وظلمةٌ وطغاة، أم همج متبربرون غزاة، أم كفار فجار يحسنون استغلال طاقاتها وثرواتها في الشهوات والحيوانات، وهي الأكثرية المطلقة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، فلا تبقي للصالحين رمقاً إلّا محقاً وسحقاً، وهم بين قاصرين لا حول لهم ولا قوة، ومقصرين متقشفين يرون الحياة انعزالية عن وراثة الأرض.

فحيثما يجتمع صالح الإيمان - وهو إيمان القلب - وصالح العمل الجبار في أمّة صامدة قائمة، فعندئذٍ تتحقق وراثة الأرض في كافة الحيويات الميسورة منها.

ولكن حين يفترقان هذان العنصران، فالميزان يتأرجف، فتقع الغلبة للآخذين بالواجهة المادية للحياة، حين يهمل المؤمنون الأخذ بها ذريعة لتحقيق دَولة الإيمان ودُولته.

فـ ﴿عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ هم الجامعون لكل صلاحيات الحياة وحسنييها، إذ لا قوة للإيمان بجنب القوات الكافرة وزخرفات الحياة، إلا على ضوء دولة قاهرة باهرة تحلِّق على كافة الطاقات الحيوية، مجتثة جذور الإفسادات والشيطنات، ليخلو جو الحياة لتطبيق الحق كما يحق.

تلكم البشارة المسجلة ﴿فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ هي الشاملة للصالحين ورثة للأرض، وللطالحين منعزلين عن وراثة الأرض، وهي كما يعلمه العالمون لم تتحقق حتى الآن، وحتى في زمن المرسلين، فلها - إذاً - ميعاد يأتي.

وترى ما هو الزبور من بعد الذكر، المكتوب فيه هذه البشارة، وما هو الذكر؟.

اللائح من ﴿ٱلزَّبُورِ﴾ مفرداً هو زبور داود تحمله آيات ثلاث، هذه ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾[1] مهما كانت هنالك سبع أخرى في جمعه الجامع لكل الزبر[2] وقضية الإفصاح في كتاب البيان القرآن «الزبر» - إن كان المعني من ﴿ٱلزَّبُورِ﴾ كل الزبر، إضافة إلى أن «الذكر» أيضاً من الزبر، توراة أم قرآناً أم سواهما مما زبر من كتابات الوحي.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

(٢) وهي ٣: ١٨٤ و١٦: ٤٤ و٢٦: ١٩٦ و٣٥: ٢٥ و٥٤: ٤٣ و٥٢ و٢٣: ٥٣.

و﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ السابق على هذا الزبور هو التوراة، ولأنه الأصل في الكتابات الإسرائيلية، وما تخصيص الزبور بالذكر ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ إلا لبالغ أهميته بين الكتابات الملحقة بالذكر، اللاحقة له، وإن هذه البشارة بينة صريحة في آيات من الزبور.

وقد أطلق الذكر على التوراة في هذه السورة مرتين ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾[1] - ﴿وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[2] و﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ كما تتعلق بمقدر «الكائن» ولقد كتبنا في الزبور الكائن من بعد الذكر، كذلك تتعلق بـ ﴿كَتَبۡنَا﴾ فهذه الكتابة تعم الذكر، ومن ثم - وعلى هامشه - الزبور، كتبنا في الزبور من بعدما كتبنا في الذكر.

بشارة مسجلة في كتابات التوراة خاصة وعامة[3] ومن بعد ﴿فِي ٱلزَّبُورِ﴾ وهو أبعد من التحريفات والتجديفات التي ابتلي بها الذكر، وقد يعني الذكر هنا كل ذكر سماوي قبل الزبور[4] كما نجد هذه البشارة تصريحة وإشارة في كتابات أخرى قبل التوراة وبعدها، ولا سيما في ﴿ٱلزَّبُورِ﴾.

أم أن ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ هو الذكر الحكيم في اللوح المحفوظ «عند الله» و﴿ٱلزَّبُورِ﴾ هو جنسه الشامل لمطلق الزبر السماوية[5].

وقد يعني ﴿ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ كل ما ذكر على الترتيب الرتيب، دون

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٤٨.

(٣) التوراة الخاصة هي الأسفار الخمسة، والعامة هي هيه وسائر أسفار الأنبياء من بني إسرائيل.

(٤) البرهان ٣: ٧٥ القمي في معنى الآية قال: قال: الكتب كلها ذكر الله أن الأرض يرثها عبادي الصالحون قال: قال: القائم عليه السلام وأصحابه.

(٥) نور الثقلين ٣: ٤٦٤ في أصول الكافي بسند عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سأله عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ما الزبور وما الذكر؟ قال: الذكر عند الله والزبور الذي أنزل على داود وكلّ كتاب نزل فهو عند أهل العلم ونحن هم.

اختصاص بواحدة دون الأخرى، مهما كان الأولى كل أُولى فأُولى حسب القرائن المسرودة عندها.

وزبور داود، المخصوص بالذكر هنا، يحمل تصريحات عدة بشأن وراثة الأرض في الدولة الأخيرة التي يقودها ابنه من بنته: القائم المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

وإليكم فيما يلي نصوصاً من تلك البشارة الغالية، تجدون تفاصيلها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» وهنا نماذج ملتقطة تحلق على كل ذكر في كتابات السماء.

ففي المزمور ٣٧ من الزبور: «ألا تفر من الأشرار ولا تحسد عمّال الإثم ٢ فإنهم مثل الحشيش سريعاً يقطعون ومثل العشب الأخضر يُذبلون ٨ كفَّ عن الغضب واترك السخط ولا تغتر لفعل الشر ٩ لأن عاملي الشر يقطعون والذين ينتظرون الرب هم يَرِثُونَ الْأَرْضَ ١٠ بعد قليل لا يكون الشرير تطلع في مكانه فلا يكون ١١ أما الودعاء يَرِثُونَ الْأَرْضَ ويتلذذون في كثرة السلامة ١٢ الشرير يتفكر ضد الصديق ويحرّق عليه أسنانه ١٤ الأشرار قد سلُّوا السيف ومدُّوا قوسهم لرمي المسكين والفقير لقتل المستقيم طريقهم ١٥ سيفهم يدخل في قلبهم وقسيُّهم تنكسر.. ١٨ الرب عارف أيام الكملة وميراثهم إلى الأبد يكون.. ٢١ الشرير يستقرض ولا يفي أما الصديق فيترأف ويعطي ٢٢ لأن المباركين منه يَرِثُونَ الْأَرْضَ والملعونين منه يُقطعون.. ٢٩ الصديقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد.. ٣٤ انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض إلى انقراض الأشرار تنظر.. ٣٨ لاحِظ الكامل وانظر المستقيم فإن العقب لإنسان السلامة ٣٨ أما الأشرار فيبادون جميعاً، عقب الأشرار ينقطع ٣٩ أما خلاص الصديقين فمن قبل الرب حصنهم في زمان الضيق».

هذه آيات بينات مكررات ثمان عدد أبواب الجنة تصرح ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ

يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ والآية (٣٤) تصرح أن داود عليه السلام من سواعد تلك الدولة المباركة في وراثة الأرض!.

وهذا الفصل فقط من الزبور يحمل أربعين آية كلها تحوم حوم انقراض الأشرار ووراثة الأرض للأخيار[١].

وفي المزمور ٧١: ١ - ٢٠ مواصفات للقائد الأول لهذه الوراثة ومنها ١٧ «يكون اسمه إلى الأبد، ما دامت الشمس، ينمو اسمه ويتبارك فيه جميع قبائل الأرض وتغبطه كل الأمم.. ١٩ وتبارك اسم مجده إلى الأبد ولتمتلئ الأرض كلها من مجده. آمين ثم آمين[٢].

وفي مزمور ٤٥: ١٨ «يكون بنوك عوضاً عن آبائك تقيمهم رؤساء على جميع الأرض».

وفي «أهونود گات» في يسناگاتها ٤٨: ٢ - ١١: الترجمة الحرفية عن الأصل البهلوي الأوستائي[٣]: «عرفني يا أهورا! (الله) هل أن قبل القيامة يوم الجزاء المحتوم سوف يهزم أتباع الصدق أتباع الكذب فإنه حقاً بشارة حسنة لهذا العالم.

وفي يسناها ٣٠: ١٠ بعد استرجاء الحياة الجديدة في آخر الزمن يقول: «وفي ذلك الزمان ينكسر عالم الكذب بفلاح الصدق، وكذلك في عالم الخير (القيامة)...».

وفي يسناها ٤٦: ٣ «متى يا مزدا (الله) يصلنا أوّل النهار، الشريعة الصادقة تشمل وتعم الكون.. للإنباء والإعلان بعثتك»[٤].

---

(١) راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية ٢٢٧ - ٢٢٨.
(٢) راجع رسول الإسلام ٢٢٩ - ٢٣٣.
(٣) نقلنا عن الترجمة الفارسية عن الأصل للأستاذ بور داود أستاذ اللغة الأوستائية في جامعة طهران.
(٤) راجع رسول الإسلام ٢٠٩ - ٢٢٢ - واوست يعزى إلى زردتشت لما قبل ستين قرناً وهو خليط من تعليمات إبراهيمية من صحفة وزيادات من زرداشت أم سواه.

وهنا آيات توراتية تدلنا على اجتماع كافة الأمم في آخر الزمن، وليس ذلك إلا عند وراثة الأرض للصالحين.

ففي سفر التكوين ٤٠ : ١٠ «لا تنهض عصا السلطنة من يهودا ولا الحكم من بين رجليه حتى يأتي شيلوه الذي يجتمع فيه كافة الأمم».

وذلك الاجتماع أمر واقع لا مردَّ له، دون أن يكون أملاً لا يتحقق، فإنه يعم أولي العزم من الرسل كافة دون اختصاص بـ «شيلوه» وفي التراجم العربية ١٧٢٢ و١٨٢١ و١٨٤٤ فسِّر «شيلوه» بـ «الذي له الكل وإياه تنتظر الأمم» وهذا هو حقاً رسول الإسلام الذي تجتمع الأمم في دولة المهدي القائم من آله[1].

وفي دانيال ٢: ٤٤ «وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إلٰه السماء مملكة لا تُنقَض إلى الأبد ومُلكه لا يُترك لشعب آخر فتسحق وتفنى جميع تلك الممالك وهي تثبت إلى الأبد، وفي الآية (٢٩) يعبر عنها بمملكة رابعة تكون صلبة كالحديد لأن الحديد يسحق ويطحن كل شيء فكما أن الحديد يحطِّم كذلك هي تسحق وتحطم جميع ذلك».

وفي دانيال ٧: ٢٧ «ويعطى المُلك والسلطان وعظمة المُلك تحت السماء بأسرها لشعب قِدِّيسِي العلي وسيكون مُلكه مُلكاً أبدياً ويعبده جميع السلاطين ويطيعونه».

وفي حبقوق ٣: ٣ - ٦ «الله من جبل فاران يأتي أبدياً. غطى جلاله السماوات وامتلأت الأرض من تسبيحه ٣ شعاعه كالشمس وشعٌّ من يمينه النور وهناك استتار قوَّته ٥ وقَفَ ومسح الأرض وأذاب الأمم وتبددت الجبال القديمة وخسفت وانحنت آكام وأتلال القدم مسالك الأزل له»[2].

---

(١) راجع رسول الإسلام ٢٣ - ٢٧.
(٢) راجع رسول الإسلام ٤٦ - ٥٣.

وفي إنجيل متى ٢٥: ٣١ - ٤٦ يذكر قيام المهدي عليه السلام قائلاً: ٣١ ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة معه فحينئذٍ يجلس على عرش مجده ٣٢ وتجمع لديه كل الأمم فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء ٣٣ ويقيم الخراف عن يمينه والجداء عن يساره ٣٤ حينئذٍ يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي خالقي رثوا الملك المعدَّ لكم منذ إنشاء العالم.. ٤١ حينئذٍ يقول أيضاً للذين عن يساره، اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الابدية المعدة لإبليس وملائكته...»[١].

وفي اشعياء ١١: ٩ بعدما يذكر ميزات لذلك الزمن يقول: «لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر ١٠ وفي ذلك اليوم أصل يسَّي القائم راية للشعوب إياه تترجى الأمم ويكون مثواه جيداً» وفيه ٦: ٢١ «ويكون شعبك كلهم صديقين وإلى الأبد يرثون الأرض...».

وفي إنجيل متى ٢٥... ٣٢ وتجمع لديه كل الأمم.. ٣٤ حينئذٍ يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي خالقي رثوا المُلك المعد لكم منذ إنشاء العالم...».

هذه نماذج يسيرة من هذه البشارة والتفصيل راجع إلى رسول الإسلام.

ثم «الأرض» هي الأرض كلها بكافة سلطاتها الروحية والزمنية حيث تلتقيان في زعيم الدولة الأخيرة، ثم آخرون من أضرابه الذين يجمعهم ﴿عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ وكما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله سناداً إلى الآية «فنحن الصالحون»[٢] فإنه يرأسهم يوم الدنيا ويوم الدين، و«هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم»[٣]

(١) المصدر.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٤١ - أخرج البخاري في تاريخه وابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فنحن الصالحون.

(٣) تفسير البرهان ٣: ٧٥ عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

و«هم أصحاب المهدي في آخر الزمان»[١] فهم - إذاً - كل صالح ليكون من أعضاء هذه الدولة المباركة وأعضادها من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، بمختلف درجاتهم.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

«هذا» هنا هو إرث الأرض للصالحين، وطبعاً فيه بلاغ لقوم عابدين، حيث يأخذون حريتهم وحيويتهم الطليقة الإيمانية في ذلك الزمن.

وذلك البلاغ يدفع قوماً عابدين للصمود في عبادة الله مهما بلغت بهم الصعوبات، ناظرين بلوغهم إلى ذلك الزمن، فلذلك يحضِّرون أنفسهم ليكونوا من أعضاء تلك الدولة الكريمة، دون تقشُّف وتقاعُسٍ عن القيام بواجباتهم الجماعية سياسية وثقافية واقتصادية وعسكرية أمّا هيه، وكما أمرهم الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ...﴾[٢].

فلقد جاءت هذه الرسالة الأخيرة كتاباً مفتوحاً للعقول المتفتحة، شاملة لكافة الأصول الحيوية البنّاءة للحضارة الحقيقية المرضية، واضعة أصول المنهج الدائم للحياة الإنسانية المتجددة، كافلة للعقل الإنساني حرية العمل بكفالة حقها في التفكير الطليق.

ومن قِيَم هذه المنهجية الحيوية أنها متوازنة متناسقة، لا تعذِّب الجسد لتسمو بالروح، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد، ولا تقيد الفرد - فقط - لتحقيق مصلحة الجماعة أو الدولة، ولا تُطلقه في نزواته وشهواته الطاغية لتوذي الجماعة، ولا تقيد - كذلك - الجماعة لخدمة الفرد، بل يستخدم كل فرد فرد لصالح نفسه ولصالح الجماعة على سواء.

---

(١) المصدر عنه ﷺ في الآية هم أصحاب المهدي في آخر الزمان.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

وهذه هي المصلحية اللابقة اللائقة لتأسيس الدولة العالمية، من عباد صالحين، و﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾:

وتلك الرحمة العالمية الرسالية لا تطبَّق إلّا على ضوء دولة عالمية، ولكي ينتفع منها العالمون أجمع ويستظلوا في ظلها، حين تذوب الفوارق الجغرافية والجنسية والعنصرية والطائفية أمّا هيه تحت رعاية هذه الدولة الأخيرة الإسلامية العالمية، وذلك من المعني لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾(١)، حيث الظهور الغلبة على الدين كله، وهو الطاعة كلها، إن ذلك يتخطى الأمل إلى العمل وليس إلا في دولة القائم عليه السلام.

صحيح أن كل رسالة مستقلة هي عالمية الاتجاه والرحمة مبدئياً، ولكنها - وحتى الرسالة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم ما حلّقت زمن رسولها وأئمتها - إلا الغائب - على العالمين ككلّ، وليس ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ غاية خيالية غير واقعية، بل إن لها واقعها في مستقبل الزمن.

لا بد في ذلك الزمن أن يتأثر العالمون أجمعون بتلك الرحمة طوعاً أو كرهاً، ليستروحوا فيها نسائم السماء الرخية في هجير الأرض المحرق المطبق، كلما ازدادوا تخلفاً عن الشرعة الإلّهية، يلمسون حاجة أكثر بهذه الرحمة.

ومن آيات تحليق هذه الرحمة الرسالية على واقع العالمين مستقبلاً، أن ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ تختص بهذا الرسول دون سواه كما النذارة المحمدية عالمية بواقعها، لا فقط في مغزاها ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[١] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مكـررة في القرآن (٧٣) مرة، وهم جموع المكلفين ولا أقل من ثلاثة مهما لم نعرف حتى الآن الثالثة، وتلك النذارة الذكر الرحمة تصلهم - يوماً مّا - أجمعين، ولم تصل لحدّ الآن كافة الناس وحتى نذارته، فضلاً عن واقع رحمته، التالية لتأثير نذارته!.

وقد يروى عن رسول الرحمة وَمَضات من تلك الرحمة العالمية وكما يقول: «إنما أنا رحمة مهداة»[٣] ولأنه كله رحمة ما كان يلعن أحداً من الطاغين قائلاً: «إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين»[٤] وإذا «قيل يا رسول الله ألا تلعن قريشاً بما أتوا إليك؟ قال: لم أُبعث لعّاناً إنما بعثت رحمة يقول الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله، اللهم إنا نشكو إليك فقد نبيّنا وغيبة وليّنا وشدة الفتن بنا وتظاهر الزمان علينا، اللهم فسهّل مخرجه واجعلنا من أنصاره وأعوانه آمين.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

فالتوحيد والتوحيد فقط هو العنصر الموحِّد الوحيد في تلك الرسالة الأخيرة المكملة لما قبلها، ومنه تنبثق الرحمة العالمية في كافة الجهات

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٤.
(٣) الدر المنثور ٤: ٣٤٣ - أخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ . . . وفي المجمع روي أن النبي ﷺ قال لجبرئيل لما نزلت هذه الآية: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم إني كنت أخشى عاقبة الأمر فآمنت بك لما أثنى الله علي بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] وقد قال ﷺ: إنما أنا رحمة مهداة.
(٤) المصدر أخرج أبو نعيم في الدلائل عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ . . .

والجنبات، إنقاذاً للعالمين من أوهام الجاهلية الجهلاء، ومن أثقال الوثنية الحمقاء، ومن ضغوط الخرافات الجارفة العمياء.

التوحيد الذي يربط الكائنات كلها إلى بعض، ويربطها إلى الله الواحد القهار، ويوحِّد كافة الفعليات والانفعاليات دون أية شتات واختلافات واختلاقات.

ذلك هو طريق الرحمة العالمية، وملتقى النعمة الشاملة للعالمين، الذين يتبناهما دين الله كله، وشرعة الله كلها.

هنا «إنما.. أنما» حصر على حصر يحصران ما يوحى إلى الرسول في ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ توحيداً أكيداً يحلِّق على الدين كله، مما يتفرع عليه أو ينحل إليه أم يتبناه عقائدياً وعملياً وقولياً وفي كافة الأمور المختارة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لذلك الوحي أم معرضون[1]؟

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ بعد كافة الحجج على التوحيد ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿آذَنتُكُمْ﴾ إعلاماً مُجازاً بالوحي بحق التوحيد وبمصير الذين يقولون عنه ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ حيث شملتكم الحجة فيها على سواء دون تمييز ولا تبعيض، وإذا أنتم تتساءلون متى هذا الوعد فـ ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ إذ لم يوحَ إلي إلا أصله دون أمده وفصله، سواءٌ أكان وعداً لعذاب الاستئصال هنا، أم لعذاب البرزخ بالموت، أم عذاب الآخرة بقيام الساعة مهما كانت قريبة نسبياً، فهذه الساعات الثلاث غيب إلا ما أظهره الله، ولم يظهر لي إلّا أصل ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ فإنه غيب من غيب الله لا سواه إلّا من أعلمه إياه.

فطالما الإيذان متعوَّد في الحرب كإعلام الإنذار لفترة السلم الاختبار، ولكنه هنا في العهد المكي حرب باردة في جبهة الاحتجاج المنذر، فالقصد

(١) المصدر أخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: قيل: يا رسول الله ألا تلعن...

منه - إذن - إنني قد نفضت يدي منكم، وتركتكم على علم بمصيركم في مسيركم.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾، من قول أو نية أم فعل، على سواء، فـ ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[1].

فأمركم مكشوف له كله، يعذبكم على علم وحكمة أو يرحمكم على علم وحكمة دونما فوضى جزاف.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١١١﴾﴾:

وذلك اللّاأدري هنا بارقة أمل لهم علّهم يفيقون عن غيهم فيرجعون، علّ الله يحدث بعد ذلك الإيذان أمراً بغير إمراً، إن أحدثتم أنتم أمراً فيه نجاتكم أم لأقل تقدير ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ تأجيلاً لعاجل العذاب إلى مستقبل من حياة التكليف، أم بعد الموت[2].

فهو بذلك التجهيل تأجيلاً وتعجيلاً يلمس قلوبهم المقلوبة لمسة قوية ويذرهم يتوقعون كل احتمال، وتوقع العذاب على غير موعد محدّد مضروب يترك النفس متوجّسة ترتقب في كل لحظة لحظة ما تُوعِّدت من عذاب، أم ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ تأجيلاً له فتنةً وابتلاءً فإلى رحمة أم مزيد عذاب.

ولما وصلت حالته الدعائية في بلاغه لهذا الحد الحديد المديد، هنا يتركهم مؤدياً أمانته، متوجهاً إلى من حمّله إياها، ملتمساً منه متطلباً:

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٠.

(٢) الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة أن النبي ﷺ كان...

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ﴾ بيني وبين هؤلاء المكذبين، حكماً لي بما بلّغتُ الرسالة كما حمِّلتُ، وحكماً عليهم بما كذبون، حكماً عينيياً بما كانوا يوعدون، كما حكمت بوحي من قبل، حكماً يطبّق ما حكمت.

وقد كانت الأنبياء تقول في نهايات الأمور ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[1] فاستنَّ الرسول بسنتهم في قوله ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ﴾ طلباً لإنجاز الوعد الحق، وقد كان إذا شهد قتالاً قال: رب احكم بالحق»[2].

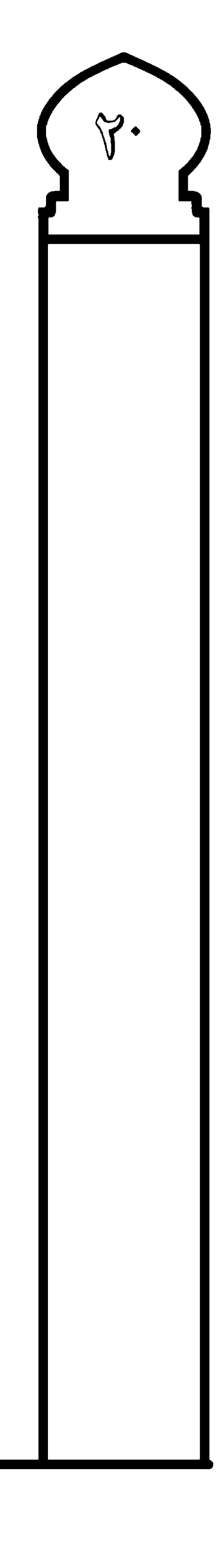
هذا - ومن ثم تأكيدٌ للحكم الحق في رجعة أخيرة إليهم ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ صاحب الرحمات كلها، ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ لرسله والمؤمنين به ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فلا يعجز عن عونهم ولا يخلف الميعاد.

ويا لهذه السورة ختاماً كما بدأت، تجاوباً في طرفيها بإيقاع نافذ باهض وبينهما حجاجات من حملة الرسالات، ثم تصديقات من كتلة مؤمنة ومن الآخرين لجاجات.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٦٧ في عيون الأخبار في باب جمل من أخبار موسى بن جعفر مع هارون الرشيد ومع موسى بن المهدي حديث طويل يقول فيه: رأيت النبي ﷺ ليلة الأربعاء في النوم فقال لي: يا موسى أنت محبوس مظلوم، فقلت: نعم يا رسول الله ﷺ محبوس مظلوم فكرر ذلك علي ثلاثاً ثم قال: وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين.

وفيه عن الاحتجاج للطبرسي وروي أنه لما قدم معاوية إلى الكوفة قيل له إن الحسن بن علي عليه السلام يرتفع على أنفس الناس فلو أمرته أن يقوم دون مقامك على المنبر فتدركه الحداثة والعي فيسقط من أعين الناس، فأبى عليهم وأبوا عليه إلا أن يأمره بذلك فأمره فقام دون مقامه في المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنكم لو طلبتم ما بين كذا وكذا لتجدوا رجلاً جده نبي لم تجدوه غيري وغير أخي وإنا أعطينا صفقتنا هذه الطاغية - وأشار بيده إلى أعلى المنبر إلى معاوية - وهو في مقام رسول الله ﷺ ورأينا حقن دماء المسلمين أفضل من إهراقها ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١] وأشار بيده إلى معاوية فقال له معاوية: ما أردت بقولك هذا؟ فقال: أردت به ما أراد الله عزّ وجلّ.



سُورَةِ الحَجِّ



مدنية وآياتها ثمان وسبعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١
يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ
حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ
ٱللَّهِ شَدِيدٌ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ
شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ
عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا
خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ
وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ
وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن
كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن
فِي ٱلْقُبُورِ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا

كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

سورة تسمى باسم أفضل فريضة من فرائض الله وأشملها تحليقاً على كلِّ شرعة الله، حيث تضم كل مرادات الله من الأمّة المرحومة في سبيلها إلى الله، فكأنها هي القرآن كله، وكما فضلت سورتها - فيما فضلت - على سائر القرآن بسجدتين اثنتين، وقد يروى عن النبي ﷺ: «فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[1] والثانية أوجب وأحرى بها لمكان الأمر بها.

ومدنية السورة لائحة من آي الهجرة، والإذن للقتال، وناصية القوة في

(١) هما الآيتان (١٨) و(٧٧) وفي الدر المنثور ٤: ٣٤٢ - أخرج أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي في سننه وابن مردويه عن عقبة بن عامر قال قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال ﷺ: نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما وفيه عن خالد بن معدان أن رسول الله ﷺ قال: فضلت سورة الحج على القرآن بسجدتين وأخرج ابن أبي شيبة عن علي وأبي الدرداء أنهما سجدا في الحج سجدتين.

العِدَّة والعُدَّة للمسلمين، المعَدَّة للنضال، وقد يلمح الإذن للقتال مع بعض السياق من آياتها، إنها من المدنيات الأوائل حيث أسِّست دولة الإسلام جديدة قائمة على ساق، محضِّرة نفسها لغزوات، وكما الظلال المحلِّقة على جو السورة هي ظلال القوة والهيبة والهيمنة والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى على الطغوى.

فإنها تبدأ بمشهد القيامة مزلزلاً مزمجراً، ثم عذاب الذين كفروا ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾(١) ومثل الشرك بالله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾(٢) ومن ييأس من نصر الله ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾(٣) ثم مشهد القرى الكافرة ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾(٤) وإلى الإذن في القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ...﴾(٥).

ذلك كله جو القوة مهما لمعت شذر من آيها كأنها مكيات أم نازلة بين مكة والمدنية، فإن جوّ السورة جو مدني إلا ما لمحت من هذه أو تلك، مهما شابهت بعض الشيء الجو المكي لأنها في بداية الهجرة، فليكن جواً هو عوان بين العهدين إلا في أمثال آيات القتال، والعقاب بالمثل، وقد يروى عن النبي ﷺ حين بايعه المدنيون وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل منى من الكفار فيقتلوهم، قوله: «إني لم أؤمر بهذا» حتى تمكنت دولة الإسلام فيها، فعندئذٍ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم...﴾(٦).

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٩.
(٢) سورة الحج، الآية: ٣١.
(٣) سورة الحج، الآية: ١٥.
(٤) سورة الحج، الآية: ٤٨.
(٥) سورة الحج، الآية: ٣٩.
(٦) سورة الحج، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

تبدأ السورة بزلزال الساعة وتختم بالجهاد حق جهاده ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾... جهاداً في الله بكل الجنبات، وبينهما متوسطات من توجيهات صادرة من مصدر القوة والشوكة الحالقة البالغة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾:

خطاب هام عام يشمل كل الناس، استجاشة لتقوى الله بدرجاتها، تهويلاً مجملاً في تجهيل: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ يستحثُّ عظيم التقوى العميم، اتقاءً عن عذاب يوم عظيم.

زلزلة الساعة وما أدراك ما زلزلة الساعة؟ إنها تعم الكائنات كلها، سماوية وأرضية أما هيه بما تُزلزِل السماء بأنجمها وطبقاتها، وتزلزل الكائنات برُمَّتها إلا من شاء الله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾[1].

أجل - إذا نفخ في الصور ونقر في الناقور، ترى النقرة النافخة والنفخة الناقرة تزلزل كل شيء عن كيانه وحيويته، فلا يبقى ساكن إلا ويسيَّر، ولا متحرك ماكن إلا ويرجف فيدمَّر، وتلك هي قيامة الإماتة والتدمير، ومن ثم الإحياء والتعمير ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾[2].

وقد تكون هذه الزلزلة من أشراط الساعة، فهي - إذاً - قبل النفخة النقرة، إلّا أن الزلزلة الثانية المحيية - كما تعنيها آيات الزلزال - قد تلمح أن الأولى هي المميتة، المتدرجة من أشراطها الثلاثة إلى تلك الصعقة الشاملة[3]: وكما

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢٣: ٢ روي عن رسول الله ﷺ حديث الصور أنه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعقة ونفخة القيام لرب العالمين، وإن عند نفخة الفزع يسير الجبال وترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذٍ واجفة وتكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح».

آية الراجفة تقرر رجفتين وهما صيغة أخرى عن الزلزلتين: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾[1].

رجفة الإحياء الرادفة لرجفة الإماتة، ثم لا رجفة قبلهما تعتبر زلزالاً هي من أشراط الساعة، وفي هذه الزلزلة الهائلة رَجَفان في القلوب من خوف، وزلات الأقدام من روعة الموقف.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: زلزلةَ الساعة، ورؤيتها هي لمسها بواقعها، وقضية الجمع في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ هي جمعية تلك الرؤية لأهل الجمع كلهم.

والذهول هو الذهاب والانصراف عن شيء بدهشة، و﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ دون «مرضع» علّها للإشارة إلى حالة الإرضاع، فتاءها - إذاً - للمبالغة فقد تكون مرضعاً في غير حالته، فذهولها - إذاً - ليس لمُذهل لأنها في غير حالته، وأما ذهولها حالة الإرضاع ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾، من رضيع ورضعة، فقد يكون أقوى من ذهولها عن نفسها، حيث المرضعة يهمها ما أرضعت أكثر من نفسها، فهي إذاً خالية عن نفسها، خاوية عن كل ما يهمها، من هول الموقف المزلزل كلَّ شيء.

ثم ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ لوقته أم قبله لوقعة الزلزال وانقلاب الحال، وقد تكفي هاتان الحالتان الهائلتان عرضاً عن حالات الآخرين، الواصلة لحدٍّ يبدل ﴿تَرَوْنَهَا﴾ بـ «ترى» حيث لا يتأثر بالزلزال، لأنه ممن شاء الله:

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ كأنهم سكارى الشرب ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٦، ٧.

الشرب ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فهم كما السكارى يتموَّجون في قالاتهم وحركاتهم كالمجانين خوفة من عذاب الله الذي يرصدهم، وتأثراً من زلزلة الساعة التي تحشرهم.

وكما أن شديد السكر والذهول قد يغشي ويُغمي ثم يُميت، كذلك تكون هذه الزلزلة المذهلة المسكرة: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] ومنهم رسول الله ﷺ حيث يرى الناس سكارى وليس هو منهم. ذلك ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾[2].

وترى الناس كل الناس إلّا من شاء الله «ذاهبة عقولهم من الحزن والفزع متحيرين»[3].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المخاطَبين بواجب التقوى، المكلفين بالتجنب عن الطغوى، مَن هُم في الحق نسناس: ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فالمجادلة في الله بعلم فطري أم عقلي أم تجريبي، بصورة مجردة غير دخيلة بالهوى، توصل صاحبها إلى حق في الله كوناً وكياناً وتوحيداً، حيث الكون بكافة ما فيه، من ظاهره وخافيه، مستخدَم في الحق للحصول على معرفة بالله قدر المحاولات اللائقة اللابقة في هذه السبيل.

ذلك وإن كان الله لا يجادَل فيه، ولكن الشكَّ القاصر شك مقدس، لا بد من إزالته بمجادلة قدسية هادفة لتخطّي الشك إلى اليقين وهذه من

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة المزمل، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٣) تفسير القمي قال قال عليه السلام في الآية: . . . وفي كتاب طب الأئمة عليهم السلام بإسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إني لأعرف آيتين من كتاب الله المنزل تكتبان للمرأة إذا عسر عليها تكتبان في ورق ظبي وتعلقه عليها في حقويها: بسم الله وبالله إن مع العسر يسراً - سبع مرات - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ - إلى - ﴿شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

المجادلة في الله بعلم حيث تنتهي إلى علم إذ تهدف العلم، وأما المجادلة المشككة المقصِّرة فهي على أية حال لا تملك أي برهان أياً كان وأيان، فهي - إذاً - مجادلة في الله بغير علم، لا يتبَّع صاحبها علماً، وإنما ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ من شياطين الجن والإنس، المجادلين في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

والمجادلة المشككة في الله تعم أصول الدين وفروعه، مبدأً ومعاداً وما بينهما من وحي ومواده، حيث الكل لله ومن الله لا سواه، والمتحري عن الحق لا يتطرق طريق الجدال في الله لأنها مخاصمة لا تعني إلّا إبطال الحق في الله و﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[(١)] ولا مصير لهم في ذلك المسير إلّا أن يأخذهم الله ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[(٢)]!.

وهذا الذي ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾: المرتفع الأملس، المتمرد على علم، هو لا سواه يعيش حياته الشيطنات والضلالات والتضليلات عاندةً عامدة، جامعة كل ضروبها من شتات أصحابها، حيث الشيطنات دركات، كما الهدايات درجات، ولكن: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[(٣)].

أصرفهم عن آياتي ختماً على قلوبهم فهم لا يعقلونها جزاءً بما كانوا يعملون، وصداً لهم عن الوقيعة فيها وصرف المؤمنين عنها.

وكضابطة أدبية - في الحوار عامة - إن الجدال بالباطل ممنوع، سواء

(١) سورة غافر، الآية: ٤.
(٢) سورة غافر، الآية: ٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

أكان لدحض الحق أم إثباته، فإن واجب الجدال على أية حال أن تكون بالتي هي أحسن ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[١] والجدال بغير علم باطل على أية حال، وإذا كان الجدال بعلم بغير الأحسن - كالحسن - ممنوعاً، فبأحرى الجدال بغير علم فإنه سيّىء أم أسوأ.

ويا ليت الذين يجادلون في الله جادلوا بعلم، لا بغير علم، تطاولاً أجرد عن كل علم، ناشئاً من اتِّباع كل شيطان مريد، فهو ركام من الجهالات والضلالات دون أية بارقة من حق، فلذلك:

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾:

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾: كل شيطان مريد ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ اتباعاً له في ضلاله وإضلاله، كما ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾: ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾[٢] فرأس الضلالة مكتوب عليه، سواءً أكان كل شيطان مريد، أمّن يتبعه في خطواته ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ دون شك ولا ريبة، لأن الضلال والإضلال كيانه، وهو شغله الشاغل في حياته، فلا يهديه إلى حق أبداً، بل ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هدًى إلى غاية الضلال ومصيره، وهذا تهكم في التعبير إذ يسمي قيادته إلى عذاب السعير هداية، أنه لا تتأتى منه هداية إلا إلى عذاب السعير، وما ألطفه جمعاً بين الإضلال والهداية عناية لمعنى واحد هو الضلالة!

وهذه الكتابة هي القضاء الرباني على الولي والمتولي، حيث إن كيان

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) في الوجه الأول ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ...﴾ [الحَج: ٤] مواصفة لكل شيطان مريد، وفي الثاني خبر بعد خبر لـ ﴿مَن يُجَٰدِلُ...﴾ [الحَج: ٣] والوجهان معنيّان لأنهما معنيان صالحان، ولو كان مخصوصاً بالاحتمال الأول لوجب جمع الضمير «عليهم» اعتبار بكل شيطان مريد، كما ولا يصلح اختصاصه بالثاني لأن الأول أحرى معنوياً لأنه أصل الإضلال، إذاً فـ «عليه» راجع إلى كل واحد منهما على البدل، جمعاً بين المعنيين.

الضلال لا يصدر منه إلا ضلال، وليس الله بمنجٍ من يضل بغير علم، أمَّن يتولاه على علم بضلاله، أم غير علم بهداه، اللهم إلا القاصر في تحريه عن الحق فعسى الله أن يهديه سواء السبيل.

فلا تعني ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ إن الله فرض ضلال من ضل بإضلال من أضل تسييراً دون تخيير إلى ضلال، وإنما هو بيان للواقع حسب الأسباب والمقتضيات، إن المتحري عن باطل ليتَّبعه ليس بحريّ إلا أن يحيق به الباطل الذي تحرى عنه وتمناه، معاكسة للمتحري عن الحق ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(١).

ومن المجادلة في الله هي المجادلة بغير علم في يوم الله، إحالة له بمحاولات جاهلة قاحلة، والله يبرهن لحقّه وواقعه هنا بواقع الحياة الأولى، وهم مصدقوها، دون إبداء مادة للبرهان بعيدة عنهم، بل هي ما يعيشونها طول حياتهم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ملحدين ومشركين أو موحدين مرتابين في البعث، حيث البرهان الحاضر ليس حاصراً فيمن يعتقد في وجود الله، فإن خلق الإنسان من تراب ثم.. ليس ينكره أحد، طالما المادي يزعم أن الخالق هو المادة،

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

ويرى المشرك أنه الله، والموحد لا يشرك في خلق وسواه، فالقدرة الخالقة للإنسان من تراب هي هي الخالقة له في المعاد، فالخلق أوّل مرة دليل إمكانيَّته مرة ثانية بل ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1]!.

﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ بعد الموت، والريب هو شك مسنود إلى برهان أم زعم البرهان، فلئن صدقناكم في ريبكم، فواقع خلقكم أول مرة يزيل واقع ريبكم، حيث الريب لا يصارع واقع البرهان أياً كان.

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ وجمعية الضمير فيها تعني جمعية الصفات في خلقنا، علماً وقدرة وحكمة وتصميماً وإرادة أما هيه من صفات ربوبية متطلَّبة في ذلك الخلق المنضَّد المتدرج العظيم، لأجنة مختلقة في الصُّوَر والسِّيَر، مُقرَّة في الأرحام أو ملفوظة ساقطة، ثم الطفل الخارجون عن الأرحام بين بالغ أشُدَّه أو متوفًّى قبله، أو مؤخر إلى أرذل العمر، فصورة الخلق وسيرته تدلاننا على إرادة وتصميم باختيار، دونما صدفةٍ فوضى جزاف! ﴿خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ خلق الإنسان الأول من تراب قفزة دونما تطور معوَّد في خلق سائر الإنسان، ثم وخلق أنساله متدرجاً حيث البداية هي التراب، من نطفة هي من دم هو من غذاء هو من نبات وحيوان هما من تراب.

فخلق الإنسان من تراب ضابطة صارمة تعم الإنسان الأول وأنساله، من أبوين كسائر الإنسان، أم دون أب كالمسيح عليه السلام وقد تلمح «كم» في خلقناكم، أن الإنسان بجزئيه مخلوق من تراب، فطالما اختلفا في حاضرة الصورة والسيرة، إلا أن أصلهما كليهما هو التراب، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ تراخياً عن الخلق الأول بأنساله، وفي سائر الخلق بأنساله، فأين النطفة والتراب، والمسافة بينه وبين النطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية مسافة هائلة!

والنطفة هي الدودة العلقة المتحولة بعد مراحل إلى جنين، وهي واحدة

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.

من ملايين العلقات في البحر المنوي وهو قطرة أم قطرات! فنقطة واحدة من تلك الملايين هي الدودة التي تلقح البويضة من ماء المرأة في الرحم وتتحد به فتعلق في جدار الرحم فتصبح علقة:

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ متحولة عن نطفة، الكامنة فيها كل خصائص الإنسان المقبل.

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وهي اللحمة الصغيرة المتحولة من العلقة، قدر ما يمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فما هي المخلقة وما هي غير المخلقة؟

التخليق هو التحليق في الخلق، فهو كمال الخلق الصالح لتحوله إلى جنين صالح، وغيره هو غير الصالح، سواءً سقط[1] أم أصبح جنيناً ناقصاً في عضو أو أعضاء.

ومن تخليق المضغة خلقها عظاماً، ثم كَسْوَتُها لحماً ثم إنشاؤها خلقاً آخر وهو كمال الجنين مهما كان ناقص الخلقة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[2].

ذلك ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وهنا محطّة للتبيين بين التراب والمضغة، وبينه وبين الطفل، تبييناً للقدرة القاصدة المصممة في خلقكم، وأنها هي الخالقة لكم في بعثكم مرة أخرى.

فقد توقّف فتسقط المضغة مخلقة وغير مخلقة، وأخرى ﴿وَنُقِرُّ فِى

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٧١ عن تفسير القمي قال قال: المخلقة إذا صارت تامة وغير المخلقة قال: السقط.

أقول: وهذا تفسير بأحد المصداقين لغير المخلقة، فلا بدَّ له مصداق آخر وهو من يولد ناقصاً قضية العموم في ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ [الحَجّ: ٥].

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢-١٤.

﴿ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ من مضغة مخلقة أو غير مخلقة ولكنها صالحة لتحولها جنيناً مهما كانت ناقصة الخلقة، فقد تقرّ غير المخلقة وتسقط المخلقة، وأخرى المعاكسة مهما كانت هي الأكثرية المطلقة الثُّلة، وتلك هي القلة.

فليس إقرارها في الأرحام لزاماً لكونها مخلَّقة رغم أنه طبيعة الحال فيها، ولا إسقاطها عنها لزاماً لكونها غير مخلقة، رغم أنها خلاف طبيعة الحال ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ أن هناك القدرة القاصدة عاملة، دون خلقة أوتوماتيكية فوضى جزاف.

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ من مخلقة وغير مخلقة، و﴿مَا نَشَآءُ﴾ من شكليات وحالات ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ في الذكر الحكيم المقرر عندنا، المقدر بإرادة عالمة حكيمة وتصميم، من ستة أشهر إلى تسعة، بزيادة طفيفة أم نقيصة.

«ثم» بعد قضاء مسمى الأجل ﴿نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ والطفل هنا جمع لا ينافيه ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ﴾[1] مفرداً مجموعاً، لأنه مفرد وجمع، ومن جمعه ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾[2] ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾[3] وتأويل كونه مصدراً يراد به الجمع عليل، حيث الظهور على عورات النساء ليس للمصدر، بل هو للصادر منه الظهور وهو هنا ذات الجمع، ثم ﴿طِفۡلٗا﴾ في ﴿نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ إخراج لذوات الأطفال دون طفولتهم.

وكون «الطفل» - الخارجين صغاراً لحدٍّ يصح التعبير عنهم بالمصدر - مبالغة في الصغر كرجل عدل، تنافيه مبالغة الكبر في ﴿ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ

(١) سورة النور، الآية: ٥٩.
(٢) سورة غافر، الآية: ٦٧.
(٣) سورة النور، الآية: ٣١.

يَظْهَرُوا۟...﴾ إذ لا تشمل الولائد الجُدَد، إلا الغُلمة المدركة المشرفة لذلك الظهور، كصاحب العشر وحواليها، فإن الأدنى منها خارج عن مقسم السماح والتحريم، فمن المضحك المبكي القول: بأنه يجب التحجب عن ابن خمس وحواليها، إذاً فمن طفولة التأويل، تأويل الطفل إلى المصدر توجيهاً لجمعية الموقف.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ شد الجسم والعقل والحكمة الجماعية، استيفاء لنموكم العضلي والعقلي والنفسي، شدّات رِدفَ بعض ولِصق بعضٍ بنفس الترتيب في الأكثرية المطلقة، قياماً على سوقكم في متطلبات الحياة، خروجاً عن كافة الطفولات الفردية والجماعية، العقلية والجسمية، ويا لها من قدرة حكيمة أودعت الوليد كل خصائص الإنسان الرشيد الشديد، التي تتكشف كلّ في أوانها المقررة له، كما أودعت النطفة كل خصائص الطفل وهي ماءٌ مهين!

فبلوغ الأشد هي الغاية القصوى من ذلك الإخراج، وهي أشُد الإنسانية السامية، دون البدنية الحيوانية إلا ذريعة وساعداً لشدِّ الإنسانية.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهذه المقابلة دليل أن التوفي هنا هو الأخذ وافياً في حياة الأشُد، ترقية لشدَّات الإنسان إلى القمة الصالحة، ثم إماتة له في تلك الحالة ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1] [2].

فلا يعني التوفي هنا - فقط - الإماتة فإنها تعم من يرد إلى أرذل العمر، بل هو التعمير بحالة الأشُد، ثم الإماتة عنها، خلاف من يُرَدُّ إلى أرذل العمر، إذ لم يتوفَّ من الناحية الأولى، أم هدّمت أشده التي تخطاها بأرذل العمر.

(١) سورة النحل، الآية: ٧٠.

(٢) هنا قول فصل في تفسير أرذل العمر فراجع سورة النحل.

ولأن العُمُر هو منذ الولادة حتى الموت، إذاً فأرذل العمر هو عمر الوليد الجديد -:

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ فمحور الرذالة هو اللّاعلم عقلياً ومعرفياً، دون النكسة البدنية، وهما الشدّان الإنسانيان، والثالثة البدنية هي الحيوانية المستخدمة المقارنة لهما زمنياً في الأكثرية المطلقة.

فيا ويلاه حين يردّ إلى أرذل العمر، مرتداً الى طفولته الطفلاء، في عواطفه وانفعالاته، في وعيه ومعلوماته، في تقديراته وتدبيراته، أقل شيء يضحكه ويرضيه، وأقل شيء يسخطه ويبكيه، ناسياً أوائل الأمور قبل انتهائها إلى أواسطها وأواخرها، فالتاً عن عقله الناضج وعلمه الهائج، المتخايل بهما المتطاول فيهما، ثم:

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: عواناً بين الموت والحياة، مستعدة للحياة فالهامد هو الحيوان الذي همد وسكن بعد حراكه، وخشع بعد تطالّه وإشرافه لعلة طرأت عليه فأصارته إلى ذلك، ثم أفاق من تلك الغمرة وصحا من هذه السّكرة فتحرك واستهب بعد هموده وركوده.

وكذلك حال الأرض إذا أماتها الجدب واهمدها المَحْل، ثم حالها إذا نضحها الغيث بسجاله، وبلَّها القطر ببلاله، واهتزت بنابتاتها ناضرة، وربت بعد الجفوف متزيلة، وذلك تقدير العزيز العليم! وهكذا التراب المخلوق منه الإنسان في المبدأ والمعاد، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أحييت فـ ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فتراها في حركة اهتزازية رابية نامية، وكأنها حيوانة عطشانة تشرب الماء وتهتز بعد همود وتفزّ بعد جمود ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ بهجة مختلفة الحيويات النباتية والحيوانية فإن ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[1].

فـ ﴿كُلِّ زَوْجٍ﴾ لا أقل من أن تعني كل الأزواج النباتية والحيوانية

(١) سورة نوح، الآيتان: ١٧، ١٨.

والإنسانية النابتة من الأرض، إضافة إلى معادن نابتة نتيجة نزول الماء ومزيجه ثم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1] تعم كافة جنبات الحياة النابتة عن الماء.

ذلك، وبالتالي تستنتج من هنا وهناك خلفيّات ولزامات خمس لا نكير لها إلا المتجاهل عن ذلك الخلق المتواصل الذي يعيشه طول حياته:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإحياء المتواصل لميتات الإنسان والأرض بكل نابتاتها ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ لا سواه، وكلّ حق سواه يتمحور الله الحق، فلا باطل منه أو إليه، وقضية الحق الطليق طلاقة الرحمة المتمركزة على الإحياء بغية بلوغ الأشدِّ للإنسان، وسائر البلوغ لسواه، ولو أن الحياة انحصرت في هذه الدانية الفانية كان الخلق عبثاً باطلاً ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[2].

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في المعاد كما يحيي هنا، فلولا الإحياء الآتي لكان الإحياء الآن باطلاً، ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سواء فيه شيءُ الإحياء الأول وسواه، أم أي شيء صالح للخلق والإحياء أياً كان وأيان.

فكما الحكمة في القدرة الطليقة تقتضي الإحياء في الخلق الأول، كذلك وبأحرى في الثاني ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[3] ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٢) سورة ص، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٤) سورة ق، الآية: ١٥.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ قضية الحق في الخلق والخلق الحق، ساعة يحاسَب فيها أهل التقوى والطغوى ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾(١) وإتيان الساعة هو قضية السنة الحقة المستمرة، أن لكل عملية ساعة تظهر فيها كما هيه، ساعة غير مجازية ولا مجازفة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ وهم الأموات حيث البعث حقهم العادل برحمة الرحيم الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(٢)؟

فحين تثبت إمكانية الإحياء مرة الأخرى بكرور الإحياءات في حياتنا الدنيا، وأن الخلق حق دون أي باطل، فلولا البعث لكان الخلق باطلاً ولعباً حين لا يُقتص للمظلوم من الظالم، ولا تظهر حقائق المساعي لكل ساعٍ.

وهذه الإمكانية بأولويتها الذاتية، هي ضرورية التحقق بدليل أن الله هو الحق فخلقه حقٌّ، وأن كتابات الوحي مخبرة بتلك الضرورة، وحتى لولاها لكان دليل العقل بالعدل فيه الكفاية لإثباتها.

أترى أن الحق يطوِّر الإنسان من تراب إلى نطفة وإلى اكتماله ليبلغ أشده في هذه الأدنى، وما هو ببالغها تماماً سعياً ونتيجةً قضيةَ العرقلات والزحامات، ثم لا يطوِّره بعد موته إلى حياة أرقى ليبلغ أشده بمبلغ ما بلغها في الدنيا، حين ﴿يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾(٣)؟.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾:

مقابلة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بـ ﴿وَلَا هُدًى وَلَا...﴾ تدلنا أن القصد منه هو العلم

---

(١) سورة طه، الآية: ١٥.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٣) سورة النجم، الآية: ٤١.

الذاتي، عقلياً أو فطرياً أو سواهما، فلتعنِ ﴿هُدًى﴾ العلم المكتسب من مكسب الحق اليقين تلقيناً، ثم ﴿كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ هو كل كتاب ينير الدرب على كل متحرٍّ للحق، وطبعاً هو كتاب الوحي.

والمجادلة في الله - إذا صحت وسلمت - لا تخرج عن هذه الثلاث، بعلم هو حجة الحق وأفضله الوحي المكمل لعلم الفطرة والوحي، أم هدًى من أصحاب الوحي مشافهة حاضرة، أم بالأخير ﴿كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ فيه العلم والهدى، وهذه تشرك في أنها حجة الحق دون ريب، وقد عبر عنها في آية مضت بـ ﴿عِلْمٍ﴾ وحقاً هو التعبير الصالح عن كل حجة صارمة، وهي كل ما يفيد علماً، دون أن يعارضه ما ينقضه أو ينقصه، وقد تتفارقان أن الأولى بشأن المقلِّدين لمكان «يتبع» والثانية بشأن المقلَّدين لمكان ﴿لِيُضِلَّ﴾ بعدها كفاية لأصحابها.

وذلك ترتيب رتيب في الحجة بدءاً بالعلم، ففيه الكفاية لمن يعلم، ثم هدًى لمن ليس له علم فيهتدي بعلم غيره، ومن ثم ﴿كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ فيه كل علم ذاتي ومستفاد.

وقد تعنيها الآية ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1] وإن كان ترتيبها غير ترتيبها، فالسمع هو هدى، والبصر كتاب منير، والفؤاد هو العلم المتفئد في القلب.

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ حال أنه يثني ويكسر عطفه، ليّاً بشدقه وعنقه، كبراً متعجرفاً، وإعراضاً ونأياً بجانبه، إعراضاً عن سماع الرشد واتباع الحق، يصرف دونه بصره وينثني عنه عطفه وعنقه بكل رعونة ودلال، رغم أنه ليس إلا في ضلال، مخيلاً إليه كأنه يملك ما يعوضه الحق، فهو - إذاً - أحق من كل حق، ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: يجادل.. ليضل، وثاني عطفه ليضل،

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

قرناً لإعراض الحال بإعراض المقال، ليحق الباطل والضلال بحال بعد مقال، وذلك أوقع في الإضلال، إن المجادل في الله بغير حجة، يثني عطفه متظاهراً أنه يملك الحق كله، بل هو الحق كلّه، وسواه باطل كله! «وليس أحدٌ أشد عقاباً ممن لبس قميص النسك بالدعوى بلا حقيقة ولا معنى»[١].

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ معنوياً أمام دعاة الحق وأهله، وأمام أصحاب العقول في كل الحقول، وخزي بعذاب الاستئصال والمعيشة الضنك رغم كل دلال ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ كما أحرقوا هنا عقول الناس بحريق الجهل والتجاهل جزاءً وفاقاً، ويقال له حينذاك:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ يد الروح والجسم، يد الجدال بغير علم وثَنْي العطف، يد العقل المدخول، والنفس الأمّارة بالسوء، وقد تعني ﴿يَدَاكَ﴾ كافة الطاقات التي كان يملكها، سلبية وإيجابية. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[٢] فمن كونه ظلّاماً للعبيد أن يجبرهم على الضلال والإضلال ثم يخزيهم بعذاب الدارين، ومنه ألا يعذبهم كما لا يعذب عباده الصالحين، تسوية بين المحسن والمسيء، أو يعذب المضلَّلين دون المضلِّلين، أو يعاكس أمرهما أمّاذا من ظلم هو بالنسبة لرب العالمين أن يكون ظلاماً للعبيد.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾﴾:

ذلكم الناس مقلَّدين ومقلِّدين كانوا هم النسناس المشركين، لا يعبدون الله على أية حال، وهؤلاء ناس موحدون ولكنهم لانحرافهم في حرفهم لعبادة ربهم خاسرون، فما هو ذلك الحرف الهارف الجارف الذي يزلُ به الأقدام ويُضل به أقوام؟

(١) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.

حرف الشيء طرفه وجانبه وهامشه، دون أصله ومتنه، ولكنه جانب له يربطه بغيره عند عدم الارتباط، إذاً فهو في أصله لا أصل له ولا معنى في ذاته ربطاً وسواه، ولذلك سمي الحرف في الكلام حرفاً لأنه جانب غير أصيل يربط أصيلاً بأصيل، اسماً باسم أم بفعل، فلا معنى له في نفسه.

وعبادة الله كسائر الأفعال قد تكون متأصلة في حياة العابد، متعرقة في قلبه وإلى جوارحه، فسائر أفعاله حرف، وسائر حيوياته هامشية على ذلك المتن المتين المكين، فلا ينحرف أو ينجرف عن عبادة ربه مهما قاست الظروف وعرقلت الحياة، بل وتزدهر وتنبهر تحت الضغوط وتلك عبادة الأحرار.

وتقابلها العبادة الحارفة المحترفة، التي هي حرف وأداة لما يهواه من حياته وشهواته، فأصله في حياته ما يهواه، فإن يعبد الله فهي على حرف وطرف وهامش من الحياة أم وجه واحد من وجوه العبادة، وهو وجه التجارة الدنيوية، فلا يعبد ربه على كل الوجوه، عبادة طليقة عن هواه ورضاه، فإنما اتخذ إلٰهه هواه يهوى منه كما يهوى من هواه، إذاً فهو عابد هواه دون الله.

فهي تزداد إذا زادت فيها نزوات الحياة، وتنقص أم تُنقض إلى ضدها إذا نقصت أو نقضت فيها نزوات، فليست عبادة الله له أصلاً يهدف، فإنما هي حرف يُحرف ويهرف.

يحترف بها لحيونة الحياة وشهواتها، أم إذا قارنتها فنعما هي، وإذا فارقتها فبئسما هي:

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ بحرف العبادة أم في ظرفها ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ بخيره لا بعبادته إلا كأداة وقرين، فعبادته إذاً ذريعة اطمئنانه بخير يهواه، فإن كانت المعصية توصله إلى ذلك الخير انقلب إليها لنفس الاطمئنان.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ﴾ بها أو في ظرفها ﴿فِتْنَةٌ﴾ وابتلاء ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ وعلّه حرفه الذي كان يعبد الله عليه حيث كانت العبادة وجهاً ظاهراً حارفاً لحياته دون أصالة، فهو ينقلب على حرفه ويترك العبادة حيث يراها - بزعمه - سبب الفتنة أم قرينة لها.

وهذه صفة الإنسان المضطرب الدين، الضعيف اليقين، الذي لم تثبت في الحق قدمه، ولا استمرت عليه مريرته، فأوهى شبهة تعرض له ينقاد بقيادها، ويفارق دينه لها، كالقائم على حرف مهواة، فأدنى عارض يزلقه، وأضعف دافع يطرحه.

وقد أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني فقال: إن الإسلام لا يقال، فقال: لم أصب في ديني هذا خيراً ذهب بصري ومالي ومات ولدي، فقال ﷺ: يا يهودي! الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة، ونزلت الآية»[1].

و«كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا: إن ديننا صالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا: ما في ديننا هذا خير فأنزل الله الآية[2].

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٤٦ - أخرج ابن مردويه من طريق عطية عن أبي سعيد قال: أسلم رجل...

(٢) المصدر أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال: كان ناس... وفيه عن الحسن كان الرجل يأتي المدينة مهاجراً فإن صح جسمه وتتابعت عليه الصدقة وولدت امرأته غلاماً وأنتجت فرسه مهراً قال: والله لنعم الدين وجدت دين محمد ﷺ هذا ما زلت أعرف الزيادة في جسدي وولدي وإن سقم بها جسمه واحتبست عليه الصدقة وأزلقت فرسه وأصابته الحاجة وولدت امرأته الجارية قال: والله لبئس الدين دين محمد هذا والله ما زلت أعرف النقصان في جسدي وأهلي وولدي ومالي.

ثم ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قد تعم أصل العبادة وفرعها، فالأولى هي العبادة الطليقة عن طقوس مقررة في الشرعة المرضية، والثانية هي المرضية، ومن الأول «هم قوم وحدوا الله وخلعوا عبادة من يعبد من دون الله فخرجوا من الشرك ولم يعرفوا أن محمداً ﷺ رسول الله فهم يعبدون الله على شك في محمد ﷺ وما جاء به فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: ننظر فإن كثرت أموالنا وعوفينا في أنفسنا وأولادنا علمنا أنه صادق وأنه رسول الله، وإن كان غير ذلك نظرنا»...(١).

هؤلاء الأغبياء، بعبادتهم الجوفاء الخواء قد يخسرون الآخرة والأولى بترك الدنيا للدنيا، متذرعين بعبادتهم والتظاهر بزي الصالحين لَذّات هذه الأدنى كالرئاسة الباطلة(٢) يفضلونها على سائر اللذات وهيهات هيهات من هذه الهُوّات، التي هي أركس من كافة الحيوانات والشهوات، يترك لذات ظاهرة لأخرى متخيلة مزخرفة باطنة، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ وظلّ على ظاهر تقشفه وعبادته ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ ترك الظاهر إلى متروك الباطن ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

فـ «السائر في مفاوز الاعتداء، والخائض في مراتع الغي وترك الحياء باستحباب السمعة والرئاء والشهوة والتصنع إلى الخلق، المتزيي بزي الصالحين، المظهر بكلامه عمارة باطنه وهو في الحقيقة خال عنها، قد

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٧٣ عن الكافي بسند متصل عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن هذه الآية قال: هم قوم.. قال الله عز وجل: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ [الحَجّ: ١١] يعني عافية في الدنيا ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ [الحَجّ: ١١] يعني بلاء في نفسه ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحَجّ: ١١] انقلب على شكه إلى الشرك...

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٧٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن الرضا عليه السلام حديث طويل يقول فيه: فإن في الناس من خسر الدنيا والآخرة بترك الدنيا للدنيا ويرى أن لذة الرئاسة الباطلة أفضل من لذة الأموال والنعم المباحة المحللة فيترك ذلك أجمع طلباً للرئاسة الباطلة.

غمرتها وحشة حب المحمدة، وغشيتها ظلمة الطمع، فما أفتنه بهواه وأضل الناس بمقالته؟..»[١].

ذلك بالرغم من أن العقيدة الصالحة هي الركيزة الثابتة الدائبة في حياة المؤمن، يدأب في تكميلها، ويعبد الله بحبها قدر المستطاع كالأصل القمة أو الوحيد في حياته، تضطرب الدنيا وأهلوها من حوله وهو ثابت لا تزعزعه أو تتجاذبه الأحداث، وتتهاوى حوله الأسناد وهو مستند في كل ذلك إلى قاعدة الإيمان القائمة على أية حال.

ليس الإيمان والعبادة هنا له رأس مال يتجربهما لمتعة الحياة الدنيا، فلا يعبد الله نَظِرةً جزاءٍ في هذه الأدنى، مهما كان ناظراً إلى الأخرى، بل هي هنا في ذاتها جزاءً فإنها الحمى الذي يلجأ إليه ولا يفجع لديه ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[٢]! أليس ذلك جزاءً إنه الثابت المطمئن في مهب الرياح، ومِن دونه مَن تتجاذبهم الرياح، وتتقاذفهم الأرباح، وهو كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، ثابت الصلة بالله راضياً بمرضاة الله؟.

والعبادة على حرف هي بصيغة أخرى عبادة التعابد، يعبد ربه إذا عبده وأطاعه ربُّه في هواه، كأنه يقول في ذلك الحرف: أعبدك حين تعبدني، ولا أعبدك حين لا تعبدني، تجارة فاجرة في العبادة، وهي في الحق عبادة الهوى، المتظاهرة بالهدى، وهي انحس مِن تركها، حيث التارك لها كافر، والعامل لها على حرف منافق أشر من كافر.

إن إصابة الخير الرخاء والفتنة البلاء عند العبادة كلتاهما فتنة وبلاء ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٣] بل الفتنة في الرخاء أفتن وأبلى منها في

---

(١) المصدر عن مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام: وأما السائر...
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

البلاء، فكيف عبر هنا عن فتنة الرخاء بالخير واختص التعبير بالفتنة للبلاء؟

ذلك، لأن مَن هذه عبادته لا يرى الخير بلاءً إذ لا يثقل على طبعه، والبلاء في مقياس الأغفال هو ما يثقل على الطبع، والمنافق لا يرى الخير إلا ملائم طبعه وموصل شهوته.

وتراه إن أصابته فتنة كيف ينقلب على وجهه، ولم تكن عبادته عبادة من أوّل أمره؟

ذلك لأن وجهه هو حرفه في عبادته، فإن إصابته فتنة ترك ذلك الحرف الظاهر أيضاً كما كان تاركاً لحقّ العبادة منذ كان ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

لقد كان يدعو الله في ظاهر الحال في إصابة الخير، ثم يجاهر في دعوة غير الله عند الفتنة:

﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾:

وهنا ﴿لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ قياساً إلى بغيته من دنياه، إذ لا ضار ولا نافع إلّا الله لا سواه، والانقلاب من دعاء الله الضارٌ النافع إلى دعاء غير الله غير الضار ولا النافع ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ فإن ترك أية دعوة كان ضلالاً قريباً علّه ينتبه فيدعو الله، ولكن الانقلاب من دعاء الله إلى دعاء غير الله ضلال بعيد ما أبعده! وليس فحسب أنه لا يضره ولا ينفعه، بل

﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾:

ومن ضره الأقرب خسار الدنيا والآخرة، وليس نفعه إلا تخيلاً لا يملك أية حقيقة وواقعية، فإن من يدعوه من وثن أو شيطان أو طاغ أو سند من بني الإنسان، ضرُّه في عالم الضمير إذ يتوزع القلب أثقالاً بالوهم والذل، وضره في عالم الواقع ولا سيما إذا وقعت الواقعة أنه ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ قرباً واقعياً على أية حال، مهما كان نفعه المتخيل أقرب زمنياً في الخيال.

ذلك، وأما المؤمن الذي يعبد الله أصلاً - لا حرفاً - وعلى أية حال، ولا يتخذ مولًى ولا عشيراً إلا الله، فهو رابح في كل الأحوال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾:

وليست هي فقط جنات الآخرة، بل وجنة الاطمئنان والرضوان هي عشيرته في دنياه وإلى عقباه، بل المؤمن هو جنات في عقليته ونفسيته، في عقيدته وعمليته، جنات في حياته كلها مهما اعترضته البلايا والرزايا، فإنها ليست بشيء بجنب رضوانٍ من الله واطمئنان بالله.

ذلك لـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ولا يريد إلا خيراً، عدلاً أو فضلاً، ومن دون الله ليس ﴿يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ إن كان ممن يريد، إذ لا تحلِّق قدرته على كل مراده، فضلاً عمن لا يريد من أوثان وأصنام!.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾:

هذه الآية من معارك الآراء بين المفسرين فهي حَريَّة بتدبر لائق بالغ علّنا نفسرها كما هي دون تحميل ولا تأويل، سرداً لمحتملات ثم سبراً وتقسيماً لكي نحصل على المعنى الأليق بلفظ الآية وموقفها.

الذي يبدو من جو الآية أنه كان هنالك غيظ من ظن لعدم النصرة الإلّهية في الدنيا والآخرة، ثم تعجيز بسبب ظاهر مقترح كيداً لإذهاب ذلك الغيظ ولن يذهب بأي كيد حيث الله هو الفاعل للنصر في الدنيا والآخرة وهو التارك له.

والسبب في أصل اللغة هو الحبل الذي يصعد به النخل، ثم كل ما يتوسل به إلى شيء مادياً ومعنوياً، فاعلياً أم ظرفاً معبَّداً لفعل، فهو - إذاً -

يعم كل وسيلة لكل ما يتوسل إليه كما ﴿تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾(١).

ومن الأسباب ما هي ظاهرة، ومنها غير ظاهرة يمكن التوسل إليها، ومنها ما لا يمكن التوسل إليها وبها إلا بما يسببها الله تعالى كما ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾(٢).

ثم هنا أسباب أرضية من ذلك المثلث وأخرى سماوية أكثرها من الثالث ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾(٣) وقد تأتي في مسرح التعجيز ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾(٤) وهي طرق السماء بوسائلها الغيبية.

والسبب في الآية هو الممدود الذي يحاول مادُّه أن يقطع، قطعاً لما يمد به، أم قطعاً لمسافة سماوية فيه، فكلٌّ منهما قطع، وكلاهما مما لا يتأتى لناس عاديين غير مؤيدين بنصرة إلٓهية خاصة.

إنه ليس حبل الخنق(٥) إذ لا يُمدَّ إلى السماء، وإنما إلى سقف ولا يسمى سماءً، ثم حبل الخنق لا يُقطع، بل يربط بشيءٍ عَلٍ ثم يعلّق عليه لكي يَخنق، مهما تصح عنايته ضمن المعنى الصالح فيعني القطع قطع نفسه بخنقه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٤.
(٣) سورة غافر، الآيتان: ٣٦، ٣٧.
(٤) سورة ص، الآية: ١٠
(٥) تفسير البرهان ٣: ٧٩ محمد بن العباس بسند متصل عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حدثني أبي عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال ذات يوم: إن ربي وعدني نصرته وأن يمدني بملائكته وأنه ناصري بهم ويعلي خاصة من بين أهلي فاشتد ذلك على القوم أن خص علينا بالنصرة وأغاظهم ذلك فأنزل الله الآية قال: ليضع حبلاً في عنقه إلى سماء بيته يمده حتى يختنق فيموت هل يذهبن كيده ما يغيظ.

إنما هو سبب ممدود من الأرض إلى السماء قصداً لعملية في أمر سماوي، قطعاً لرزق آتٍ منها، فـ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] رزق الآخرة والأولى، أم قطعاً لتلك المسافة الممدودة بسبب حتى يرقى مادُّه إلى السماء ليقطع، ثم هو بذلك الكيد يذهب ما يغيظ، حيث أغاظته النصرة الإلَهية سلباً أو إيجاباً، قطاً لسلبها حتى توجب أم لإيجابها حتى تسلب.

وهناك في الآية محاور ثلاثة: ظن فمدّ وغيظ، والظن كما يلوح هو الظن السوء بالله بإحالة نصرته في الدنيا والآخرة، والمدّ كوسيلة مقترحة تعجيزية تثبيتاً لتلك الإحالة، وإذهاباً لذلك الغيظ.

فهنا احتمالان اثنان في مرجع الضمير الغائب لـ ﴿لَّن يَنصُرَهُ﴾ أنه «مَن» المذكورة قبله نصاً، أم هو الرسول ﷺ، وجوّ الآية يناسبهما كليهما.

فالذي ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ... وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ... يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إنه يبلغ به انقلابه على وجهه لحدّ الظن أن ناصره غير الله فـ ﴿لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ وكما اختلج في بعض الخواطر الضعيفة كأن الله لا ينصر المؤمن لا في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك حينما أصابته فتنة فانقلب على وجهه آيساً في الضر من عون الله، فاقداً كل نافذة مضيئة، وكل نسمة رخيَّة بهيَّة من رَوح الله، فيستبد به الضيق والضنك ويستطيره إلى إياس مطلق عن رحمة الله، فيؤمر حينئذٍ تعجيزاً ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ مسافة بينه وبينها كيداً لإيجاب النصرة له، فيزول بذلك غيظه ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ به ومنه من عدم النصر؟!

وليعرف هؤلاء الأغفال أن ليست النصرة الإلَهية إلا بيد الله، وهو ناصر من نصره وتارك من تركه.

ثم المشركون الذين كانوا يظنون أن الله لا ينصر محمداً في الدنيا

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٢.

والآخرة في مسرح الجو المكي، حيث كان في أضيق الضيق، قياساً لغائب الآخرة إلى حاضر دنياه في مكة، وسناداً إلى أن من آمن ابتلي، إذاً فهناك ضابطة لهم - هابطة - ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ كما ﴿كَانَ يَظُنُّ﴾ تشير بمضيه البعيد إلى ذلك الظن البعيد البعيد، ثم رأوه بعد الهجرة منصوراً معززاً - والسورة مدنية - أخذتهم الغيظة الخانقة لما لمسوا الواقع المدني خلاف ظنهم المحيل لنصرته، فهنا الله يحمّلهم كيداً لقطع تلك النصرة العظيمة كما هو دأبهم الدائب، ومن قبل حاوله فرعون وأضرابه ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[1].

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فإن رسول السماء منتصر من سماء الربوبية، بجند من السماء ووحي من السماء ورزق من السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ هذه النصرة عن الرسول، أم ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ تلك المسافة إلى الملإ الأعلى، ولكي يقطع هناك سبب النصرة الإلٓهية لرسول السماء[2].

﴿فَلْيَنظُرْ﴾ إذاً ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ هذا المستحيل ﴿مَا يَغِيظُ﴾ من تلك النصرة الإلٓهية؟! إذاً فـ ﴿لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ تعم الرسول المظنون فيه، والظان، كلًّا لحدِّه، ولفظ الآية تحتملهما، والآيات السابقة عليها تلائمهما، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه، وهما من ذلك الأحسن، استنباطاً - دون أي تحميل - من نفس الآية بجوّها، مهما كان خَنقُه من الصالح ضمن المعنيين، فالقطع هنا قطع نفسه بخنقه[3].

---

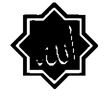
(١) سورة غافر، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣٤٧ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فإن أصله في السماء ثم ليقطع أي عن النبي الوحي الذي يأتيه من الله إن قدر.

(٣) الدر المنثور ٤ : ٣٤٦ - أخرج بعدة طرق عن ابن عباس في الآية قال: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب قال: فليربط حبلاً إلى السماء قال: إلى سماء بيته السقف ثم ليقطع قال: ثم يختنق به حتى يموت.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ العظيم العظيم، البعيد المدى، العميق المعنى ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ القرآن ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ لمن يتبين ويتحرى عن الهدى، دون المتجري عليها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ الهدى، فيريد الله له الهدى، دون فوضى في إرادته الهدى، فإنها إرادة ربانية لمن يريد الهدى، فلا تفيد إرادة الهدى للمهتدي ما لم تؤيد بإرادة الله، ولا يريد الله الهدى إلا لمن يريدها.



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾:

فِرقٌ ست متفارقين في العقيدة، سادستهم ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ مما يلمح أن الخمس الأخرى غير مشركين تماماً، فقد ينجون إذا كانوا صالحين أياً كانوا من الخمس، وكما تساندہ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] ومثلها (٥ : ٦٨) حيث حلقت الأجر على المؤمنين منهم وسواهم، إذاً فليسوا هم من المشركين.

وهنا ﴿اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ لأن فيهم مشركين ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فصلاً في الجزاء كفصلهم في عقائدهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يعزب عن علمه شيء فإنه عليم بذات الصدور.

فـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم المؤمنون بهذه الرسالة الجديدة المسمون بالمسلمين، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اتباع التوراة ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ اتباع الإنجيل، فأمّا «الصابئين والمجوس» فما الصابئون - خلاف ما قيل - من عبدة الكواكب إذ قوبلوا كما المجوس بـ ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فليسوا هم - لأقل تقدير - ممن محض الشرك محضاً مهما انحرفوا عن حق التوحيد كفريق من اليهود والنصارى وفريق من المسلمين، فعلّهم قوم بين أهل الكتابين كما تلمح له توسطهم بينهما في الذكر، صبؤوا من الدين الكتابي إلى شيءٍ من غير الكتابي مع الحفاظ على عقيدة التوحيد كما ذكرناهم في آية البقرة.

والمجوس هم الزرادشت وكتابهم المقدس «اوستا» وهم يقدسون النار دون أن يعبدوها كأصنام، ومهما يذكر في كتابهم اهورا مزدا وأهرمن كمبدئين للخير والشر ولكنهم يُنهون كل شيء إلى اهورا موجد الكل، إذاً فليسوا من الوثنيين الممحّضين الشرك، وكما يلمح له مقابلتهم كالصابئين بالذين أشركوا.

والذين أشركوا هم الذين محضوا الشرك محضاً، تاركين عبادة الله إلى عبادة الأصنام والأوثان.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب لكل راءٍ مهما اختلفت درجات الرؤية باختلافهم فيها، والمرئي لهم كلهم، بإمعان النظر ولمعان الفكر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ لا سواه، فهو مسجود الكل على الإطلاق في ذوات أكوانهم، خاضعين غايته ونهايته أمام مشيئته دون إمكانية التخلف ولا قيد شعرة، من عقلاء كـ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عامة، أم سواهم من جماد كـ ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أم نبات كـ «الشجر» وهو كل ما يتشجر من قائم على سوقه وغير قائم، أم حيوان: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾.

فهذه سجدة كونية ذاتية للكائنات كلها، مهما كانت ساجدة باختيار فـ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾[(١)] وأفضل التسبيح عملياً هو السجدة، فهي إذاً تعم الكل.

ذلك الكل، وأما الناس، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ فلهم سجدة باختيار إضافة الى كونية بشعور وسواه في أجزائهم الكونية ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ﴾ ولكنهم لا يسجدون باختيار، بل الأوليان: كونياً أمام مشيئة الله، وتسبيحاً لأجزاء ذواتهم كسائر ذوات الكائنات، فهم ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ﴾ بتركهم السجدة باختيار.

ففي مثلث السجدة نجد ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ﴾ يترك الزاوية المختارة، ولا تنفصم به الضابطة التي تعم الكائنات كلها، فالكون - إذاً - محراب واسع يسجد فيه الكائنات لربها طوعاً أو كرهاً: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم﴾[(٢)] أفليس يجدر بالإنسان وهو أفضل

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٥.

الكائنات كوناً وكياناً أن يجاويهما في ذلك السجود العام طوعاً كسجدته كرهاً، وأية مهانة أرذل وأذل أن يترك هذا الإنسان السجود المختار لربه فيهينه الله كما أهان هو نفسه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ دون الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

فهذه الآية توبيخة قارعة على تاركي السجود لله لو أنهم انتبهوا عن غفوتهم، ومن الراجح جداً أو الواجب أن تسجد عند قراءتها أو استماعها، وكما مضت أحاديث عن النبي ﷺ حين سُئل: يا رسول الله ﷺ أفضِّلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[1].

ثم الإرادة و«المشية من صفات الأفعال فمن زعم أن الله لم يزل مريداً شائياً فليس بموحد»[2] حيث الأفعال على أية حال حادثة كسائر الحادثات، ثم وليست مشيئة الله تابعة لمشيئة خلقه أياً كانوا[3].

وقد يتساءل أن كثيراً من الناس لما يعرفوا معنى سجود الكائنات فضلاً عن واقعه، فكيف يتساءلون ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كأنهم يرون سجودها رأي العين أم رأي العلم؟

والجواب أن النظرة المجردة الفاحصة عن حالة الكائنات ككل تجاه

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٤٢ وفي نقل آخر عنه ﷺ فضلت على القرآن بسجدتين، وفي ثالث عن علي وأبي الدرداء أنهما سجدا في الحج سجدتين.

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٧٦ عن التوحيد للصدوق وبإسناده إلى سليمان بن جعفر الجعفي قال: قال الرضا عليه السلام: . . .

(٣) المصدر عن التوحيد بإسناده إلى عبد الله بن ميمون القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: قيل لعلي عليه السلام إن رجلاً يتكلم في المشية فقال: ادعه لي قال: فدعاه فقال له: يا عبد الله خلقك الله لما شاء أو لما شئت؟ قال: لما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: إذا شاء قال: فيدخلك حيث يشاء أو حيث شئت قال: حيث شاء، قال: فقال له علي عليه السلام: لو قلت غير هذا لضربت الذي فيه عيناك.

إرادة الله، يريهم كلهم أنها خاضعة لإرادة واحدة، فلو كانت هنالك كثرة لفسدت بمختلف الإرادات، فتلك الوحدة الكونية بنضدها ونسجها بمسير ومصير واحد، تدلنا على كمال خضوعها دون تلفت وتخلف عن إرادة الله الواحد القهار، فهو هو المسجود لا سواه، فحريٌّ أن لا يُعبد إلا إياه.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾:

﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ هنا دليل أن ﴿خَصْمَانِ﴾ لا تعني شخصين اثنين، وإنما جمعين، ثم ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تأييد ثانٍ لهذه الجمعية وأن الأولين هم الذين آمنوا، وتقول الروايات أنها نزلت في جمعي البدر، ثلاثة مؤمنون يقودهم علي عليه السلام وآخرون كافرون، وقد قال علي عليه السلام: أنا أوّل من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة[1].

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٤٨ - أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية: هذان خصمان... نزلت في الثلاثة والثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر وهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة قال علي عليه السلام: أنا... وفيه - أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية - قال: لما التقوا يوم بدر قال لهم عتبة بن ربيعة: لا تقتلوا هذا الرجل فإنه إن يكن صادقاً فأنتم أسعد الناس بصدقه وإن يكن كاذباً فأنتم أحق من حقن دمه فقال أبو جهل بن هشام: لقد امتلأت رعباً فقال عتبة: ستعلم أيّنا الجبان المفسد لقومه قال فبرز عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة فنادوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فقالوا: ابعث لنا أكفاءنا نقاتلهم فوثب غلمة من الأنصار من بني الخزرج فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اجلسوا قوموا يا بني هاشم فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث فبرزوا لهم فقال عتبة تكلموا نعرفكم إن تكونوا أكفاء قاتلناكم، قال حمزة: أنا حمزة بن عبد المطلب أنا أسد الله وأسد رسوله فقال عتبة: كفؤ كريم فقال علي عليه السلام: أنا علي بن أبي طالب فقال كفؤ كريم فقال عبيدة: أنا عبيدة بن الحارث فقال عتبة: كفؤ كريم فأخذ حمزة شيبة بن ربيعة وأخذ علي بن أبي طالب عتبة بن ربيعة وأخذ عبيدة الوليد، فأما حمزة فأجاز على شيبة وأما علي فاختلفا ضربتين فأقام فأجاز على عتبة وأما عبيدة فأصيبت رجله، قال: فرجع هؤلاء وقتل هؤلاء =

ولأن اختصام فريقين لا يختص بمورد خاص فلتعن الآية كلّ اختصام في الرب، بين البدريين أم أهل الكتاب والمؤمنين[١] أم أهل الجنة والنار أجمعين[٢] مهما كانوا في ظاهر الحال في المسلمين كبني أمية، وأهل الحق من أمّة محمد ﷺ[٣] وقد فصل الله بين الفريقين، المشركين وسواهم، والمؤمنين وسواهم في آيات سالفة، إذاً فهما ﴿خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ ككل دونما اختصاص.

والمختصمون في الله هم بين محق ومبطل ولا ثالث لهما، إذاً ف ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾... على طول خط الزمن الرسالي، وكافة الاختصامات راجعة إلى ربوبيته تعالى.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالحق لمّا جاءهم كفراً عانداً عامداً مقصراً ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ تشتمل عليهم اشتمال الملابس على الأبدان، حتى لا يسلم منها عضو من أعضائهم، ولا يغيب عنها شيء من أجسادهم، وعلّها هي ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ إذا لبسوها واشتعلت النار فيها صارت كأنها ثياب

= فنادى أبو جهل وأصحابه: لنا العزى ولا عزى لكم، فنادى منادي النبي ﷺ: قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار فأنزل الله ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ...﴾ [الحجّ: ١٩].

(١) المصدر - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: إن كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء فنحن أولى بالله منكم فأفلج الله أهل الإسلام على من ناواهم فأنزل الله هذه الآية.

(٢) المصدر - أخرج ابن جرير عن عكرمة في الآية قال: هما أهل الجنة والنار اختصمتا فقالت النار خلقني الله لعقوبته وقالت الجنة: خلقني الله لرحمته.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٧٦ عن الخصال عن النضر بن مالك قال قلت للحسين بن علي عليه السلام: يا أبا عبد الله حدثني عن قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ...﴾ [الحجّ: ١٩] فقال: نحن وبنو أمية اختصمنا في الله تعالى قلنا صدق الله وقالوا كذب الله فنحن الخصمان يوم القيامة، وعن الكافي بسند متصل عن أبي جعفر عليه السلام ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحجّ: ١٩] بولاية علي عليه السلام ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحجّ: ١٩].

من نار لإحاطتها بهم، واشتمالها عليهم، ولا فحسب بل ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ مادة حارة حارقة لباساً فوق اللباس، كدثار فوق الشعار ونارٍ فوق نار، إضافة إلى ذواتهم النارية حيث ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[١] فهم إذا محشورون في ثالوث النار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[٢].

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾:

والصَّهر هي الإذابة، فذلك الحميم المصبوب من فوق رؤوسهم يذيب ما في بطونهم من أمعاء وأحشاء، ويذيب الجلود نضجاً: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا...﴾[٣].

والمقامع هي المداقُّ والعُمُد، حيث تضرب على رؤوسهم بما يصبُّ، ويصبُّ بما تُضرب، جمعاً بين جموع العذاب.

ففي هذه الضفة الكافرة ثياب من نار تُقطع وتُفصل، وحميم ومقامع تصبُّ وتُضرب عذاباً دائباً لا حول عنه:

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾:

إرادة للخروج تُشرِفهم على واقع الخروج، ثم إعادة فيها قطعاً لأمل كأنه واقع عذاباً فوق العذاب.

و﴿كُلَّمَآ﴾ هنا تحلِّق على كل زمن العذاب دون كل الزمن حتى يدل على لا نهائية في العذاب، فالخروج عن العذاب ما دام استحقاق العذاب للآبدين فيه ممنوع، ولا ينافيه فناء النار بمن في النار فإنه ليس خروجاً عن النار وهي باقية.

فالنار - إذاً - تعمهم وتغمهم دون خروج عنها للدائمين فيها ما دامت

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٦.

هي مشتعلة، ولا خروج عنها أو عن غمها كما لا تخفيف، وإنما عذاب قدر استحقاق، قضية العدل والتسوية بين عصيان محدود وعذاب محدود.

ويقال لهم عند ردهم إليها ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ هنا كما أذقتموه من أضللتموه هناك جزاءً وفاقاً، عذاباً فوق العذاب.

ثم نرى ضفة الإيمان كيف تزفُّ بحلية من لباس وطيب من القول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾:

فأين الثياب المقطوعة من حرير من مقطوعة النار، وأين التحلية من أساور الدستوار الذهبية زينة للأيدي، من حميم مصبوب فوق رؤوسهم ومقامع من حديد، وأين الهدي إلى الطيب من القول تحية وسلاماً وإكراماً من الرد إلى النار للمغتمين فيها والقول ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

هنا ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا... وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا﴾ يلمحان بحلِّيتهما لهم! فقط - فيها دون الأولى، وقد تظافر الحديث عن رسول الهدى ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[1]. وبالطبع ذلك التهديد التحديد خاص بقبيل الرجال فإن التزين بهما للنساء غير محظور بل هو مشكور.

﴿وَهُدُوٓاْ﴾ هداية كهديّة ﴿إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ تكلماً به واستماعاً له ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ لأن صراطهم في الدنيا كان حميداً بهدي الله الحميد.

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٥ - أخرج البخاري ومسلم عن عمر عنه ﷺ والنسائي والحاكم عن أبي هريرة عنه ﷺ وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن الزبير عنه ﷺ وأخرج النسائي والحاكم وابن حبان عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ.. وزاد: وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه.

أقول: ويساعده ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الحج: ٢٣] لمكان الجمع، فمن عمل بعض الصالحات لم يكن بهذه المثابة والمثوبة الكاملة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي
جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ
نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا
تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ
﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ
مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ
أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ
ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ
وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ
خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ
فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ
لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ
ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ
ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ
مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ
ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ
أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ
عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ

جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

ثلاث عشرة آية تحوم حوم الحج في البعض من هامة مناسكه، والتوجيهات العقائدية والسياسية أما هيه مما يقصد من هذه العبادة الجماهيرية السياسية القيادية، ولكي يتبنّى دولة الإسلام قوية صامدة عالمية، رباطاً تاماً بين الكتلة المؤمنة في أرجاء المعمورة ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾.

فلذلك ترى «المسجد الحرام» يختص بالذكر بعد ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كأصدق مصداق شاخص يتجسد فيه سبيل الله، وهي سبيل صالح الإنسان بما يصلحه إصلاحاً جماعياً جمعيّاً في كافية الجنبات.

صحيح أن سائر الفرائض الإلّهية كلها سبل الله ولكنما الحج تجمع بين كافة السبل قضية مناسكها الهامة التي تجمع جموعها في عبودية جماهيرية حركية عالمية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾:

فكما الإسلام بضوابطه هو لكافة المسلمين، كذلك قبلة الإسلام وعاصمته: «المسجد الحرام» فقد جعله الله للناس - وطبعاً المسلمين منهم - فإنهم الذين يقصدونه كسبيل الله الموحِّدة بينهم - جعله لهم حال أنه ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ سكناً وعبادة، فلا يفضَّل عاكفٌ فيه على بادٍ،

وذلك لأنه المعكف والمطاف والقبلة لكل المسلمين على حد سواء، بيت عتيق طليق لا يملكه أحد سوى الله، وقد جعله الله لعباده ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ فكل ترجيح لعاكف على باد لحاضر على مسافر، ولمواطن على سواه، كل ذلك إلحاد فيه بظلم، ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

لا يعني ﴿ٱلْعَـٰكِفُ﴾ فقط المعتكفين في المسجد الحرام كعبادة معروفة حيث العبارة الصالحة عنه المعتكف، ولا «الباد» غير المعتكف، بل هما «المقيم والذي يرحل» سواء اعتكفا أم أحدهما أم لا، وعلّ التعبير بالعكوف للتأشير إلى مدى المسؤولية الهامَّة على عواتق المقيمين بمكة المكرمة، أن عليهم حياة العكوف والعبودية فيها بكل رقابة.

وطبعاً لا يعني «المسجد الحرام» هنا نفس المسجد إذ لا يقيم فيه المقيم ولا البادي، بل هو مكة المكرمة كلها أو الحرم كله، تعبيراً بأقدس مكان فيه، كما و﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾[1] ليست لتعني نفس المسجد فإنه ليس مسكناً للأهلين، وذلك عناية في التعبير عن البلاد المقدسة أن يذكر الأمكنة المقدسة فيها.

وليس ذلك الصدّ - فقط - عن المسجد الحرام، فإنه صدّ عن المناسك كلها، وليس في المسجد الحرام إلا شطر منها، إذاً فالمسجد الحرام هنا هو أمكنة المناسك كلها، الحرم وما والاه من عرفات ومشعر ومنى.

وقد يقال: إن «فيه» في ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ تتعلق بـ ﴿سَوَآءً﴾ فـ «سواء فيه»: نفس المسجد ﴿ٱلْعَـٰكِفُ﴾ في مكة أو الحرم ﴿وَٱلْبَادِۚ﴾ إلا أن ﴿ٱلْعَـٰكِفُ﴾ أقرب تعلقاً ومعنى، فإن كانت «فيه» متعلقة بسواء لكانت الصيغة الصالحة «سواءً فيه العاكف والباد».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

أو أن ﴿ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ﴾ هو المعتكف كعبادة خاصة، ولكنه لا يقابله الباد، فربّ باد يعتكف.

إذاً فـ ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ تسوّي بينهما في بيوت مكة، فهي مباحة للباد كما العاكف؟ فلا تؤخذ أجرة من زوار البيت وإلا فلا سواء، وكما يروى عن النبي ﷺ: «مكة مباحة لا توجر بيوتها ولا تباع رباعها»(١) و«من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً»(٢) وقد «توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن»(٣) ومن كتاب لعلي عليه السلام إلى قثم بن عباس وهو عامله على مكة «وأمُر أهل مكة أن لا يأخذوا عن ساكن أجراً فإن الله سبحانه يقول: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ والعاكف المقيم به والبادي الذي يحج إليه من غير أهله»(٤).

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٥١ - أخرج ابن مردويه عن ابن عمران النبي ﷺ قال: ...

(٢) المصدر أخرج الدارقطني عن ابن عمران رسول الله ﷺ قال: ...

(٣) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة عن علقمة بن نضلة قال: ...

(٤) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي عن الإمام علي عليه السلام: ... وفي نور الثقلين ٣: ٤٨٠ عن قرب الإسناد للحميري بإسناده إلى أبي جعفر عن أبيه عن علي عليه السلام كره إجارة بيوت مكة وقرأ ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ [الحَجّ: ٢٥] وعن تهذيب الأحكام موسى بن القاسم عن صفوان بن يحيى عن حسين بن أبي العلا في الصحيح قال ذكر أبو عبد الله عليه السلام هذه الآية فقال: كانت مكة ليس على شيء منها باب وكان أوّل من علق على بابه المصراعين معاوية بن أبي سفيان وليس ينبغي لأحد أن يمنع الحاج شيئاً من الدور ومنازلها وروي مثله في العلل عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ [الحَجّ: ٢٥] فقال: لم يكن ينبغي أن يصنع على دور مكة أبواب لأن للحجاج أن ينزلوا معهم في دورهم في ساحة الدار حتى يقضوا مناسكهم وإن أول من جعل لدور مكة أبواباً معاوية وعن الكافي روي مثل ما في التهذيب باختلاف يسير.

وفي تفسير البرهان ٣: ٨٤ عن الحميري بإسناده عن جعفر عن أبيه عن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ نهى أهل مكة عن إجارة بيوتهم وإن تعلقوا عليها أبواباً وقال: سواء العاكف فيه والباد - وقال: وفعل ذلك أبو بكر وعمر وعثمان حتى كان في زمن معاوية. =

والصد عن المسجد الحرام كسائر الصد عن سبيل الله هو الصد عن أن يعبد الله فيه بخاصة المناسك وعامة العبادة، ومن الصدّ عنه التمييز بين العاكف فيه والباد، ومنه تملكه روحياً أو زمنياً، والسيطرة الخاصة عليه إلا تنظيماً أدبياً بين جموع الوافدين عاكفين أم بادين.

وكما يروى عن النبي ﷺ: «يا بني عبد مناف من ولى منكم من أمور الناس شيئاً فلا يمنعن أحداً طاف بهذا البيت أو صلى أية ساعة من ليل أو نهار»[1] فكل ما يرغب في المسجد الحرام أو يؤمر فيه أو يندب لا يجوز الصدّ عنه.

وهل أن تلك التسوية تقتضي ألّا تُملك دور مكة المكرمة؟ علّها لا، إذ يجوز أن تملك على ذلك الشرط ألا يُمنع الحجاج من سَكَنِها زمن الحج.

هنا بيت الله، فلا يعبد فيه إلا الله، وكلّ عباد الله فيه على سواء، ومهما اختلفت درجاتهم روحية وزمنية، فلا ينبغي لأحد أن يختص فيه بكرامة وحرمة زائدة، اللهم إلا بتقوى الله، ولكنها أيضاً ليست لتميز عباد الله في بيت الله بشأن من شؤون عبادة الله مكاناً أو مكانة أو زماناً أم أياً كان، فإن ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ تحلِّق على كافة التسويات من حيث كون المسجد الحرام سبيل الله.

ثم الإلحاد فيه يعم كل ميلٍ عن الحق، عامة في كل الحقول، وخاصة في حقل المسجد الحرام بما له من حرمات خاصة، فيشمل كل عصيان وظلم في مثله، بحق الله أو بحقك وبحق الناس.

﴿وَمَن يُـرِدْ فِيـهِ﴾ - لا فقط - من يعمل فيه أو يلحد فيه - تجتث عن

= وفي الصحيح عن حفص البختري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ليس ينبغي لأهل مكة أن يجعلوا لدورهم أبواباً وذلك أن الحاج ينزلون معهم في ساحة الدار حتى يقضوا حجهم (التهذيب ٥: ٤٦٣ ورواه مرسلاً في الفقيه: ٣: ١٢٦).

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٣: ٢٤ قال عليه السلام: . . .

هذه الساحة المباركة كافة التخلفات عقائدية وعملية وحتى في النية والطوية ولمن لم يصل إلى الحرم رعاية لقداسة الموقف فإنه أقدس مقدس في الكون كله بأسره وعن بكرته، فكما من الإلحاد في المسجد الحرام تهديمه وعوذاً بالله، أو الإشراك بالله، كذلك كل تخلف عن شرعة الله، حيث يتضاعف في المسجد الحرام وفي الحرم كله ومنه الصيد في الحرم لا سيما حالة الإحرام، وارتكاب محرمات الإحرام حاله، ودخوله الحرم بلا إحرام إلا لمن استثني، بل و «احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه»[١] وعلى الجملة «كل ظلم يظلم به الرجل نفسه بمكة من سرقة أو ظلم احد أو شيء من الظلم فإني أراه إلحاداً ولذلك كان ينهى أن يسكن الحرم»[٢].

ولا فحسب فيه، بل ومن يرد فيه قبل أن يوافيه وإن لم يصله فضلاً عن وصوله بما أراد، وبأحرى من يرد فيه وهو فيه ولم يحقق ما أراد، وهذه من ميزات قبلة الإسلام، أن الإرادة السيئة بمجردها في غيرها لا تؤخذ بشيء، ولكنها فيها مأخوذة مهددة بعذاب أليم، فضلاً عن تحقيقها فيها! وقد يتوسع ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ إلى غير الإنسان من حيوان كسباع الطير إذا صارت في الحرم[٣].

وهل يتحصن بالحرم عن إجرام فيه أم خارجه؟ كلا! فإنه ليس ملجأً للمجرمين، بل ونفس «التحصين بالحرم إلحاد»[٤] فإنه حرم للمؤمنين، دون المجرمين.

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٥١ - أخرج البخاري في تاريخه وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن يعلى بن أمية عن رسول الله ﷺ قال: . . . وأخرج مثله البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول: . . .

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٨٢ في كتاب علل الشرائع بسند متصل عن أبي الصباح الكناني قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية قال: . . . أقول: والروايات بذلك مستفيضة.

(٣) المصدر عن العلل عن أبي عبد الله عليه السلام قيل له: إن سبعاً من سباع الطير على الكعبة لا يمر به شيء من حمام الحرم إلا ضربه، فقال عليه السلام: انصبوا له واقتلوه فإنه قد ألحد في الحرم.

(٤) جامع أحاديث الشيعة ١٠: ٩٢ ح ٢١١ - يب ٥٧٩ أحمد عن أبي محمد الحسن بن علي=

اللهم إلا تحصيناً مؤقتاً مشروطاً لمن جنى في غيره ثم لجأ إليه فإنه يضيّق عليه في مأكله ومشربه حتى يضطر للخروج عنه فيقام عليه الحد، وأما الجاني في نفس الحرم فيقام عليه الحد في نفس الحرم «لأنه لم يدع للحرم حرمة»(١).

وعلى أية حال فكل الظلم فيه إلحاد(٢) بل وإرادته أيضاً من الإلحاد فيه.

وترى ما هو موقف ﴿بِظُلْمٍ﴾ بعد ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ وكلّ إلحاد ظلم؟ علّ الباء في ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ للملابسة، تعني ملابس الإلحاد فيما يريد، وفي ﴿بِظُلْمٍ﴾ للسببية، تعني إلحاداً ظالماً، عله هنا بحق الناس حيث ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وكما بحق الله وأدناه الظلم بالنفس، أم أنهما حالان لـ ﴿يُرِدْ﴾ والمفعول محذوف ليتناول كل متناولاته، انحرافاً بظلم.

أم أن ﴿بِظُلْمٍ﴾ بدل عن ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ تعني إرادة ملابسة بظلم أياً كان، فإنه إلحاد، إكباراً لأي ظلم يراد فيه أنه إلحاد، وإن كان ظلماً بالنفس فضلاً عن سواها، أم أنها كلها معنية مهما تفاضلت.

وكلّ ذلك لسيادة منقطعة النظير في ذلك الموقف العظيم، فإنه قبلة الإسلام ومطاف المسلمين، فليقدَّس عن كل إلحاد وكل ظلم وكل ما لا يرضاه الله تعالى، منطلقاً لكافة الأبعاد الإسلامية السامية(٣).

= الوشاء عن بعض أصحابنا يرفع الحديث عن بعض الصادقين عليهما السلام قال: التحصين بالحرم إلحاد.

(١) تفصيل البحث راجع إلى تفسير آية ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فراجع.

(٢) كما رواه أصحابنا مستفيضاً كصحيحة ابن أبي عمير عن الصادق عليه السلام أن كل ظلم فيه إلحاد، ومثلها غيرها.

(٣) جامع أحاديث الشيعة ١٠ : ٩٣ في الرضوي عليه السلام فمن همَّ لمعصية (أي في مكة) ولم يعملها كتب عليه سيئة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وليس ذلك في بلد غيره.

فكما أن المسجد الحرام هو أقدس مكان في الكون كله، فليكن كل عاكف فيه أو باد وأقدس ممن سواه بواقع القداسة أم - لأقل تقدير - بحراسة وقتية، تصنيعاً لنفسه وتصنيعاً لآخرين.

وهكذا يسبق الإسلام سبقاً بعيداً عريقاً بإنشاء واحة السلام ومنطقة الأمان، ودار الإسلام المفتوحة لأهل السلام والإسلام، مهدِّداً هؤلاء الذين يريدون اعوجاجاً في هذا المنهج القويم المستقيم بعذاب أليم ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وعلّ ذلك التعقيب يكفي جواباً عن ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كما هو جواب لـ ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ فلا حاجة إلى تقدير، أم أنه لوضوحه بعظم عذابه ليس بحاجة إلى جواب حيث يعرفه البسطاء فضلاً عن أولي الألباب.

ولقد ذكر المسجد الحرام في أربعة عشر موضعاً بمختلف المناسبات ثم مسجد ومساجد أخرى بنفس العدد، ويا لها توافقاً بين عديد الذكر للمسجد الحرام وسائر المساجد، وفقاً فيهما لعدد المعصومين الأربعة عشر، فإنهم من شروط المسجد الحرام سبيلاً إلى الله، وتقبلاً لفريضة الله.

ولماذا يعطف هنا المستقبل «ويصدون» على الماضي «الذين كفروا»؟ علَّه للتأشير إلى استمرارية صدهم منذ كفرهم الماضي، إضافة إلى كل صادٍّ عن سبيل الله في المستقبل على مر الزمن فإنهم يكفرون ويصدون، فلا يكفي - إذاً - وصدوا، حيث لا يشمل استقباله واستمراره، فهم بعكس التعبير كـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾[1].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾:

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[1].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ كأنه قبل أن يبني البيت، لمكان ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ دون - فقط - «البيت» فقد جعله الله له بواءً مباءة: مرجعاً يرجع إليه إسكاناً من ذريته، وعمارة للبيت، وطوافاً به، فلأن الأولَين يختصان به، لذلك يختص هو بتلك المباءة ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ نهياً صارماً يحلِّق على كافة دركات الإشراك بالله حتى الرئاء وما دونه.

لا فحسب نفسك بل ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ عن مظاهر الإشراك وملامحه وعمن يشرك بالله، إخلاءً ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

صيغة ﴿بَيْتِىَ﴾ مصوغة لخصوص الكعبة المشرفة، إضافة تشريفية ما أشرفها، مهما كانت كل مساجد الله بيوت الله، إلّا أن الكعبة إمام البيوت كما هي أمام البيوت.

هنا وفي ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾[2] و﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾[3] الكعبة فيها بيت الله، لأنها مباءة العبادة لله، ثم في ثلاث أخرى[4] هي بيت الناس لأنها معبد الناس ومطافهم، فهي إذاً بيت الله وبيت الناس، ثم وفي عشر هي الأخرى ﴿ٱلْبَيْتِ﴾ إشارة إلى بيت الله وبيت الناس.

فهو بيت الله حيث يعبد فيه الله وهو قبلة المصلين لله، وهو بيت عتيق لم يكن ولن يكون في ربقة غير الله.

وهو بيت الناس، فإنهم هم الذين يبيتون فيه ويستقبلونه ويطوفون به لله،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٤) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ...﴾ [آل عِمرَان: ٩٦] و﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المَائدة: ٩٧] ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البَقَرَة: ١٢٥].

إذاً فهو بيت الناس كما هو بيت الله مهما بان البون بين الانتسابين كالبون بين الناس وبين الله.

ثم الطهارة المأمور بها ظاهرية عن كافة الأنجاس والأقذار، وبأحرى باطنية عن الإشراك بالله في مربع «الطواف والقيام والركوع والسجود» كالقمة المعنية من توحيد الله في عبادته.

فكما أن هؤلاء عليهم تطهير بيوت قلوبهم وأفكارهم ومظاهر أبدانهم وملابسهم وأعمالهم حتى يصلحوا لحج هذا البيت، كذلك ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ...﴾ ومن تطهير ذلك البيت أن تكون عمارته بصدق النية وطهارة الطوية: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ...﴾[١] وكما منه تنحية المشركين عنه[٢].

وترى من هم «الطائفين والقائمين» حيث ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ هم المصلون؟ فهل الطائفون هم من يطوف البيت، والقائمون هم القائمون في الصلاة، فهو والركع السجود تعبيرات ثلاثة عن الصلاة؟

و﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ يكفي تعبيراً عن الصلاة، فإنهما تعنيان عبادة تحويهما قضيةَ رَدفهما دون عطف، وهما معاً لا يوجدان إلّا في الصلاة، وقد عطفا بالقائمين دليلاً على مفارقتهما إياهم! ولو كانت الثلاثة هم المصلون فصحيح العبارة عنهم «القائمين الركع السجود» ردفاً دون عطف قضية وحدة العبادة، رغم أن ضم ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ لا يفيد زيادة معنى!

ثم وذكر ﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾ في آية البقرة بديلاً عن ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ هنا مما يحتِّم أنهم هم العاكفون المقيمون في مكة المكرمة، فالطائفون هم البادون، الحاضر للطواف دون الإقامة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٢) تفسير القمي ص ٣٢ عن الصادق عليه السلام نح عنه المشركين.

وتأييداً ثالثاً قرن السواء في غاية التطهير، بالسواء بين العاكف والباد، فكما لم يميزوا في البداية فكذلك الأمر في النهاية، هناك ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ وهنا ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾.

فالطائفون هم الزائرون، والعاكفون هم القائمون، والركع السجود هم المصلون، مهما شمل الطائفون كل الطائفين حوله، والعاكفون من يعتكف فيه وسواه.

فقد جعل الله هذا البيت للناس سواء العاكف فيه والباد في كل شعائر الحج، ولذلك أمر إبراهيم أن يطهره للناس سواء الطائفين والقائمين بعكس الترتيب هناك كي لا يتقدم مقيم على مسافر ولا مسافر على مقيم تحقيقاً للتسوية حتى في التعبير.

ثم الأمر بتطهيره لا يخص إبراهيم الخليل، بل هو مستمر إلى يوم الدين، كما التسوية المجعولة المرمية إلى يوم الدين.

وذكر ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ مقيماً أو مسافراً بعد ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ مسافراً أو مقيماً، لطواف البيت وسواه من مناسك الحج والعمرة، يصوِّر لنا صلاة الطواف بعده، مع أن «الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة»[1].

فليكن ذلك البيت العتيق بالمسجد الحرام والحرم كله، أطهر بيت في الكون كله، متخلياً عن كل مظاهر القذارة والرجاسة، متحلياً بكل مظاهر الطهارة والقداسة، بعيداً عن كافة المفارقات والتمييزات لأي مقيم أو مسافر، في طواف وصلاة وسواهما من مناسكه.

وهنا ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ دليل جواز الصلاة في جوف الكعبة المشرفة،

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٥٤ - أخرج الحاكم عن ابن عباس قال قال الله لنبيه : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحَج: ٢٦] قال: طواف قبل الصلاة وقد قال رسول الله ﷺ: الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة إلا أن الله قد أحل فيه المنطق فلا ينطق إلا بخير.

فإنها أصدق مواضع «بيتي» حين يشمل المسجد الحرام، وتأويل ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ بكونها فقط أمامها قبلةً عليل خارج عن التحصيل.

وأما الطائفون الزوار والقائمون المقيمون، فهم بين طائف ومصلٍّ، ومعنى الطواف هو التطواف حوله، فالداخل فيه السائر في حواليه لا يسمى طائفاً بالبيت العتيق[١].

وأما الآية ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٢] فهي للخارجين عن الكعبة والمسجد الحرام، حيث أمر به الرسول ﷺ والمؤمنون معه في المدينة المنورة.

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾:

وترى من هو المخاطب المأمور هنا بالأذان الإعلان بالحج؟ أهو - فقط - إبراهيم الخليل عليه السلام وهو دعوى دون دليل إلّا سَبْق الخليل بأمرٍ قبله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ والآيات التالية المخاطبة للحاضرين ومن يلحقهم مستقبلين تطارد ذلك الاختصاص، لا سيما وأن ذلك الخطاب ﴿فِى ٱلنَّاسِ﴾ كل الناس كقضية حقيقية تحلّق على كافة المكلفين إلى يوم الدين، فحتى إن كان خطاباً لإبراهيم، فهو كأوّل من يحمله إلى الناس دون اختصاص، والخطابات الشرعية للناس دائبة ما دام الناس إلا أن يأتي نسخ أو تبديل، وليس في القرآن دليل على أي تبديل بالنسبة لذلك الخطاب بكل ما يضمنه من مضامين.

أم هو خطاب لخصوص الرسول محمد ﷺ وهو بعيد عن السياق حيث

---

(١) البحار ٩٦: ٤٨ - ٥٠ عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: لما أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود، أهبط إلى الكعبة مائة وسبعين رحمة فجعل منها ستين للطائفين وخمسين للعاكفين وأربعين للمصلين وعشرين للناظرين.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

سبق الخطاب إبراهيم الخليل وهو أوّل بإن للبيت، فهو - بطبيعة الحال - أوّل مؤذّن للحج، مهما يستمر حتى الرسالة الأخيرة بأكمل صورة وسيرة.

حقّاً إنه خطاب أولاً لإبراهيم كأذان أوّل، ثم للرسول محمد ﷺ كأذان ثانٍ، مهما كان بينهما عوان على طول خطوط الرسالات منذ إبراهيم حتى محمد[1].

ومجرد ذكره هنا مجرداً عن أحد المخاطبين دليل الشمول، ثم الرسول ﷺ أحرى من يشمله كما نتلمح أو نتصرح من خطابات تالية، ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟... وَأُحِلَّتْ لَكُمُ... إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ... فَٱجْتَنِبُوا۟... وَٱجْتَنِبُوا۟... لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ ومن ثم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾... فإلهكم إله واحد - أمّة واحدة -! ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم... لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا... فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟... كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ... وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

---

(١) فروع الكافي ١: ٢٣٣ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ أقام بالمدينة عشر سنين لم يحج ثم أنزل الله سبحانه ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]... فأمر المؤذنين أن يؤذنوا بأعلى أصواتهم بأن رسول الله ﷺ يحج في عامه هذا فعلم به من حضر المدينة وأهل العوالي والأعراب...

أقول: ولا تنافيه الرواية القائلة أن المأمور به إبراهيم عليه السلام حيث الأمر يحلق كافة الرسل منذ إبراهيم حتى محمد ﷺ.

﴿وَأَذِّن﴾ أمر صارم ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] وهو زيارة البيت حجّاً أو عمرة، و﴿يَأْتُوكَ﴾ [الشعراء: ٣٧] دون «يأتونك» هو جواب الأمر، فذلك أمر بأمر، أمر أن يأمر الناس بالحج، مقدِّماً للمشاة على الرُّكب ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] جمع راجل وهو الماشي ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧] وهو أي مركوب مهزول، ضمره الجوع أو المرض، وقد أهمل هنا أي مركوب قوي مزين مرمول، مما يدل على أن الراحلة في أصلها - فضلاً عن سليمها - ليست شرطاً في فرض الحج.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٧.

ثمانية عشر خطاباً في مناسك الحج تحملها آيات عشر بعد آية الأذان تعم الحاضرين من المسلمين وإلى يوم الدين، كيف نتجاهلها باختصاص خطاب الأذان بأصل الحج لإبراهيم الخليل، اللهم إلا بتأويل عليل وتدجيل.

وهذه ضابطة ثابتة في فقه القرآن، أن كل أمر أو نهي فيه لأي رسول، يبقى أمراً أو نهياً لكل المرسل إليهم، اللهم إلّا ببرهان قاطع من القرآن نفسه ينسخه أو يحدده، حيث الرسالة واحدة، والمرسل إليهم أمّة واحدة، اللهم إلّا في بعض مظاهر العبودية وسواها حسب المصالح، فما لم يثبت نسخ من الكتاب لحكم مذكور فيه فهو ثابت، ولا سيما مثل أذان الحج الذي هو بطبعه زمني يشمل كافة الأمم، مهما تكامل في الأمّة الأخيرة.

فمن المضحك المبكي اعتذار بعض المتفقهين عن الآية - بعد الإذعان بدلالتها - على أنها خلاف الشهرة العظيمة أو الإطباق، وخلاف الرواية المشترطة الراحلة في استطاعة الحج، فلا يعمل بها! وترى ما هو شأن الشهرة أو الرواية أمام تصريح الآية، وهي غير منسوخة بل مؤيدة مبيَّنة بآية الاستطاعة، فمن استطاع مشياً أو على كل ضامر دون حرج أو مشقة لا تستطاع، فهو ممن استطاع إليه سبيلاً، ومن لا يستطيع لا راجلاً ولا راكباً فهو ممن لا يستطيع إليه سبيلاً.

والرواية المفسرة للاستطاعة بالزاد والراحلة تقول: «فإذا كان صحيحاً في بدنه مخلًّى سربه له زاد وراحلة فهو ممن يستطيع الحج»[1] لا هو المستطيع للحج، سلباً لاستطاعة من لا يحتاج إلى زاد وراحلة.

---

(١) في الكافي ٤: ٢٦٧ والتهذيب ١: ٤٤٧ والاستبصار ٢: ١٢٩ سأل حفص في الصحيح أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٧] ما يعني بذلك؟ قال: من كان صحيحاً في بدنه مخلى سربه له زاد وراحلة فهو ممن يستطيع الحج.

=

واشتراط الزاد والراحلة في الاستطاعة هو طبيعة الحال في الأكثرية الساحقة الساكنين في كل فج عميق، وأما القريبون إلى مكة المكرمة، غير المحتاجين إلى راحلة، فهم ممن يستطيعون الحج دون راحلة، كما المحترفين في سفر الحج يستطيعونه دون زاد حاضر، فإنما الاستطاعة - دون حرج أو مشقة زائدة غير متحمَّلة - هي فقط شرط الوجوب، إلا أن الأكثرية الساحقة أو المطلقة لا يستطيعونه إلا بزاد وراحلة.

لذلك ترى آية الأذان تطلق ﴿رِجَالًا﴾ ثم تقيِّد ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ بـ ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ وطبعاً لا يركب الضامر إلّا من يحتاج إلى ركوبه لعمق فجه أم ضمور قوته.

فالأصل في أذان الحج هم ﴿رِجَالًا﴾ وهم - في الأكثر - الذين يأتون من كل فج قريب، ثم ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ وهم - في الأكثر - الآتون من كل فج بعيد، ومن ثم على كل مركوب مستطاع، قوياً في جسمه، سريعاً في مشيه، حيواناً أم سفينة أم سيارة أم طائرة.

وقد يتعاكس الأمر، فمن ساكن في فج قريب لا يستطيع المشي فهو - إذاً - غير مستطيع دون راحلة، وآية الاستطاعة لا تشترط إلّا أصل الاستطاعة، بزاد وراحلة أم دون زاد وراحلة، راحلة ضامرة أم عامرة، وقد استفاضت السنّة في أفضلية الحج ماشياً على الركوب لمن يستطيعه وكما يروى عن النبي ﷺ: أن الملائكة لتصافح ركاب الحجاج وتعتنق المشاة»[1] وذلك خاص بطبيعة الحال بمن لا يحشره أمر أهم كالرسول ﷺ حيث القيادة الرسالية لا تسمح له أن يصرف شطراً بعيداً من أوقاته في أداء

= أقول: والرواية المطلقة في ذلك محمولة على الأكثر إذ ليست لتعارض نص آية الأذان كما رواه الصدوق في التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية ما يعني بذلك؟ قال: من كان صحيحاً في بدنه مخلاً سربه له زاد وراحلة.

(١) الدر المنثور: ٤: ٣٥٥ - أخرج البيهقي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ . . .

ندب كالحج ماشياً وأما الأئمة الذين حجوا مشاة لمرات ومرات فلم يكونوا بمنصب القيادة الحاضرة حيث اغتصب عنهم.

وعلى أية حال فهنا في تقديم ﴿رِجَالًا﴾ دليل تفضيل الحج ماشياً، وتفضيل المشاة الذين لا يملكون راحلة ضامرة، ثم تفضيل الركب الضامرة على الركب العامرة، مما يوضح تماماً أن ليست الاستطاعة بادية من المال على أية حال، فليس المستطيعون هم الأغنياء بالركب الفاخرة، بل هم غير مذكورين في عديد المستطيعين حتى في المرحلة الآخرة، لولا آية الاستطاعة الشاملة لهم في إطلاقتها الظاهرة، وليست الاستطاعة إلا القوة[١] دون حاضر الزاد والراحلة، فقد لا يقوى رغم حضورهما وقد يقوى دونهما، فإن كان له بعض الزاد وبإمكانه تحصيل البعض الآخر في الطريق فهو ممن له زاد، «فإن كان يطيق أن يمشي بعضاً ويركب بعضاً فليحج»[٢] حيث المدار على أصل الاستطاعة وهي تختلف حسب مختلف الظروف والإمكانيات، ومن الناس من يمكنه المشي كلاً وتحصيل الزاد في الطريق أو المقصد، فهو ممن استطاع إليه سبيلاً، وتفصيل الاستطاعة يختص بآيتها الثانية.

إذاً فـ «حجة الإسلام واجبة على من أطاق المشي من المسلمين ولقد كان أكثر من حج مع النبي ﷺ مشاة[٣]».

---

(١) جامع الأحاديث ١٠: ٢٤٦ ح ٧٤٦ عن المحاسن عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأله حفص الأعور وأنا أسمع فقال: جعلني الله فداك ما قول الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]؟ قال: ذلك القوة في المال واليسار.

(٢) المصدر ٢٤٩ ح ٧٥٤ عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في آية الاستطاعة ما السبيل؟ قال: أن يكون له ما يحج به، قال قلت: من عرض عليه ما يحج به فاستحى من ذلك أهو ممن يستطيع إليه سبيلاً؟ قال: نعم ما شأنه يستحي ولو يحج على حمار أبتر فإن كان يطيق أن يمشي بعضاً ويركب بعضاً فليحج، أقول: وقد وردت بذلك روايات مستفيضة.

(٣) المصدر ٢٥١ ح ٧٦٣ باب ٤٤٩ ص ١٤٠ الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيوب عن فقيه ١٧٤ معاوية ١ - ابن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل عليه دين أعليه أن يحج؟ قال: نعم إن حجة الإسلام.. شاة ولقد مر رسول الله ﷺ بكراع الغميم فشكوا إليه الجهد =

ولأن «الحج» هو قصد البيت لزيارته، فهو يعم طواف الحج والعمرة، وهما كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فمثل ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾[1] مكان افتراقهما، وأما آية الأذان واستطاعة الحج فهما في اجتماعهما.

ذلك الأذان الإعلام الإعلان لحج البيت منذ إبراهيم حتى الرسول محمد ﷺ فما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم إلى اليوم والغد، وما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام، وترف إليه، يتقاطرون إلى ذلك البيت العتيق من كل فج عميق من فقراء وأغنياء من استطاع إليه سبيلاً.

ولماذا تلك الفريضة الجماهيرية العالمية، وهنالك فرائض أخرى لا تضم ذلك الحشد الكبير؟:

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾:

ذلك لأن الحج مشهد المنافع العامة لعموم المسلمين، ومسرح الفوائد والعوائد الجماهيرية التي تكفل كيان الإسلام وشوكة المسلمين، وقد قدمت هنا على ذكر اسم الله وهو خالص العبادة التي يؤتى بها إعلاناً وإسراراً، أفراداً وجماعات، ولكنها في ذلك المسرح كمشهد المنافع جماعيةً جماهيرية، مما يدل على أن هنالك منافع تختلف صورياً عن ذكر اسم الله، هي التي تتبنى قوائم شرعة الله في بلاد الله.

= (والطاقة - في فقيه) والعن فقال: شدوا أزركم واستبطنوا ففعلوا ذلك فذهب عنهم، أقول ورواه مثله في بعض نسخ فقه الرضوي وفي ج ٧٦٥ بأسناد متصلة عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله عز وجل ولله على الناس... قال عليه السلام: يمشي إن لم يكن عنده قلت: لا يقدر على المشي قال: يمشي ويركب قلت: لا يقدر على ذلك قال: يخدم القوم ويخرج معهم، وفيه (٧٦٦) عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام الحج على الغني والفقير؟ فقال: الحج على الناس جميعاً كبارهم وصغارهم فمن كان له عذر عذره الله.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

فهي ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ كمجموعة من الكتلة المؤمنة، لأنها مسرح ومصرح للشرعة الإلّهية كلها كشعائر، بين تطبيق لقسم منها وتدريب لأخرى في تأشيرات عشيرات لمناسكها رمياً للشيطان وطوافاً حول بيت الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1].

أجل «وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق «يأتوك» ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله.

وتنكير ﴿مَنَٰفِعَ﴾ هو تنكير تعظيم لما يُجهل من منافع، فلم يقل «منافعهم» أو «المنافع» لكي لا يخيَّل إليهم أنها المنافع المعروفة لديهم، الحاصلة في غير ذلك المؤتمر العالمي، وإنما ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ مجهولة لمن لم يأتوا ذلك المشهد المسرح، وهي «لهم» جميعاً، دون المنافع الفردية الحاصلة في كل مطرح!

وهل هي - فقط - منافع الدنيا لذكرها قبال ذكر اسم الله، أم منافع الآخرة[2] سوى ذكر اسم الله؟ إنها «الكل»[3] دونما اختصاص، منافع طليقة تحلّق على حاجيات الدنيا والآخرة ككل ودون إبقاء.

أجل «وعلّة الحج الوفادة إلى الله عز وجل، وطلب الزيادة، والخروج من كل ما اقترف، وليكون تائباً مما مضى، مستأنفاً لما يستقبل، وما فيه من استخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد وخطر الأنفس

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

(٢) المجمع عن أبي جعفر عليه السلام قال: هي العفو والرحمة.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٨٨ في الكافي بسند متصل عن الربيع بن خثيم قال: شهدت أبا عبد الله عليه السلام وهو يطاف به حول الكعبة في محمل وهو شديد المرض فكان كلما بلغ الركن اليماني أمرهم فوضعوه بالأرض فأخرج يده من كوة المحمل حتى يجرها على الأرض ثم يقول: ارفعوني فلما فعل ذلك مراراً في كل شوط قلت له: جعلت فداك يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله إن هذا منافع الدنيا أو منافع الآخرة؟
فقال: الكل.

شاخصاً في الحر والبرد ثابتاً عليه دائماً مع الخضوع والاستكانة والتذلل مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع والرغبة والرهبة إلى الله تعالى، ومنه ترك قساوة القلب وجساوة الأنفس ونسيان الذكر، وانقطاع الرجاء والأمل، وتجديد الحقوق، وحظر النفس عن الفساد، ومنفعة من في شرق الأرض وغربها، ومن في البر والبحر ممن يحج ومن لا يحج من تاجر وجالب وبايع ومشترٍ وكاسب ومسكين، وقضاء حوائج أهل الأطراف والمواضع الممكن لهم الاجتماع فيها، كذلك ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾(١).

وقد ذكر الله تعالى من ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ ما ذكر في آي أخرى لفريضة الحج: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾(٢) - ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾(٣) - ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٤).

أجل «قياماً للناس ومثابة للناس وهدًى للعالمين» لا فقط الذين يأتونه، مهما كانوا هم الركن الركين لتلك المنافع، و«لهم» يعمهم كلهم ممن شهد مواقفه ومن لم يشهد، ممن يحج ومن لا يحج، فإن في ذلك المؤتمر الإسلامي السامي إذا طبّق بشروطها، منافع للمسلمين بل وللعالمين ككل.

---

(١) المصدر في عيون الأخبار باب ما كتب به الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان في جواب مسائله في العلل: . . .
وفي باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان في آخرها أنه سمعها من الرضا مرة بعد مرة وشيئاً بعد شيء: فإن قال: فلِمَ أمر بالحج؟ قيل: لعلة الرفادة إلى الله تعالى وطلب الزيادة. . .
وزاد بعد قوله: في المواضع الممكن لهم الاجتماع فيها: مع ما فيه من التفقه ونقل أخبار الأئمة عليهم السلام إلى كل صقع وناحية كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]. أقول: وقد نقلنا في المتن بعض المواضيع مما في العيون.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

ذلك و«ليتعارفوا . . ولو كان كل قوم إنما يتكلون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد وسقط الجلب والأرباح وعميت الأخبار ولم يقفوا على ذلك فذلك علة الحج»(١).

ومن ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ في مدرسة الحجج اسرار المناسك(٢) التي تتضمن صناعة الإنسان وصياغته بقمة الإنسانية السامية كما أرادها الله تعالى من هذه الفريضة التدريبية، الجامعة لكافة الفرائض والنوافل الفردية والجماعية، دنيوية وأخروية.

فمهما كانت البلوى بالحج عظيمة، فالمنافع الناتجة عنها أعظم، وكل أبعاد هذه الفريضة منقطعة النظير في شرعة البشير النذير، مما يطرح السؤال الكثير، وإجابة عن بلواها في مكانها نقتطف حِكَماً ناصعة عن الخطبة القاصعة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام : - «وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل، ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق(٣) الدنيا مدراً،

---

(١) البحار ٩٦ : ٣٣ - ٩ بسند متصل عن هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت له: ما العلة التي من أجلها كلف الله العباد الحج والطواف بالبيت؟ فقال: إن الله عز وجل خلق الخلق لا لعلة إلا أنه شاء ففعل، فخلقهم إلى وقت مؤجل وأمرهم ونهاهم ما يكون من أمر الطاعة في الدين ومصلحتهم من أمر دنياهم فجعل فيه الاجتماع من المشرق والمغرب ليتعارفوا ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكاري والجمّال ولتعرف آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعرف أخباره ويذكر ولا يُنسى ولو كان كل قوم إنما يتّكلون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد وسقط الجلب والأرباح وعميت الأخبار ولم يقفوا على ذلك فذلك علة الحج.

(٢) قد أفردنا لها كتابنا - أسرار - مناسك وأدلة الحج - باللغة الفارسية، ألفناه خلال السنتين اللتين كنا بمكة المكرمة ضمن سنيّ الهجرة السبع عشرة من شرِّ الطاغية الشاه.

(٣) جمع نتيقة وهي البقاع المرتفعة.

وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة ورمال دمثة[١] وعيون وَشِلة[٢] وقرى منقطعة، لا يزكو بها خُفٌّ ولا حافر ولا ظُلف، ثم أمر سبحانه آدم وَوُلده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتَجع[٣] أسفارهم، وغاية لملقى رِحالهم، تهوي إليه ثمار الافئدة من مفاوِز قِفار سحيقة، ومهاوي فِجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذُلُلاً لله حوله، ويرملون[٤] على أقدامهم شُعثاً غُبراً، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خَلقهم، ابتلاءً عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً، جعله الله تعالى سبباً لرحمته، ووصله إلى جنته - ولو أراد الله سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار، وسهل وقرار، جمِّ الأشجار، داني الثمار، ملتفِّ البُنى، متصل القرى، بين برَّة سمراء وروضة خضراء، وأرياف محدِقة، وعِراص معذِقة، وزروع ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صغَّر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء - ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمرّدة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور، ولوُضِع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج[٥] الريب من الناس، ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بألوان المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فُتُحاً إلى فضله، وأسباباً ذُلُلاً لعفوه»[٦].

---

(١) هي اللينة التي يصعب عليها السير.
(٢) قليلة الماء.
(٣) محل الفائدة.
(٤) الرمل ضرب من السير فوق المشي ودون الجري وهو الهرولة.
(٥) الاعتلاج هو الالتطام.
(٦) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي ٢: ١٧٠ - ١٧٣ محمد عبده.

ف ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ هي كل المنافع الروحية والزمنية في كافة الحيويات الإسلامية السامية، فالحج مؤتسم ومؤتمر، موسم عبادة شعائرية جاهرة، ومؤتمر عبادة سياسية، فريضة تلتقي فيها الدنيا والآخرة، مسرح تشاور وتعاون بين الكُتَل المؤمنة في كافة المسائل العويصة الإسلامية.

مجالة عالية غالية لتذوب فيها الفوارق من مختلف الجنسيات والعنصريات والقوميات والطائفيات ولا تبقى في صعيدها إلا أخوة إسلامية خالصة تتبناها كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، بوحدة الأرواح وتقارب الأشباح حيث يصبحون الأشباه حول كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

عبادة تصفو فيها الأرواح مشروحة لكافة الذكريات الصالحة في ذلك المشهد الحافل، حيث ترف كالأطياف حول البيت العتيق طائفين حول مركز واحد، يحوّلهم عن مختلف التطوافات حول سائر المطافات.

هنا يجد المسلمون رايتهم المطلّة عليهم ككلٍّ حيث تتوارى الرايات ومختلف السلطات، وتتوارى في الراية الإسلامية الموحّدة كافة الفوارق.

هنا مملكة الحج، في بيت عتيق طليق عن كل مُلكة، لا يقودها إلّا الله، ولا يرأسها من قبل الله إلّا رسول الله، ولا يحكمها إلا كتاب الله، حيث تتوحد القيادة الروحية والزمنية في هذه الرسالة السامية، دون سماح لأية سلطة، إلا لمن يطبق هذه الرسالة الموحدة بين جماهير المسلمين.

﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ . . .﴾:

وترى ما هي ﴿أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ نحن نجهلها؟ أهي أشهر الحج كلها حيث ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾[1] فمن أهلَّ فيهن بالحج فليذكر اسم الله حتى

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

تتم مناسكها، ذكراً خاصاً لله ليس معه ذكر لسواه، فإنه قضية تلبية الإحرام «لبيك اللهم لبيك» لك لبيك لا لسواك، فإنما أذكرك لا سواك؟

و﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ قد تعممه إلى كل الأيام! ثم ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ قد تخصصه بأيام الذبح، وأن ذكر اسم الله هو على الذبائح عند ذبحها كشرط من شروط التذكية! ولكن ذكر اسم الله على الذبائح يعم كل ذبح في أي زمان أو مكان دون أيام معلومات للذبح في مِنى! وذلك الشرط مذكور في آيته التالية ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ وذلك في يوم الأضحى كيوم معلوم، دون أيام معلومات، ثم الأضحى إلى آخر ذي الحجة حيث يجوز فيها تقديم الأضحية، ذلك مخصوص بالأعذار وهي مقدرة بأقدارها، فليست هذه العشرين هي الأيام المعلومات.

وأما تعميم ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ فلا شاهد له هنا إلا عليه، حيث الذكر هنا ذكر خاص كما ﴿مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ فـ ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ يقتضي في ذلك المسرح الحاشر ذكراً خاصاً لله على رؤوس الأشهاد.

فـ ﴿أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾ علها هي أيام الحج والعمرة كلها، ثم أيام الحج ثم عشرة ذي الحجة[1] أيام التشريق الأربعة وكلها أيام معلومات، فلم يقل «الأيام المعلومات» لكي لا تختص ببعض دون أخرى، بل في كل هذه الأيام بدرجاتها، بذكر التلبيات والصلاة والتسمية عند الذبح وعند الرمي، ذكر القال والحال والأفعال، وليصبح الحاج في أيامه ذِكراً بكل كيانه، بعد

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٩٠ في كتاب معاني الأخبار بسند متصل عن حماد بن عيسى في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: قال علي عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨] قال: أيام العشر ومثله في التهذيب عن حماد عنه قال أبي عليه السلام . . . وأيام معدودات قال: أيام التشريق وفي الخلاف والأيام المعلومات عشرة أيام من ذي الحجة آخرها غروب الشمس من يوم النحر ذهب إليه علماؤنا أجمع.

أن لبّى دعوة ربه، وترك أهله وماله وشغله وكافة ما كان يشغله عن ذكر ربه، والآية تتحملها كلها حيث المسرح كله مسرح ذكر الله كما هو مسرح ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ ومن ﴿أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هي ﴿أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾[1] أيام التشريق ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ...﴾[2] وكشاهد آخر لها أن يوم الذبح هو يوم الأضحى ثم من بعده قضاء التفث كما في الآية التالية، وهذه الأيام كانت معلومة لدى الكل شاخصة بين كل أيام الحج والعمرة دون تقدم عن مواضعها أو تأخر خلاف سائر أيام الحج حيث تتقدم أو تتأخر اللهم إلا يوم عرفة والمشعر الحرام فعلَّه من تلك الأيام المعلومات، والمجموعة هي الخمسة من التاسع إلى الثالث عشر، والقدر المعلوم من ﴿أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هي أربعة التشريق فإنها أيام الذبح المقررة له في الحالات العادية غير الاستثنائية وقد يتلمح من ﴿وَيَذْكُرُوا...﴾ ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ وهو التسمية على الذبائح، ولكنه لا يختص ذكر اسم الله بها، فإن «على» كما تعني ذلك، كذلك تعني على أنه تعالى رزقَهم، وذلك مهما كان عاماً يحلّق على كل حياة التكليف، ولكن لذكر الله في ذلك المسرح الحاشر موقعه الخاص، سواء على الأضاحي أم على أية حال في أيام الحج.

ذلك وكما منها يوم عرفة والمشعر الحرام ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾[3] ذلك وكما

---

(١) المصدر عن معاني الأخبار عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هي أيام التشريق، وفيه عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: المعلومات والمعدودات واحدة وهن أيام التشريق.

وفي الدر المنثور ٤: ٣٥٦ - أخرج ابن المنذر عن علي عليه السلام قال: الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

منها يوم عرفة والمشعر الحرام ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾[١] فقد يضاف إلى أيام التشريق، كما تضاف بقية العشرة وسواها إليها.

بل ومنها بعدما قضيت المناسك: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾[٢] فضلاً عن أيام الحج بعمومها وخصوصها، فإنها أيام ذكر الله، كلما كانت الشعائر أهم فالذكر أتم، فهي - إذاً - كلها أيام معلومات مهما اختلفت الدرجات حسب الدرجات.

ومختلف الحديث عن أيام معلومات ومعدودات مما يبرهن على أنها كلها معنية وإنما الاختلاف في الدرجات وترى ﴿بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ خاصة بالبُدن كما في الآية التالية: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾؟ وهي من أبرز مصاديق الأنعام العائشة في البلد الحرام فلا تخص بها الأنعام! أم هي فقط الأنعام الثلاثة: الإبل والبقر والغنم؟ وقد عممت أحياناً إلى ما يصطاد، ولا يصطاد شيء من هذه الثلاث وإنما الظبي وحمار الوحش وأضرابهما من ذوات القوائم الأربع فقد ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾[٣] فليكن الصيد من الأنعام حتى يصح الاستثناء!

ولكنه صيد - مهما كان من الأنعام - ولا يحل الصيد في المنسك ونحن حُرُم، بل وفي غير حالة الإحرام أيضاً، إذاً فالأنعام هنا هي الثلاثة لا سواها.

﴿... فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾:

من هذه والتي تليها: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١.

نتأكد أن التقسيم ثنائي وليس ثلاثياً خلاف ما يقوله جمهور الفقهاء، وأن لحوم الأضاحي هي في الأصل للفقراء لا للإحراق والدفن وسائر الهدر والغدر كما هو المتعود بين الحجاج، والقول الفصل فيها عند الآية الأخرى.

ثم ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ هنا وهناك كأنه أمر أدبي رخصةً لا عزيمةً فإنه عقيب حظر مظنون حيث كان المشركون لا يأكلون من ذبائح نسائكم[١] فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل، والأكل أفضل كما فعل الرسول ﷺ هدماً لسنّة جاهلية ومشاركة مع البائس الفقير، فيها تسوية بينهم وبينهم كي لا يظنوا أنها خاصة بهم - فقط - لفقرهم، بل هي هدية إلهية يشارك فيها المُفدي، وقد نحر رسول الله ﷺ وأخذ من كل جزور بضعة فجُعِلت في قِدر فأكل رسول الله ﷺ وعليٌّ من اللحم وحسوا من المرق[٢].

وقد يكون الأكل منها - كما الإطعام واجباً - أدبياً فإن تركه ترفُّع على الفقراء كما كان عند أهل الجاهلية، فليس الأمر - فقط - تجويزاً لسابق الخطر ومظنته، بل وإيجاباً لكسر هذه السنّة، ففي تركه إبقاء لهذه السنة ومسايرة عملية مع أهلها.

---

(١) آيات الأحكام للجصاص ص ٣: ٢٩٠ روى يونس بن بكير عن أبي بكر الهذلي عن الحسن قال: كان الناس في الجاهلية إذا ذبحوا لطخوا بالدم وجه الكعبة وشرحوا اللحم ووضعوه على الحجارة وقالوا: لا يحل لنا أن نأكل شيئاً جعلناه لله حتى تأكله السباع والطير فلما جاء الإسلام جاء الناس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: شيئاً كنا نصنعه في الجاهلية ألا نصنعه الآن فإنما هو لله فأنزل الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا﴾ [الحَج: ٢٨] فقال رسول الله ﷺ: لا تفعلوا فإن ذلك ليس لله.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٥٦، أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: نحر رسول الله ﷺ ومثله في التهذيب ٥: ٢٢٣ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: إذا ذبحت أو نحرت فكل وأطعم كما قال الله تعالى...

وفيه أيضاً الصحيح عن الباقرين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أنهما قالا: إن رسول الله ﷺ أمر أن يؤخذ من كل بدنة بضعة فأمر بها رسول الله ﷺ فطبخت فأكل هو وعلي وحسوا المرق.

ذلك وأما إطعام البائس الفقير فهو الواجب الركني الأصيل في ذلك الهدي، فأمره للإيجاب دونما ارتياب، وليس الأمر الأوّل إلا هامشياً تعبيداً لطريق ذلك الإطعام أدبياً فائقاً.

والبائس الفقير، هو أفقر من الفقير وأبأس من البائس فقد يكون «هو الزمن الذي لا يستطيع أن يخرج لزمانته»(١) وكما الفقير هو المكسور الفقار من شده المسكنة، فذلك كسر في المال وكسر في الحال، فإنه أجهد من المسكين والفقير(٢).

فهذه اللحوم مما رزقهم الله وهي من ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ وقد جعلناها نحن رزقاً للديدان والمحرقات والجرافات، وبديل أن يكون ذلك الرزق من ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ أصبح عملياً من أضر المضار مالياً وأدبياً وسياسياً حيث يضحك علينا العالمون كيف نبذر ذلك التبذير الرذيل وأمامنا في العالم الإسلامي فقراء لا يشمون ريح اللحم وقد قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينكم من اللحم فأطعموهم منها» وسيأتيكم التفصيل بكل بيان فيه تحصيل عند تفسير الآية الثانية إن شاء الله تعالى.

وإطلاق الذبح هنا وإن كان يعم كل الحجيج حتى المفرد، ولكنه مخصوص بحج التمتع ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ . . . ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾(٣) ثم القِران واسمه معه، دون الإفراد

(١) نور الثقلين ٣: ٤٩١ عن تفسير القمي عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هو...

(٢) المصدر عن الكافي بسند متصل عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]؟ قال: الفقير الذي لا يسأل الناس والمسكين أجهد منه والبائس أجهدهم.
أقول: تقديم الفقراء على المساكين عند الجمع، وتخصيص الفقير بالذكر عند الإفراد كما هنا يساعدان المعنى اللغوي الذي ذكرناه.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

حيث اسمه معه، إفراداً عن الهدي أو قراناً بالهدي، فلا يجب الذبح في الإفراد، ولا يجوز الأكل من غير الهدي، كالذبيح للجريمة حالة الإحرام، حيث النص خاص بالهدي الواجب على أية حال، لا والواجب عند الجريمة حالة الإحرام، فإنه خاص بالفقراء دونما استثناء، ذلك فرض ثانٍ في مِنى بعد الرمي وبعدهما الحلق والتقصير:

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾:

القضاء متعدياً بنفسه كما هنا هو الإتمام بالنسبة لأمر ابتدأه، والتفث علّها مأخوذة من أصل عبراني وهو «تافَس» (תָּפַס) أو «تافَش» (תָּפַשׂ) وكلاهما بمعنى أمسك وقبض، فقضاء التفث هو إتمام القبض والإمساك الذي ابتدئ فيه بالإحرام قبل عرفة، وقضاء التفث هنا بعد الذبح هو بالحلق والتقصير فيحلُّ عن الإحرام»[1] إلّا عن الطيب والنساء حيث يحللهما طواف الزيارة والنساء ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ إشارة إلى الطوافين، تكملة لذلك التفث فيحل عن كل محرمات الإحرام مهما بقي عليه بيتوتة مني ليلتين أو ثلاث ورمي الجمار في أنهارها.

وما أجمله تعبيراً منقطع النظير عن الإحلال عن الإحرام «التفث» كما التعبير عن بداية الإحرام «الرفث»: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...﴾[2].

وقد تعني قضاء التفث ضمن ما عنت «تقليم الأظفار وطرح الوسخ وطرح الإحرام»[3].

(١) الدر المنثور ٤: ٣٥٧ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: يعني بالتفث وضع إحرامهم من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار ونحو ذلك.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٩٢ - أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: قلت لأبي الحسن ﷺ: إنا حين=

وعلَّ كل ما ذكر في الأحاديث من تفسير للتفث اعتباراً بأنها من لوازم إتمام الإحرام وإنهائه ومن ذلك «هو ما يكون من الرجل في إحرامه»(١).

وعلى الجملة فقضاء التفث هو قضاء الإحرام بالخروج عنه تاماً وافياً، ولزامه بعدما قضى إلى الذبح، الحلق أو التقصير، والخروج عن تقصير كان له في إحرامه بفدية وسواها، ثم طوافي البيت زيارة ونساء، ثم ومن أكمله تتميم مناسك منى من بيتوتتها ورمياتها.

ولأن قضاء التفث ثُنِّي بطواف البيت، إذاً فهو الإحلال الأول إلا عن الطيب حيث يحل بطواف الزيارة، والنساء حيث يحل بطواف النساء، وإنما عبِّر عن الإحلال الأول بقضاء التفث لأنه أهمه، أم أن قضاء التفث يعم الآخرين، وذكر الطواف - إذاً - من باب ذكر الخاص بعد العام.

= نفرنا من منى أقمنا أياماً ثم حلقت رأسي طلب التلذذ فدخلني من ذلك شيء فقال: كان أبو الحسن صلوات الله عليه إذا خرج من مكة نأتي بثيابه حلق رأسه وقال في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] قال: التفث... وفي صحيحة البزنطي عن الرضا عليه السلام قال: التفث تقليم الأظفار وطرح الوسخ وطرح الإحرام عنه، وفي قرب الإسناد للحميري أحمد بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سألت الرضا عليه السلام عن الآية قال: تقليم الأظفار وطرح الوسخ عنك والخروج من الإحرام، واقتصار أبي جعفر عليه السلام في صحيحه محمد بن مسلم عنه بقص الشارب والأظفار تفسير ببعض لوازم الخروج عن الإحرام.

وفيه عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هو الحلق وما في جلد الإنسان، وعن ذريح المحاربي في الصحيح قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الله أمرني في كتابه بأمر فأحب أن أعمله قال: وما ذاك؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: ليقضوا تفثهم لقاء الإمام وليوفوا نذورهم تلك المناسك، قال عبد الله بن سنان فأتيت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال: أخذ الشارب وقصّ الأظفار وما أشبه ذلك، قال: قلت: جعلت فداك إن ذريحاً المحاربي حدثني عنك بأنك قلت: ثم ليقضوا تفثهم «لقاء الإمام» وليوفوا نذورهم «تلك المناسك»؟ فقال: صدق وصدقت إن للقرآن ظاهراً وباطناً ومن يحتمل ما يتحمل ذريح.

(١) المصدر حميد بن زياد عن ابن سماعة عن غير واحد عن إبان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية هو ما يكون من الرجل في إحرامه فإذا دخل مكة فتكلم بكلام طيب كان ذلك كفارة لذلك الذي كان منه.

وقد يعرف واجب الترتيب بين هذه المذكورات من ترتيبها في هذه الآيات، ذبحاً ثم حلقاً أو تقصيراً ثم طوافاً، اللهم إلا للمعذور عن تقديم الذبح كمن نبحث عنهم بعد.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾:

وترى ما هي النذور التي يؤمر الحاج بإيفائها بين هذه المناسك وقبل أن يطوفوا ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؟ وهي الوحيدة الآمرة بإيفاء النذور بين آياتها الخمس الذاكرة له دون أمر، اللهم إلا تبجيلاً لمن يوفي ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾(١).

النذر - وهو إيجاب ما لم يجب على نفسك - قد يُنشأ وافياً، ثم ليوفَ تطبيقاً، وعلَّ الإيفاء هنا يشملهما، فما فرض الحاج على نفسه بتقصير في إحرام، أم فرضه على نفسه دون تقصير وبدون تحديد لوقف الإيفاء، فليوفه تطبيقاً هنا وقد تخلص عن حصر الإحرام، ولكي يتخلص عن سائر الحصر فيصبح طليقاً من الأخِفَّاء حتى يطوف دون أثقال بالبيت العتيق، وذلك آخر المطاف في تخلُّصه عن حصر المحرمات الخاصة بالإحرام.

وما يعنيه من نذر لأمر يتقاضاه، فلينذر هنا إيفاء له كما يصح ويحق، وإن ناسب وقت إيفاء التطبيق قبل الطواف فليوف.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾:

وذلك آخر طواف وآخر المطاف في أهم مناسك الحج، وترى ماذا تعني ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ في تشديد التأكيد، دون «وليطُوفوا»؟ بلا تشديد، وهي الآية الوحيدة الآمرة بالطواف؟

قد تعني طوافاً بعد طواف، فلو كان الواجب هنا مرة واحدة لكان ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ بتخفيف، فليكن أكثر من مرة حيث هذه الصيغة تتطلب المزيد على طواف وأقله مرة أخرى.

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٧.

فلا هو - فقط - طواف الزيارة، ولا هو - فقط - طواف النساء، وعلَّ الرواية القائلة أنه طواف النساء، تعني بيان الخفي من واجب الطواف المختلف فيه بين المسلمين، دون خصوصه، رغم أن الواجب الأصيل من الطواف هنا هو طواف الزيارة، كما القائلة إنه طواف الفريضة تعني بيان الجلي.

إذاً فهو الطوافان: طواف الفريضة وطواف النساء[١] ومن المضحك المبكي تخصيص الآية بخصوص طواف النساء، وطواف الزيارة وهي ركن لا يُعنى منها[٢] والآية هي الوحيدة في القرآن! فالأحاديث الثلاثة، أنه طواف الفريضة أو النساء أو الطوافان مرجوعة إلى كتاب الله، فهو الطوافان دون ريب لمكان ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾.

ولأن ظاهر الأمر هو فور العمل به فليكن طواف الزيارة يوم النحر بعد قضاء التفث، اللهم إلا للمفرِد[٣] حيث لا تشمله الآية لمكان الأضحية غير الواجبة عليه، والصحيحان المتعارضان[٤] في القارن يُرجعان إلى القرآن،

(١) التهذيب ٥: ٢٥٢ الرقم ٨٥٤ والكافي ١: ٣٠٥ باب طواف النساء قال أبو الحسن عليه السلام في الآية: طواف الفريضة طواف النساء، أقول: علّ العاطف سقط عن قلم الناسخ، أم ترك إشارة إلى اندغام الطوافين مع بعض استدلالاً بتأكيد الصيغة في الآية ولكنه في المرآة ٣: ٣٤٦ والفقيه ٢: ٢٩١ هو طواف النساء، والنقل الأول أصح، وليؤول الثاني بما ذكرناه في المتن، وفي نور الثقلين ٣: ٤٩٣ عن الصادق عليه السلام قال: هو طواف النساء. -

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٩٣ في قرب الإسناد عن الرضا عليه السلام في حديث ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحَجّ: ٢٩] طواف الفريضة، أقول: هو طواف الزيارة وعله عليه السلام اكتفى به هنا لأنه الأصل، وكما اختص طواف النساء بالذكر في حديث سالف في بعض النقل أنه طواف النساء إلحاقاً به، والأوضح هو حديث الطوافين.

(٣) في الكافي ٤: ٥١١ والتهذيب ١: ٥١٨ والاستبصار ٢: ٢٩٤ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في زيارة البيت يوم النحر قال: زره فإن اشتغلت فلا تضرك أن تزور البيت من الغد ولا تؤخر أن تزور من يومك فإنه يكره للمتمتع أن يؤخر وموسع للمفرد أن يؤخره.

(٤) وهما صحيحة هشام عن أبي عبد الله عليه السلام لا بأس إن أخرت زيارة البيت إلى أن يذهب أيام =

فعلى القارن كما على المتمتع طواف الزيارة والنساء يوم النحر إلا لعذر، والصحيحان المجوزان للتأخير[1] محمولان على موارد العذر، حيث المحور هو الآية الظاهرة في وجوب الاستعجال، ونتيجة قياس الروايات عليها بقاء الوجوب الظاهر إلا لعذر أم في المفرد.

وقد يوهن الوجوب بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وهي للتراخي، فالواجب بعد الذبح وفاء النذر وطواف البيت في وقت متراخٍ، خرج الحلق أو التقصير بدليل وبقي الباقي ومنه الطواف.

ذلك، إضافة إلى أن ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾[2] وآخرها ذو الحجة إلى آخرها، ولأن البيتوتة في منى هي - فقط - في أيام التشريق، وليس بعدها إلا الطوافان فليسمح فيهما إلى آخر الشهر الأخير من المعلومات، فلا يبقى في البين إلا رجاحة تقديم الطواف، وهو الأحوط مطلقاً إلا لعذر عاذر.

ولأن الآية ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ مطلقة في مسرح الطواف، فطليقة ما صدق أنه طواف، فقد يصح الطواف حوله من أيٍّ المسجد الحرام، مهما توسع المسجد ما صدق أنه المسجد الحرام، فالمقام داخل

= التشريق إلا أنك لا تقرب النساء ولا الطيب، ومثلها صحيحة الحلبي سأل الصادق عليه السلام عن رجل أخر الزيارة إلى يوم النفر قال: لا بأس (السرائر ٤٤٤) أقول: وهي مقيدة بالمفرد، أو محمولة في غيره بالمعذور.

(١) قد مضت الأولى في رقم (١) والثانية في التهذيب ١ : ٥١٧ والاستبصار ٢ : ٢٩٢ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام سألته عن المتمتع متى يزور البيت؟ قال: يوم النحر أو من الغد ولا يؤخر والمفرد والقارن ليسا بسواء موسع عليهما، وفي خبر عمر بن يزيد ثم احلق رأسك واغتسل وقلّم أظفارك وخذ من شاربك وزر البيت فطف به أسبوعاً وفي صحيح معاوية عن الصادق عليه السلام في حديث قال: فإذا أتيت البيت يوم النحر فقمت على باب المسجد قلت. . .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

في حد الطواف، كما أن المسجد الحرام بمسارحه الثلاثة، أرضية وتحت الأرضية وفوق الأرضية، كله مطاف، مهما كان الأقرب إلى البيت فالأقرب أفضل كما الصلاة، وقد سُئل الصادق عليه السلام في الصحيح عن الطواف خلف المقام فقال: ما أحب ذلك وما أرى به بأساً فلا تفعله إلا أن لا تجد منه بدّاً»[1].

ولا تعارضها الرواية اليتيمة القائلة أن حدَّه ما بين المقام والبيت[2]

---

(١) الفقيه كتاب الحج ب ٧٢ ح ١.

(٢) في الكافي ٤: ٤١٣ والتهذيب ١: ٤٧٧ مضمرة حريز عن ابن مسلم قال: سألته عن حد الطواف بالبيت الذي من خرج عنه لم يكن طائفاً بالبيت؟ قال: كان الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطوفون بالبيت والمقام وأنتم اليوم تطوفون ما بين المقام وبين البيت فكان الحد موضع المقام اليوم فمن جازه فليس بطائف والحد قبل اليوم واليوم واحد قدر ما بين المقام وبين البيت من نواحي البيت كلها فمن طاف متباعداً من نواحيه أبعد من مقدار ذلك كان طائفاً بغير البيت بمنزلة من طاف بالمسجد لأنه طاف في غير حد ولا طواف له».

أقول: بعد مخالفتها لإطلاق الآية وصريح الصحيحة هي مضمرة غير منسوبة صريحاً إلى المعصوم وهذا كسر في الرواية، ثم إن بدايتها خلاف نص القرآن بالنسبة للطواف ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: ١٢٥] فلو كان المقام زمن الرسول قبل موقفه الآن - وكما في بعض الأحاديث - ملتزماً بالبيت وعمر هو الذي نقله إلى موقفه الآن لكانت صلاة الطواف قرب البيت حيث موضع المقام زمن نزول الآية، وهذا خلاف الضرورة الإسلامية بالإطباق.

ثم الطواف بالبيت والمقام زمن الرسول والطواف بينهما اليوم ليس لزامهما أنهما سيان، حيث الأول غير محدود بحد والثاني محدود، اللهم إلا بتلزيق الجملة التالية «والحد قبل اليوم واليوم واحد» فالجملة السالفة أجنبية عن إثبات الوحدة بين الحدين.

ثم القول: «فمن طاف متباعداً من نواحيه أبعد من مقدار ذلك كان طائفاً بغير البيت» هذا خلاف الواقع الملموس، فإنه طائف بالبيت ولو دل الدليل على بطلانه، كمن يصلي إلى القبلة بصلاة باطلة، فهو قطعاً مصلٍّ إليها مهما كانت باطلة والتعبير الصحيح هنا من طاف هكذا كان طوافه باطلاً، لا أنه لم يكن طائفاً بالبيت كمن طاف بالمسجد.

ثم المحكوم بالبطلان في هذه الرواية هو الطواف الذي كان متباعداً من نواحيه، فلا تحكم بالبطلان إذا تباعد من بعض نواحيه، ومحور الإبطال هنا أن يطوف بِكِلا المقام والبيت من كل نواحيه فإن طاف بينهما في موضع المقام ثم طاف أبعد من هذا المقدار في سائر الطواف فلا تبطله هذه الرواية حيث يصدق أنه لم يطف بالبيت. متباعداً من نواحيه أبعد من ذلك. =

لضعفها في سندها وفي متنها لنفسها قضية تعارض أجزاءها، وتعارضها ككلٍّ إطلاق الآية ونصَّ الصحيحة.

ثَم الحجر مطاف كما البيت فهو بيت في مسرح الطواف، فليكن الفصل المحدد بين المقام والبيت في هذه اليتيمة، هو الفصل بين جدار الحجر دون البيت.

ثم الممنوع فيها هو الطواف متباعداً من نواحيه أبعد من ذلك، إذاً فالابتعاد في بعض النواحي كناحية الحجر ولا سيما رأس الزاوية، غير ممنوع في نصها.

وبعد كل ذلك ليس الطواف خاصاً بزمن الرسول ﷺ والمسلمون الحجاج قلة، حتى يصح ذلك التحديد - إن صح دليله - بل هو عام يحلِّق على الطول التاريخي والعرض الجغرافي الإسلامي، ففيما يحج مئات الآلاف والملايين من المسلمين كيف يمكن الطواف المحدد بذلك الحد، ولا سيما في قياس هؤلاء الذين يفتون باحتساب ساحة الحجر في هندسة حدِّ الطواف، إذاً فلا يبقى في رأس الزاوية إلّا زهاء ثلاثة أمتار ونصف يجب أن يجتازها دون تجاوزِ مئاتُ الآلاف من الطائفين! وما كان ليجتازها القلة القليلة في البداية، ولا سيما الركاب، ولقد طاف رسول الله ﷺ أحياناً بالبعير، فهل كان يهندس هذه الهندسة الضيقة المضايقة في رأس الزاوية؟!

إذاً فلا إشكال في الطواف في أيِّ المسجد الحرام، مهما كان مكروهاً في موضع المقام أن يُدخله في الطواف إلا عند الحرج أو المشقة.

= ومن ثم كيف يصح فقهياً بيان مثل هذا الحكم المبتلى به دائماً بمثل هذه اليتيمة: المشوشة، المخالفة للآية والصحيحة الصريحة، غير القابلة للتطبيق حين كان المسلمون قلة فضلاً عن هذه الكثرة الكثيرة؟

ثم الحجر في المطاف محسوب من البيت فلماذا التضييق عنده بانحسابه من المطاف فلا تبقى في رأس زاويته إلا زهاء ثلاثة أمتارا!

ثم ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ قضيته أن يطوف الطائف باختيار منه، فإن طيف به دون اختيار منه أم هو نائم لم يكن من الطائفين، وإن طيف به باختيار منه ورضاً، أم طلب منه فهو من الطائفين، ومجرد الطواف باختيار ونية من الطائف ما صدق أنه طاف يكفي أداء لذلك الركن الركين.

ولأن طبيعة الحال في المطاف اصطكاك الطائفين بعضهم ببعض، وتدافعهم في ذلك السباق، وأن الطائف يُحمل أحياناً بطَوف من سيل الطائفين، شاء أم أبى، ويحوَّل أخرى إلى غير أمامه شاء أم أبى، علماً منه في ذلك المسيل الجارف غير المجازف والدوارة الهائلة، علماً أنه قد يطاف به أو يحوَّل! لذلك كله لا يضره في كونه طائفاً باختيار هذه الحالات التي هي من لزامات الطواف، ولا نص من غير آية الطواف يشترط عدم التحول عن الأمام حالة الطواف، وما مَثَلُ من يُحمل ماشياً بحمل الطواف، إلا كمثل من يركب في الطواف، فلا ضير - إذاً - في تلك العوارض التي هي لزام الطواف في ذلك السيل الجارف الدائر مدار البيت العتيق، كدوارة سيالة في ذلك المدار.

فمن يوغل نفسه في مجرف السيل باختيار، ثم يجرفه السيل أي مجرف دونما اختيار، فقد ينحسب كل انحراف له بمبدإ الاختيار، حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار، وحكمه - أياً كان - حكم الاختيار.

ثم طبيعة الحال العادية غير المصطنعة في الطواف حول البيت، انحراف اليسار عند الحجر عن جدار البيت لحدّ المواجهة للبيت نفسه، وهذا - قطعاً - لا يضر بواجب الطواف، فلا يجب بل لا يجوز تحويل اليسار إلى البيت عند الحجر، إما لأن الحجر محسوب في الطواف بحساب البيت فجداره جداره كما ساحته ساحته، أم لأن المأمور به هو الطواف عادياً دونما اصطناع حول البيت، ولا سيما في ذلك المجرف الدائري،

الجراف القوي القوي، الذي لا يسمح بذلك الطواف باختيار، فضلاً عن الهندسة المصطنعة للمحتاطين، تحويلاً لليسار إلى جدار البيت في زاوية الحجر، فإنها حالة مضحكة مبكية، شاقة محرجة وأحياناً غير ممكنة للطائف.

لا نص هنا ولا إشارة لأن يجعل جدار البيت في زاوية الحجر على اليسار، فأصل جعل البيت على اليسار أيضاً لا دليل له لفظياً إلا عمل المعصومين، وحتى لو كان هنالك نص على وجوب هذه الهندسة الملتوية، لكان ساقطاً عند الضرورة التي يعيشها الطائفون في الحج، كيف ولا نص هنا أو هناك إلا ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وكانوا يطوفون على اليسار.

ولأن المسألة هي من أهم ما تعم به البلوى، فلو كانت تلك الهندسة المحرجة شرطاً في الطواف لكانت النصوص عليها متواترة، وليس هنالك نص ولا إشارة!.

﴿... بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾:

مواصفة البيت بالعتيق لم تأتِ إلا هنا و﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وعلّ العتيق هو القديم زماناً ومكاناً، وهو الطليق عن أسر المُلكة والسلطة الخاصة لغير الله، فلم يُملك ولن يملك لأيٍّ كان وأيّان، وقد يجمعهما: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[1] فهو أوّل زماناً ومكاناً وقد مُكّت الأرض من تحته وبُكّت منذ حُرِّكت، وهو للناس كل الناس دون اختصاص ودون أية مُلكة فإنه بيت الله ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٩٤ في الكافي بسند متصل عن أبي حمزة الثمالي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام في المسجد الحرام: لأيِّ شيء سمى الله العتيق؟ فقال: إنه ليس من وضعه الله على وجه الأرض إلا له رب وسكان يسكنونه غير هذا البيت فإنه لا رب له إلا الله وهو الحر =

ومن ثم فهو عتيق طليق عن التهديم كما انعتق عن أصحاب الفيل، ومن قبل عتق من الغرق[١]. و«لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط»[٢] وهم الملحدون والمشركون الداعون إلى غير الله، مهما سيطر عليه - دون ملكة - جبابرة من المسلمين، أم تهدم ثلاث مرات في التاريخ الإسلامي! والطواف بالبيت العتيق هو أركن أركان الحج، بل هو هو الحج فإنه قصد البيت لزيارته، وقد سميت سائر شعائره حجاً بضمنه وضمانته، فما إحرام العمرة بواجباته ومحرماته إلا مقدمة تحضيرية للطواف، وما السعي بعده إلا تلحيقاً له وتعقيباً، ثم الإحرام للحج والوقوفان وبيتوتة مني بواجباتها، هي كذلك تحضيرات للطواف الثاني وهي طواف الحج: الزيارة، ثم السعي له تعقيب ثانٍ.

مناسك الحج كلها تحوي أسراراً، فطواف البيت هو محور الأسرار، حيث تحللت الآن عن كل طواف حول كلِّ مطاف، فتطوف الآن حول البيت العتيق.

لقد كنت قبلُ طائفاً حول نفسك ونفسياتك، أم أنفس الآخرين ونفسياتهم، ثم لبيّت دعوة ربك لحج بيته العتيق، لبيك لله ولا لبيك لسواه، فأنت الآن وبعد إحرامك تطوف حول البيت العتيق، بعدما كنت طائفاً طوف الرقيق حول الرقيق، فالآن أنت منعتق عن التطواف حول ما سوى الله ومن

= ثم قال: إن الله تعالى خلقه قبل الأرض ثم خلق الأرض من بعده فدحاها من تحته. وفيه عنه عليه السلام هو بيت حرّ عتيق من الناس لم يملكه أحد.

(١) المصدر عن أبي عبد الله عليه السلام إنما سمي العتيق لأنه أعتق من الغرق عتق الحرم معه كف عنه الماء. وفي البحار ١١: ٣٢٥ ص بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تعالى أغرق الأرض كلها يوم نوح عليه السلام إلا البيت فمن يومئذٍ سمي العتيق لأنه أعتق من الغرق فقلت له: صعد إلى السماء؟ فقال: لم يصل الماء إليه وإنما رفع عنه (قصص الأنبياء مخطوط).

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٥٧ - أخرج البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنما سمى الله البيت العتيق لأن الله...

سوى الله، حيث بيت الله في كونه مطافاً يمثل التطواف حول محور الحق لا سواه، الله لا سواه، كما الطواف محصور في بيت الله لا سواه.

أنت في حياتك كلها طائف حول مطاف، حركة دائرية دائبة حول مركز من مراكز الحياة والحيوية كما تروم، فتحوم حومه، وتطوف حوله، وأصلاً إليه أم غير واصل، حاصلاً على بغيتك أم غير حاصل.

فأنت طائف أينما كنت وحيثما كنت، فأنت أنت بنفسك الطواف طائفاً حول نفسك ونفسياتك، حول إنّياتك ومراداتك، حول أصنامك وطواغيتك، حول شخصياتك ومصلحياتك في كل محاورك، حركة دائبة دون أيَّة وقفة، وكلها هباء وإلى العراء، والآن - بعدما لبيّت - تبدَّل محور الطواف عن كل المحاور سوى الله، من غير الله إلى الله، من سائر البيوت وأصحابها إلى بيت الله وإلى الله.

وإنه حركة دائرية لا توصلك إلى مركزها، حيث الله لا يوصَل إليه، ولا نهاية لها قضيةَ الدائرة، لأن معرفة الله وعبوديته لا نهاية لها، وإنما تجعل هنا - كأمثولة - كلَّ حركاتك حول محور الحق، فليس لله مكان ولا بيت يحله حتى يطاف حوله، وإنما جعل هذا البيت رمزاً للتطواف الحق، إنه فقط حول مرضاة الله، حول بيت الله كأنه حول الله وليس له حول.

أنت في ذلك الطواف حول البيت العتيق تحرر نفسك عن كل طواف غير عتيق ولا طليق، وتحصر نفسك في حركاتها في ذلك الطواف، فتصبح طوافاً - وعلى طول خط الحياة - حول البيت العتيق، حول الحق الطليق.

تطوف بالبيت العتيق، الذي لا ظاهر له باهراً إلا أحجار سوداء، ولا باطن إلا خلواً عن كل باطن، غير مزخرف البنيان، ولا ساكن فيه أيٍّ كان، من نبي أو إمام، وليس الله - وهو بيته - من السكان، محور ومطاف حاسر عن كل ما يجلب العيون، ويجذب الأهواء، اللهم إلا مرضاة الله حيث أمرنا

أن نطّوف ببيته العتيق، تحرراً عن كل حركة وطواف، وانحساراً فانحصاراً في التطواف حول ما يرضاه الله.

ذلك تدريب أديب، يؤدبنا كيف علينا أن نطوف في كل مجالات الحياة تحرراً فيها - عن كافة المحاور إلا الله فـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

تذيب هنا كافة التشخصات عن نفسك، وتخفي شخصك بين سيول الطائفين، غارقاً فيهم دون تميُّز، درساً لك ملموساً لتكون في حركاتك إلى الله مع عباد الله، فإن «يد الله مع الجماعة».

تطوف سبعاً - عله - لكي تزيل عنك الوصمات السبع الإبليسة، فتغلق على نفسك الأبواب السبع الجهنمية، وكما تسعى سبعاً وترمي الشيطان الأكبر والأوسط والأصغر سبعاً، سبعاً تلو بعض ولِصق بعض، ولكي تتخلص بالنتيجة عن السبعة اللعينة الشيطانية وأبوابها.

ولأن الطواف بالبيت العتيق عبادة لا تؤتى إلا بأمر، ولم يؤمر به إلا بالبيت العتيق، فلا يجوز الطواف حول النبيين وسائر المعصومين، أو بيوتهم، أو قبورهم، فإنهم معكم طائفون حول هذا البيت فلا يطاف حولهم، كما الصلاة - فقط - لله وسائر العبادات خاصة بالله لا سواه، والعبادات توقيفية حسب المقرر في شرعة الله، فلا يؤتى حتى بصورتها لغير الله، لأنه تشريك بالله وتسوية في حرمة الله.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد المدى، العظيم العظيم الصدى، من حج البيت بمناسكه، فإنها من حرمات الله التي احترمها، وحرّمها على من يخترمها، حرمات وحرمات واجبة الاحترام عقيدياً وعملياً.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في أية مجالة من مجالاتها ﴿فَهُوَ﴾ ذلك التعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ﴿لَّهُۥ﴾ دون ربه، ومهما لم تكن خيراً عند من سوى ربه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ فمن يهتكها فهو شر له عند ربه، ومن لا يحترمها ولا يخترمها، عواناً بين تعظيمها وتصغيرها، فلا خير له ولا شر له إلا تركاً لتعظيمها الواجب، بل إن ﴿خَيْرٌ﴾ هنا يقابل الشر، فمن لا يعظمها فهو شر له عند ربه، فكما الله يعظِّم فرضاً، كذلك حرمات الله، حيث احترمها الله وحرَّم خلاف التعظيم لها.

و﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في وجهة عامة هي ما لا يحل هتكه وتجب حرمته ورعايته، من واجبات أو محظورات، فليست هي - فقط - المحرمات ولم تذكر هنا من ذي قبل إلا واجبات، وليست هي - فقط - الواجبات، بل هي حدود الله في ما فرض أو حذَّر، مهما اختلفت درجاتها حسب قراراتها، رجاحة في فرض أو واجب أو مندوب، وكراهة في فحشاء أو منكر أو مكروه، وهي كلها واجبة الاحترام فعلاً أو تركاً وعلماً واعتقاداً: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾[1] وهكذا سمي المسجد الحرام بالحرام لواجب الاحترام، وكما تسمى المحرمات أيضاً حرمات ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾[2].

إذاً فحرمات الله هي عبارة أخرى عن شرعة الله ككل، وقد ذكر هنا ويذكر قسم منها عظيم، لعبادة جماهيرية سياسية هي من شعائر الله، ومن مكبرات ومذياعات شرعة الله ككل.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في الكتاب من قبل هذا ومن بعد، تلاوة دائبة في العهدين مكياً ومدنياً، حيث الاستثناء لا

(١) سورة النمل، الآية: ٩١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

يختص بما يتلى بعد وقد تلي من قبل كما يتلى من بعد، حيث تلي في مكيات من قبل كالأنعام وكما هنا وفي النحل في أخريات العهد المكي، ثم في البقرة المدنية وإلى المائدة وهي آخر ما نزلت من المدنيات، إذ نجد في مكيات سالفة ولاحقة أم في مدنيات مستقبلية استثناءات عما أحلت من الأنعام.

﴿وَأُحِلَّتْ﴾ هذه هنا دون رباط ظاهر بما يتلوها، إلا ما سلف ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ أكلاً وإيكالا، إنها تنديد بالمشركين الذين كانوا يحرّمون لحوم الأضاحي من الأنعام على أنفسهم وعلى الفقراء، لأنهم قدموها للّه! فهنا وفي التالي يأمر الله بأكل لحومها وإيكالها وأنها ليست مما يتلى عليكم.

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ حيث تضحون باسمها ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ أن لحومها محرمة لأنها لله، فـ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾!

وترى ما هو ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ وما هو موقف ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾؟

الرجس هو القذر مادياً أو عملياً أو معنوياً، يجمعها الرجس المنفي عن أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١) وتتلوها ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾(٢) حيث الخمر رجس ذاتها وعملها وشربها وكل محاولة فيها إلا تحويلها خلًّا، والميسر عملها وأكل المال فيها، والأنصاب وهي ما ذبح على النصب فعملها رجس وذاتها وأكلها.

ومن الذاتي والعملي: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾[١] ومن الذاتي والمعنوي: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[٢] ومن الفاعلي ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾[٣] وفي صيغة شاملة كل واجب الاجتناب رجسٌ مساً أو عملاً أو عقيدة فيعم الرجاسات الظاهرية والباطنية.

و﴿ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ هي رجس صناعة، ورجس عبادة، ورجس ما ذبح عليها باسمها، ورجس سائر المعتقدات فيها والطقوس لها.

إذاً فـ «من» هنا قد تكون نشوية فهو رجس ناشئ عن الأوثان مثل ما ذبح على النصب، وما ذبح مذكوراً عليها اسم غير الله، وما أُهِلَّ به لغير الله ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ﴾: ما أهل به لغير الله، رجس صادر عن الأوثان.

وأخرى جنسية: ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ الكائن «من» جنس ﴿ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ صناعة وعبادة وأية محاولة شركية فيها.

وثالثة بيانية كأن الرجس - فقط - هو الأوثان، ولأنها مبدأ كل رجس في جنبات الحياة.

ورابعة تبعيضية ﴿ٱلرِّجْسَ مِنَ﴾ بعض المحاولات ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ ككل المحاولات الشركية الناشئة عن عبادة الأوثان، وأما كسرها وإحراقها وأمثالهما من محاولات توحيدية فهي واجبة ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ كبعض آخر مما يرتبط بالأوثان.

وقد تكون كلها معنية والأنسب في هذا المسرح هو الأول، اجتناباً مما أهلّ لغير الله به عملاً وأكلاً، واجتناباً من القول الزور فيها أنها آلهة تستحق الإهلال لها في الذبائح، والقول بحرمة الأكل والإيكال من الأضاحي لأنها

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٧١.

لله إذ كانوا يقولون فيها: لا يحل لنا أن نأكل شيئاً جعلناه لله حتى تأكله السباع والطير فردّ الله عليهم أمراً بالأكل والإيكال بشروط الحلية، وأنه ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا...﴾.

ثم ﴿قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ لا القول الزور، هو قول من الزور أو في الزور أو للزور بمثلث التقديرات في الإضافات الطليقة، فيحلق على كل قول مصدره زور، أو في مجال زور أم لغاية زور.

والزور من الزَّور والتزوير هو الميل عن الحق تظاهراً بالحق، نفاقاً عارماً ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، فهو أخص من مطلق الكذب، لأنه الكذب المنافق.

وواجب اجتناب قول الزور لا يخصه فاعلياً، بل وحتى حضوراً لمحضره وانفعالياً، فسماع شهادة الزور كنفس الشهادة مأمور باجتنابه وسائر قول الزور، فمنه شهادة الزور ومنه قول المشركين في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك»[١] كما منه قولهم في الأضاحي وتسميهم غير الله عليها، وكذلك الغنى الملهي[٢] لفظياً بأصوات مطربة أم معنويّاً بمعاني ملهية أم جمعاً بينهما فوا ويلاه! ومن قول الزور أن تقول للذي يغنِّي أحسنت[٣] مهما اختلفت دركاتها.

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٥٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية يعني الشرك. بالكلام وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت فيقولون...

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٩٥ عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: الغناء، أقول: إنها مخصوصة بالغناء الملهي كما في بعض الروايات لأنه في اللهو، وأما غير الملهي كالتفنن بالقرآن فهو غير محظور بل هو مشكور كما في الحديث: تغنوا بالقرآن - ليس منا من لم يتغن بالقرآن، فالقول: إن كل غناء زور هو نفسه من القول الزور، وفي المجمع روى أصحابنا أنه يدخل فيه الغناء وسائر الأقوال الملهية.

(٣) المصدر عن معاني الأخبار عنه عليه السلام في الآية قال: منه قول الرجل للذي يغني أحسنت، أقول: وهذا من باب بيان بعض المصاديق الخفية المختلف فيها، وكافة الرجس من الأوثان بالشطرنج فإن اللاعب به ينجذب إليه تاركاً ما يعنيه إلى ما لا يعنيه عاكفاً عليه كأنه يعبده، وهذا جارٍ في كل ما يلهيك عما يعنيك كأنك تعبده.

وقد قرن قول الزور أياً كان بالرجس من الأوثان ومن أنحسه شهادة الزور فقد «قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: أيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله - ثلاثاً - ثم قرأ: فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور»[1].

إذاً فقول الزور هو كل قولة هارفة جارفة مزخرفة بظاهرة الصدق، مهما اختلفت دركاته، وكما تختلف دركات الشرك، وقد قورن قول الزور بالشرك، دركات بدركات مما يجعله تلو الشرك، وهو في الحق إشراك للكذب بالصدق حيث يزوِّر بظاهرة الصدق.

ذلك - والزور أياً كان: قولاً وعلماً وعملاً واعتقاداً ومشهداً محظور ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[2] ﴿فَٱجْتَنِبُواْ...﴾!

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾:

إن كل زور حالاً ومقالاً وأعمالاً، ناشئ من الإشراك بالله مهما كان شركاً خفياً، إذاً ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ حال أنكم ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مائلين عما سوى الله ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ كلّ من سواه وما سواه، في أية دركة من دركاته جلية وخفية، فإنما يريد الله من عباده أن يميلوا عن الشرك كله، إلى التوحيد كله، وأن يجتنبوا قول الزور كله إلى الصدق كله، استقامة على التوحيد الخالص حالاً وقالاً وأفعالاً.

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٥٩ - أخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أيمن ابن خريم قال: قام... وفيه أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله ﷺ قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس فقال -: ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.

وهنا يرسم النص مشهداً عنيفاً مخيفاً يصوّر حال من يشرك بالله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ فإذاً هو ذاهب بدداً كأن لم يكن من ذي قبل أبداً، فإنه مشهد الهُويِّ من أعماق السماء إلى أعماق الأجواء الواسعة، فلا يجد مهبطاً إلا مُخطف الطير في الطريق ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾: بعيداً عن اللنظار، في هوّة هاوية ليس لها من قرار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾(١).

ذلك هو صورة الهوي من أفق التوحيد السامق الشاهق، إلى درك الشرك الساحق الماحق.

وقد يعني ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ بعد ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ تعريضاً بناس كانوا يحجون وهم مشركون فكانوا يسمونهم حنفاء الحجاج فنزلت هذه التلحيقة ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾(٢) إذ ليست الحنافة لفظة تقال، إلا رفضاً لكل ما سوى الله.

وهكذا نجد في آيات عدة نفي الإشراك بالله بعد الحنافة لله تأكيداً في حق المعني منه: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٣) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ وما أدراك ما هي شعائر الله؟ إن الحج بكل نسكه شعائر الله، إذاعة عالمية تبيّن الإسلام الحركي السياسي للعالمين، مهما كانت هذه الشعائر درجات: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾(٥) أفلا يكون - إذاً - الطواف بالبيت من شعائر الله، وإن سبقه على ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ هنا قد يجعله

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.
(٢) الدر المنثور ٤: ٣٥٩ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال...
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٥.
(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

كأنه كل شعائر الله، أم هو المحور الأصيل فيها، كما ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾[1] وهي على هامش شعيرة الطواف! بل والشهر الحرام وهو مسرح هذه الشعائر هو أيضاً من شعائر الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ...﴾[2].

وعلى الجملة ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ معرفياً وقولياً وعملياً وإذاعة بين الجماهير ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ إذاً فمن لم يعظم شعائر الله فإنها من طغوى القلوب.

ولماذا سميت ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ بما سميت؟ إنها جمع شعيرة وهي ما يدرك بلطف ودقة من أصل الشعر لدقته - وكما الشعور هو دقة الإدراك والشعار هو الثوب الرقيق الذي يلبس تحت الثياب، ملاصقاً للشعر وكما الشعر دقة في الإدراك - والعلامات المعنية المقررة لقوم من المحاربين مستسرة، فالأصل في كل صيغها الدقة واللطافة، وهكذا يكون شعائر الحج ومشاعره حيث تدرك أسرارها بدقة التفكير، مناسك لها معاني ومرامي دقيقة لا يدركها إلا أهلوها، ويرفضها أو يهينها البسطاء في المعرفة والإيمان.

هذه المناسك الشعائر كلها أعمال، وهي بحسب الظاهر بين سلبية كالوقوفين وإيجابية كالطوافين، أعمال رقيقة المعاني ودقيقة المرامي، كما الألفاظ الغامضة، والمشتبهة المعاني، ولكنها حكيمة الدلالة ومحكمة المدلول لمن يتعرف إلى الدلالة والمدلول.

هذه الشعائر، رغم لطافتها وغموضة المعني فيها، هي إذاعات عالمية إسلامية، تعريفاً بالإسلام الجماهيري الحركي، إشعاراً إلى ضرورة تأسيس

(١) سورة الحج، الآية: ٣٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

دولة إسلامية وحيدة، فإن مملكة الحج نموذجة بارعة تحضِّر لها حضورها، وكما هي رحمة وبركة وهدًى للعالمين.

وهذان بعدان بعيدان لهذه المناسك الشعائر، ليسا في سائر الفرائض والطقوس الإسلامية بهذه الصورة الرائعة والجمعية البارعة، اللهم إلا شذرات بينها هنا وهنالك وهناك.

فالحج بكل مناسكه - إذا أقيمت كما رسمت - هو مدرسة سيارة تجعل من الحاج إنساناً كاملاً متحلِّلاً عن كافة الوصمات فردية جماعية، متحلياً بكل بصمات الحق ونسمات القدس، وذلك لمن ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1].

وترى كيف اختصت تقوى تعظيمها بالقلوب؟ لأن تقوى القوالب ليست بتلك الأهمية مهما كانت مظاهر للتقوى، وأنها أيضاً في صالحتها من تقوى القلوب.

ثم لا يشعر هذه الشعائر إلا أصحاب القلوب التقية، المدركة لقلوب هذه الشعائر ومغازيها ومراميها، فإنها قوالب لها قلوب وأسرار، ليس ليدركها إلّا أصحاب القلوب.

ثم وتعظيم شعائر الله يحلِّق على كافة المراحل والمسارح، تعلماً وتفهماً وتأدباً وتطبيقاً وإذاعة.

فمن تعظيم شعيرة الأضحية اصطفاء الجميلة السليمة السمينة الثمينة، وإيفاء ما يتوجب في شأنها دون إفراط ولا تفريط، وكما يأتي في مجاله القريب.

ثم ولسائر الشعائر حرمات وتعظيمات كما تناسبها، قلبياً وقالبياً، ولكي يعلم العالمون أنك في موقف التعظيم والتكريم، دون أن تبذرها بذراً أو تردِّلها رذلاً، بل وتهتم بها أكثر من كل مهام الحياة، بكل دقة وهمامة.

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

وعلّ ضمير التأنيث في «فإنها» راجع إلى تعظيمات حسب الشعائر، جمعاً بجمع، فإن هذه التعظيمات من تقوى القلوب، أم إلى الشعائر نفسها، فإن الشعائر من تقوى القلوب، فإن محاورها هي محاور التفكير الدقيق العميق، وهي من قضايا تقوى القلوب، حيث القلوب غير المتقية لا تدرك حق الشعائر وأسرارها حتى يعظمها، والمعنيان علهما معنيّان حيث يتحملها أدب اللفظ والمعنى.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿لَكُمْ﴾ في بهيمة الأنعام ﴿مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو ما قبل واجب الذبح والنحر، من ظهورها وأشعارها وأوبارها وألبانها وأوراثها، وهذه من منافعها الدنيوية غير الشعائرية ﴿ثُمَّ﴾ بعد منافعها إلى أجل مسمى ﴿مَحِلُّهَآ﴾ الذي تحل فيه إحلالاً باسم الله وإحلالاً للأكل والإيكال ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ منافع أخرى هي كلها للأخرى، نسكاً وإيكالاً وشعيرة عظيمة من شعائر الله.

ولتكن واجهتُك لها ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أوجه منها من ذي قبل[1] ولتعظمها منذ صممت وعزمت على هديها، حيث تخرجها من مُلتك إلى مُلكة الله، ومن بيتك إلى بيت الله، ومن حوزتك وحيازتك إلى حوزة الله ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾. و﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ قد يعم زمان الحلول ومكانه، وكيف يكون محل الأنعام إلى البيت العتيق والمنحر في منى هو يحلُّها ثم الطواف فقط إلى البيت العتيق؟.

قد تعني محلها ما عنته ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[2]؟ ولكنه يختص بمن قتل

(١) نور الثقلين ٣: ٤٩٧ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: البدن يركبها المحرم من موضعه الذي يحرم فيه غير مضرٍّ بها ولا معنف عليها وإن كان لها لبن يشرب من لبنها إلى يوم النحر.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

الصيد محرماً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ...﴾! أم تعني ﴿مَحِلُّهَآ﴾ زماناً ومكاناً ومصدراً، وهو حلولها للذبح، تحليلاً عن الإحرام، ناحيةً منحى البيت العتيق، لأنه بطوافه هو المحور لكل المناسك الشعائر، فإنه أم الشعائر.

أم يعني ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ الحرم كله، أم منى ومكة كلها وكما يروى عن النبي ﷺ «كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر»[1] ولكن البيت العتيق هو البيت العتيق، دون مكة كلها أو الحرم كله!

أم وبأحرى ﴿مَحِلُّهَآ﴾ تعني محل شعائر الحج كلها، ومرجعها ومختمها ﴿إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ طوافاً، حيث الشعائر كلها تنحو منحى الطواف فإنه أصل الحج، بل هو الحج كله، ثم شعائره كلها تعبيدات له وتلحيقات كهوامش على ذلك المتن المتين والركن الركين.

ثم وهكذا ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ تحلِّق على شعائر الحج كلها، فإن فيها منافع من كافة أنواعها، روحية ومادية ودنيوية وأخروية، ولا سيما مدرستها السيارة، من إحرامها ووقوفيها وبيتوتتها، مدارس مسلسلة متصلة ترقى بالحاج إلى مراقي المعرفة والكمال وكما الله قال ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾.

أجل ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ كأصل أصيل عريق ضارب في أعماق الزمن، حيث كان مطافاً لكافة الموحدين منذ كانوا وإلى يوم الدين،

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٣ : ٣٤ قال عليه السلام : ... وفي الوسائل ١٠ : ٩٢ ح ٢ والوافي ٢ : ١٦٩ عن الصادق عليه السلام «مكة كلها منحر» ولكنه خاص بغير هدي الحج، أم مخصوص بحالة الاضطرار أم مضي أيام التشريق، والآية في مقام بيان ضابطة عامة تعني الحالة العادية.

فهذه الحرمات المناسك الشعائر، كلها إلى حرم الله ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ فإنه المحور والمدار، والمستقر القرار، ولا ركن في الحج يوازي الطواف أو يساميه، فإنه أركن أركانه وأعظم شعائره.

وأنها كلها تتسلل مندغمة مع بعض، ثم تحل إلى البيت العتيق طوافاً، فإنها تحضِّر الطائف ليحل ذلك المحل الرفيق، فيكون طوافه جامعاً لشروطاته.

يخطو الحاج تلك الخطوات الرائعة، اللائقة البائقة، بأقدام المعرفة وإقدام التضحية والعبودية، دارساً في مدرسة الإحرام، عارفاً في عرفات، مغربلا عرفاته في المشعر الحرام، مطبقاً مُناه في مِنى، وإلى تقديم الأضحية التي ترمز إلى تقديم النفس والنفيس، تحلُّلاً عن كل ما يملكه منهما في الله ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾!

إن لكل شعيرة من شعائر الحج أجلاً معجلاً ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ثم أجلاً مؤجلاً بعد البيت العتيق، حيث الحاج يستمر بهذه الذكريات منذ الحج وطيلة الحياة، أجلان هما مسميان، وأين أجل من أجل، والثاني خير مؤول، والأول خير معوَّل، حيث الأجل المحل إلى البيت العتيق أمثولة ودراسة تدريبية ونموذجية من برمجة الحياة السليمة الإسلامية، ومن البيت العتيق إلى آخر الأجل مسرح للتطبيق.

ثم وليست هذه المناسك الشعائر ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ فقط لهذه الأمَّة الأخيرة، بل:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

منسك واحد في الجذور وإله واحد في كل العصور، فأمّة واحدة ذات

رسالة واحدة مهما اختلفت القشور: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[(١)].

والمنسك هو مصدر ميمي واسم زمان ومكان، فهو نسك في زمان ومكان خاص، وهو عبادة خاصة في زمانها ومكانها الخاص بها، فهو هنا مناسك الحج كلها، ومما يلمح له هنا ﴿لِيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ثم قرنه بعبادات أخرى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[(٢)] - ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي...﴾[(٣)] ثم التماسه في موقف الحج كما في إبراهيم ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[(٤)] ثم ذكره بعد سرد من مناسك الحج: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾[(٥)].

ولو كان المنسك هو العبادة ككل لكان صحيح التعبير عنه النسك دون المنسك، فهو - إذاً - مناسك الحج لا سواها.

وهذه الآية مما تدل على أممية المناسك عبر الرسالات والأمم منذ آدم إلى الخاتم ﷺ، وقد وردت روايات في مناسكهم رسلاً وأمماً.

وقد تمتاز المناسك الإسلامية بميِّزات، كما هي طبيعة الحال فيها قضية الخلود والكمال القمة المغنية، ومنها ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ فإنها مزيد على ما لكل أمّة ﴿لِيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ...﴾! مهما كانت لهم منافع أخرى فيها من واجهات أخرى، ولكنها ليست لتبلغ مبلغ تلك المنافع الأخرى للشرعة الأخرى.

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وبيت عتيق واحد، ودين واحد، مهما اختلفت

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

مناسك عن مناسك، كما شرعة عن شرعة في مظاهر، حيث الأصل صادر عن مصدر واحد ولغاية واحدة.

إذاً ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ لا سواه، من عادات مهما كانت لشرعة سابقة، فالإسلام له، يجعل من الأمم أمّة واحدة مسلمة لله، دون تنازع في الأمر ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ وهو الدين الحق الذي تشرعت منه وتصدرت منه الشرائع.

﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ حيث الإسلام لله يوحد المشاعر والشعائر وكل الاتجاهات فيهما وسواهما.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ الإخبات مفسّرة بالآية التالية وهي لغوياً من الخبت:

المتّسع المطمئن من الأرض، والإفعال منه هو النزول إلى ذلك المتسع خروجاً عن كل ترفع وارتفاع، فالمخبت هو اللاصق بأرض العبودية اللازق بالخرور والخضوع والخشوع.

وهنا المعني منها الإخبات إلى ربهم، في تلك الساحة المتسعة من العبودية بكل صورها، في كل شرعة شرعة، دون إخلاد إلى أرض واحدة وساحة خاصة من شرعة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾[1].

فمهما كان أصلها الإخبات إلى الأرض، ولكنه ليس إلا له تعالى، فمن مخبت إلى الأرض للحياة الأرضية ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾[2] ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[3] ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ

(١) سورة هود، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ﴾[(١)] فبشّر المخبتين[(٢)] إلى ساحة متسعة من أرض العبودية «له» لا سواه:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

فللإخبات إلى الرب وللرب قوائم أربع من مظاهر العبودية وسرائرها، وفاقاً بين السر والعلن دون نفاق:

١ - ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والوجل هو استشعار الخوف، من نفسه لمعاصيه ومآسيه، ومن الله رهبة وهيبة، فهو أحض من الخوف، ووجل القلب يحلِّق على كل كيان الإنسان بمشاعره وشعائره، بأقواله وأفعاله وأحواله.

٢ - ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ في جنب الله، فيحتسبون عند الله عنائهم، دون أن يعييهم أو يخفف عن وطأتهم في عبادته، وتنمُّرهم في ذاته.

٣ - ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إقامة لائقة بجنب الله، فائقة كل قيام آخر وإقامة، ولا فحسب هذه الثلاث من العلاقات الشخصية بالله، بل وعلاقة جماهيرية خلقية كما أمر الله:

٤ - ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله، من كل نفس ونفيس ممكن الإنفاق في الله، ومن ذلك ما علّمهم الله حيث منه يبثُّون.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥٤.

(٢) تعليقات إحقاق الحق في آية المخبتين «علي منهم» نقله وصححه القرطبي في عداد من نزلت هذه الآية في حقهم (الجامع لأحكام القرآن ١٢ : ٥٩) وابن مردويه في المناقب قال: علي منهم وسلمان.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾:

هنا ﴿وَالْبُدْنَ﴾ وهناك ﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ ذكراً لاسم الله عليها وأكلاً وإيكالاً منها، فهما - إذاً - سيان، في أنهما ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وكما لحقت آية الشعائر الأولى الأنعام وبهيمة الأنعام أضحيات.

إذاً فالأضاحي هناك كلها من شعائر الله، فلنعرف واجهات هذه الشعيرة ما هيه؟

هذه الشعيرة وهي ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[1] بُدناً وهي أفضله، أم سواها كما استيسر، إنها «هدي» من الحاج لله تقوّى وإشارات، ولعباد الله الفقراء وهم ضيوف الله، إطعاماً.

فمن شعيرة الهدي إشعار المُهدي بمدى تضحيته في الله، أنه لولا نهي الله لكان ينتحر فهو - إذاً - نفسه أضحية تقديماً لله، ولكنه - لمنعه - يقدم بديلاً عن نفسه ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ إشعاراً بذلك الشعار أنني يا رب حضّرت حالي فداءً لك، وذلك الهدي كما استيسر إشارة مني ظاهرة إلى تلك الحالة الباهرة غير الظاهرة، ولكي يعلم العالمون أنني تخطيت النفس والنفيس، فأنا رهن الإشارة من ربي، متى أمرني أن أكون من الضحايا في سبيله!.

وهذه الشعيرة البارعة مأخوذة مما فعله إبراهيم بديلاً عن إسماعيله المأمور بذبحه امتحاناً، وقد كان عنده أنفس من نفسه ومن كل نفيسه، فقد أمر في المنحر أن يذبحه إبرازاً لمدى تسليمه لربه: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ. . . ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

فذلك الهدي المتواتر منذ إبراهيم وإلى يوم الدين، إنه ذبح عظيم، إعلاناً جاهراً وإشعاراً باهراً من الحاج، إنني أذبح كما ذبح إبراهيم، بديلاً عما أُمر بذبحه، فهذه شعيرة عظيمة في الهدي على مر الزمن ومنعطفات التاريخ، منذ خليل الله إلى حبيب الله وإلى يوم لقاء الله.

ذلك «ذبح عظيم» ما أعظمه، ابتداءً من هذه الشعيرة العظيمة، إذاعة للحجاج في مذياع الحج أننا وصلنا في مدرسة الشعائر المناسك إلى حد التضحية لأنفسنا في الله.

ثم حشراً لمسرح ومعرض الدم، سيول الدماء تسيل بأمر الله وفي سبيل الله وإطعام أهل الله، ولكي تتعود العيون أن ترى لون الدم، والأيدي والأرجل أن تنغمس في سيل الدم، ولكي لا يهابوا ويخافوا الدم، حيث تجب إراقتها في سبيل الله، في خطوط النار ومسارح الحرب حفاظاً على حرمات الله، قاتلين أعداء الله أو مقتولين في سبيل الله.

وهذه إشعارة ثانية في هذه الشعيرة، أنّنا أمّة الدم، فلا نخافه حين يطبّق أمر الله، حفاظاً على شرعة الله.

ومن ثم إشعارة ثالثة هي القاعدة الظاهرة لذلك المثلث في آيات الهدي، وهي: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ - ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ﴾ أكلاً وإيكالاً من هذه الهدية العظيمة، إشباعاً لبطون الجياع، الوافدين إلى البيت العتيق، حيث هم ضيوف الله، فـ «لن ينال الله لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى منكم»!

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٠٢-١٠٧.

فإطعام البائس الفقير، والقانع والمعتر، في ذلك المسرح العظيم، هو القاعدة المتينة والضابطة الركينة، المصرَّح بها في آياتها، لا فقط: الزاوية الأولى والثانية، اللتان لا يعرفهما إلا أهلوهما، ولو كانت فيهما الكفاية فليختص الهدي بقلة قليلة يعرفونهما، أم لتجب معرفتهما لكل مُهدي يقدم أضحيته لكي لا تذهب هباءً منثوراً!.

هنا ﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ - في هذه الزوايا الثلاث - تنال الله، وإن كانت أخيرتها وهي القاعدة الظاهرة إطعاماً لعباد الله، ثم ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ خلاف ما كان يزعمها المشركون:

«فقد كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا لطخوا بالدم وجه الكعبة وشرحوا اللحم ووضعوه على الحجارة وقالوا: لا يحل لنا أن نأكل شيئاً جعلناه لله حتى تأكله السباع والطير فلما جاء الإسلام جاء الناس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: شيئاً كنا نصنعه في الجاهلية ألا نصنعه الآن فإنما هو لله[1]».

فالآن - وقد ابتلي المسلمون بمثل هذه الفعلة المنكرة، والتبذير الموحش الوحشي، بل واجتازوا فعلة المشركين، حيث المذبح أصبح نتناً وعفناً لحد لا يقر به حتى السباع لتأكل من اللحوم - فمن هو المسؤول هنا إلا الفقهاء، حيث ظلوا يفتون بوجوب الذبح في محشر منى، دون أن يفكروا في علاج لهذه المشكلة العويصة من تبذير منقطع النظير في تاريخ الوحش والإنسان، إحراقاً أو دفناً بالجرَّافات والبولدوذرات لآلافات الأطنان من هذه اللحوم الركام كالأتلال في ساحة منى، مما يضحك الأعداء، ويبكي أو يشكك الأصدقاء.

فحين يحذِّر القرآن عن السرف والتبذير و﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ

---

(١) آيات الأحكام للجصاص ٣: ٢٩٠ روى يونس بن بكير عن أبي بكر الهذلي قال: . . .

﴿ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾(١) فهل من الممكن أن نؤمر في مؤتمر الحج وشعائره أمام العالمين، أن نبذِّر ذلك التبذير المنقطع النظير في تاريخ التبذير، وأما منا في العالم الإسلامي بطون غرثى وجياع بالملايين الملايين لا عهد لها بالشبع ولا طمع لها في القرص؟!

وقد حصر القرآن مناسك الحج وشعائره في ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ ومنها لحوم الأضاحي، فحصرت آياتها منافعها الظاهرة لكل العالمين في إشباع الفقراء والمساكين، وكما يروى عن الرسول الصادق الأمين ﷺ: «إنما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينكم من اللحم فأطعموهم»(٢) لا ليشبع أعداءنا أغنياء وفقراء من الضحك علينا في ذلك التبذير العامد، أو تشبع ديدان منى أو سباعها من أكلها، والسباع متنفِّرة منها، حيث لا تدنو منها!.

هنا الآيات من نواحٍ شتى، والروايات من أخرى، تفرض علينا أن نطعم الفقراء الجياع من لحوم الأضاحي، وإليكم درساً فصلاً هنا وهناك ليشبع دعوانا من أدلتها كتاباً وسنّة، إضافة إلى أدلة أخرى يعرفها كل ذي حجى:

﴿وَٱلۡبُدۡنَ﴾ جمع بدنة وهي الإبل البدين الثمين - كسائر الأنعام - ﴿جَعَلۡنَٰهَا لَكُم﴾: الحجاج ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ شعائر حكيمة معقولة تعريفاً بمدى كمال الإسلام ونبوغه وعظم المسلم وبلوغه -

فهل أن ذلك التبذير الحاضر في تلك الساحة الفسيحة من منى، ذلك من شعائر الله، أم من شعائر الجاهلية الجهلاء وأضل منها وأنكى؟!

﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ﴾ حيةً وأضحية، وهل أن من خيرها أضحيةً أن تبذر وتهدر هكذا أمام عالم من البطون الجائعة الغرثى التي لا عهد لها بلحوم

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٧.
(٢) وسائل الشيعة ١٠: ١٤٧ ح ٢٢ من لا يحضره الفقيه قال: قال ﷺ...

وسواها؟ كلا! وإن ذلك شرٌّ ما أنحسه وأتعسه، فـ «لكم فيها شر» حيث تقدمونها للديدان والمحرقات والجرافات، وتعفِّنون بها جوٌّ منى، جاعلين ساحة البيتوتة الذكر، والمشاورة بين الجموع، ساحة محرجة مهرجة، كلٌّ يعد الساعات والدقائق للفرار!

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ حال كونها ﴿صَوَافَّ﴾ مصطفة للنحر - أو الذبح - ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ﴾ وسقطت ﴿جُنُوبُهَا﴾ وظلت ميتة صالحة للأكل منها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أجل ﴿كَذَلِكَ﴾ المذكور المأمور به المشكور، أن تختاروا خيرها، وتذكروا اسم الله عليها وتأكلوا منها وتطعموا.. لا أن تختاروا شرها النّكر، فتذكروا سوى اسم الله عليها كما المشركون، أم لا تذكروا عليها اسماً كما الملحدون فتصبح ميتة لا تؤكل ولا تُطعم.

أو أن تذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها تذروها في محالها وتهدّروها فتعفّنوا الأجواء بها، أو تحرقوها أم تدفنوها!.

كذلك المعقول المشكور ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ لا هكذا اللامعقول المكفور ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما رزقكم من بهيمة الأنعام «لا» «لعلكم تكفرون» بنعمته، إزهاقاً لأرواحها، وإفناءً جنونياً وحشياً للحومها، فتكفرون أنتم كفراً أو كفراناً، ثم يكفر العالمون الناظرون إلى ذلك المسرح اللعين، كفراً بشِرعتكم، زعما أنها هي التي تأمركم أو تسمح لكم بهكذا تبذير وحشي لا يعرفه الوحوش في الغابات والفلوات! ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ كما كان يزعمه المشركون، ملطخين البيت بدمائها، مهدِّرين لحومها للسباع لأنها قدّمت لله فلا تؤكل! -.

﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ اتقاءً عن أن تذكروا اسم غير الله عليها، أم تبخلوا عن هديها، أم تهدروا لحومها - ﴿كَذَلِكَ﴾ الذي ذكرناه ﴿سَخَّرَهَا

لَكُمْ﴾ ذبحاً شرعياً وأكلاً وإيكالاً للجياع، على تقوى من الله في هذه الساحة الدامية، دون طغوى منكم بتبذير وحشي موحش، بحرمان أهليها الفقراء.

كذلك ﴿سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ ربكم ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ تكبيراً بتقواكم، وتكبيراً بإطعام الفقراء من عباده، لا تصغيراً لله بتلك الطغوى والتهدير والتبذير ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في هديهم، حيث يراعون فيه تقوى الله، دون المسيئين في هديهم تلك الإساءة المخزية المزرية.

ذلك، وقد عدت بهيمة الأنعام الأضاحي من منافع الحج الجماعية العالمية للمسلمين ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ . . . لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾[1].

فحين تُجمَل ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ تلك المنافع الهامة المنقطعة النظير، ثم يفرد منها بالذكر ﴿مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أكلاً وإطعاماً، اعتباراً أنها من أهم المنافع مادية ومعنوية، فهل أن ذلك التهدُّر في لحومها من ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ الشاخصة؟ فما هي ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ في ذلك التبذير المنقطع النظير إقتصادياً، وما هي في ذلك الإعلان الجاهر بسماح أم فرض واجب على ملاء العالمين، أن ذلك التهدير الكبير هو من أحكام الإسلام، الذي لا يسمح بأي إسراف أو تبذير حتى في نواة تمر!.

وهل عليهم أن «يذكروا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ» هكذا، أن يقدموا الأثمن الأسمن منها للحرق والتدفين والتعفين، بديلاً عن أن يأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير والقانع والمعتر؟! أو هكذا ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ سماحاً أممياً لذلك التبذير النكير؟

(١) سورة الحج، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

وَيْكأن دين الله بشرائعه هو دين الإسراف والتبذير، فعلى المتشرعين بكل شرعة أن يدرسوا في مدرسة منى كيف لهم أو عليهم أن يبذروا رزق الله وبأمر الله؟!

أفهكذا دعى إبراهيم الخليل ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1]؟ ففي الحق أنها دعوة عليهم لا لهم، أن يرزقوا من ثمرات الأنعام ثم يؤمروا بذبحها مهدِّرين لها؟!

أوَ هكذا يكون الهدي والقلائد مع البيت الحرام والشهر الحرام ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ حيث:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

فهل أن في ذلك التهديد الهدير الشرير النكير قيام للناس، قياماً روحياً أم سياسياً واقتصادياً، أم أنه قيام للنسناس الذين يعارضون شريعة الناس.

إنه قيام رمزاً للتضحية في سبيل الله، وشهوداً لسيول الدماء المهراقة في الله، وإطعاماً لعباد الله، ولكنا بدلنا قيامه سقوطاً وإسقاطاً لهذه الشعيرة الغالية عن أعين الناس، وإثباتاً لوحشية منقطعة النظير في شرعة الناس أمام النسناس.

أوَ هكذا يكون ذلك البيت العتيق بمناسكه ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3]: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ. . وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[4] فحتى الحشرات حيث لا تؤذى، وأما بهيمة الأنعام فتؤذي هكذا دونما نفع إلا ضراً راجعاً إلى أصل الإسلام والإسلام الأصل.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.
(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

وما هي هذه البركة والهداية للعالمين، وتلك الساحة الدامية المدمية في منى دركة وضلال للعالمين؟!

أم هكذا يكون البيت مثابة للناس وأمناً: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[1] أمَثابة في مثل ذلك التهدير التبذير، ولكي يدرس المسلمون كيف عليهم أن يبذروا أرزاقهم أمام الملايين من الجياع، وكما يفعله الاستعمار الكافر، فقد نرى السلطة الأمريكية كيف تلقي ملايين الأطنان من الحنطة والشعير في البحر، لكي يبقى الجياع جياعاً، وإن وراءه سياسة إبليسية؟.

فما هي سياستنا الإسلامية السامية في ذلك الإسراف العجيب والتبذير الرهيب؟!

تلك الأضاحي المهداة والأتلال من اللحوم الزكية، هي - فقط - للبائس الفقير والقانع والمعتر، وما الأمر بالأكل منها للمُهدين إلا أدبياً تأديبياً ليصطفُّوا هناك في صفوف الفقراء دون تميُّز عنهم، ومحقاً للسنّة الجاهلية حيث كانت تحرِّم الأكل منها وإيكالها، وقد يكفي هذا وذاك رفعاً للحظر عن الأكل منها لأنها - فقط - للفقراء، وهم الركن الركين والمتن المتين في هذه الساحة الدموية دون سواهم، اللهم إلا على هوامشهم، والتقسيم كما كما يأتي ثنائي بين المُهدين والفقراء، وليس ثلاثياً ثالثه الأصدقاء غير الفقراء.

لذلك يحصر الرسول ﷺ هذا الأضحى في المساكين قائلاً: «إنما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينهم من اللحم من اللحم فأطعموهم»[2].
ويخطب علي عليه السلام في الأضحى قائلاً: «وإذا ضحيتم فكلوا وأطعموا واهدوا واحمدوا الله على ما رزقكم من بهيمة الأنعام»[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٢) وسائل الشيعة ١٠: ١٤٧ ح ٢٢ من لا يحضره الفقيه قال: قال ﷺ: ....
(٣) المصدر ح ٢٣.

ولقد كان من رعاية الرسول ﷺ حقوق الفقراء فيها لحدّ «نهى ﷺ أن يعطى الجزار من جلود الهدي وجلالها شيئاً»[١]. ويقول حفيده الكاظم عليه السلام: «لا يصلح أن يجعلها جراباً إلا أن يتصدق بثمنها»[٢].

وفي متظافر الحديث عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام أنه لا يجوز للمهدي أن يدّخر من لحوم الأضاحي شيئاً، وإنما قدر يومه.

ذلك فكيف يجوز هضم حقوق الفقراء كما نفعله نحن في منى، هدراً ساحقاً للحوم، وحيلة شرعية! إعطاءً لثلث الثمن اللاشيء - في تقدير ذلك المسرح الذي لا قيمة فيه للحوم - للفقراء، وأي فقير يرضى أن يعطي من خمسمائة ريال عشرة؟! وقد نتساءل فكيف - والحال هذه - يأمرنا الله تعالى بما استيسر من الهدي، وقد نحر رسول الله ﷺ أحياناً ستاً وستين بدنة، مزيداً في الفضل، وتطبيقاً لما استيسر من الهدي؟

ولكن يأمرنا هكذا لنأكل منها ونطعم البائس الفقير والقانع والمعتر، وأما إذ لا فقير هناك، وإذا كان فاللحوم هي ملايين أضعاف نصيب الفقراء الحضور، إذاً فلا هدي إلا على قدرهم، أتراك حين تؤمر بإحضار طعام لتأكل ويأكل معك ألف من الجياع، فهل تحضِّره على نفس القدر حين لا تقدر أن تأكل، ولا أن هناك ألف ولا مائة ولا عشرة من الفقراء؟.

بطبيعة الحال ليس القصد من إحضار طعام إلّا ليطعم قدر الطاعمين، لا ليهدر حين لا يؤكل أم يؤكل منه جزء قليل، ثم البقية في تسعة وتسعين بالمائة تهدر؟!.

---

(١) المصدر ١٥١: ١ بسند متصل عن حفص البختري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نهى رسول الله ﷺ... ومعاوية بن عمار عنه عليه السلام وصحيح البخاري ٢: ٢١٢ وصحيح مسلم ٣: ٥٩٤ قال: نحر رسول الله ﷺ بدنة ولم يعط الجزارين من جلودها ولا قلائدها ولا جلالها ولكن تصدق به ولا تعط السلاخ منها شيئاً ولكن أعطه من غير ذلك.

(٢) المصدر الصدوق عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السلام قال: سألته عن جلود الأضاحي هل يصلح لمن ضحى بها أن يجعلها جراباً؟ قال:...

ولقد نحر الرسول ﷺ في حجة الوداع ذلك العدد الهائل لكثرة الفقراء، حيث كانت الأكثرية ممن حج معه مشاة وفقراء، فقد كان هديه قدر الحاجة والمُكنة.

ورعاية لحقوق الفقراء الحضور في منى، كان إخراج اللحوم منه ممنوعاً بعد ثلاثة أيام، ثم سمح فيه لقلة الفقراء فيها، فقد «كنا ننهى عن إخراج لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام لقلة اللحم وكثرة الناس، فأما اليوم فقد كثر اللحم وقل الناس فلا بأس بإخراجه»(١).

وهكذا ترون أن الأمر والنهي حول اللحوم دائر مدار الحاجة حيثما دارت، دونما هدر أعمى بتضحية جزاف فوضى دون رعاية لحقوق الفقراء! وهنا نتساءل: فماذا علينا في ظروفنا الحالية واللحوم مئات أضعاف الفقراء الحضور في منى؟

هنا طرق شرعية نتطرقها حفاظاً على أمر الأضحية وحقوق الفقراء فيها:

أولاً: تأسيس معامل لتعليب اللحوم الزائدة عن حاجة الفقراء الحضور والذين يمكن إيصالها إليهم حالاً، أم بعد زمن، حفاظاً لها في البرّادات على مدى الحاجات، فتبعث هذه المعلّبات إلى أكناف العالم الإسلامي الأقرب إلى الحرم فالأقرب، والأحوج إليها فالأحوج، رعاية لكامل حقوق الفقراء فيها، توزيعاً بينهم دون ثمن إلا قدر تكاليف التعليب والتوزيع.

ثانياً: - والحال عدم وجود هذه المعامل - أن يذبح قدر الحاجة يوم النحر، ثم يذبح قدر الحاجات في البقية الباقية من ذي الحجة الحرام، كما

(١) الوسائل ١٠: ١٤٩ ح ٦ قال الصدوق وقال أبو عبد الله عليه السلام وفيه ح (٤) عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان النبي ﷺ نهى أن تحبس لحوم الأضاحي فوق ثلاثة أيام من أجل الحاجة فأما اليوم فلا بأس به و(٥) عن جميل بن دراج قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن حبس لحوم الأضاحي فوق ثلاثة أيام بمنى؟ قال: لا بأس بذلك اليوم إن رسول الله ﷺ إنما نهى عن ذلك أولاً لأن الناس كانوا يومئذٍ مجهودين فأما اليوم فلا بأس.

يمكن إيصالها إلى الفقراء، حفاظاً عليها في البرّادات حسب الإمكانيات، ومن ثم توزيعها بين فقراء الحرم وما والاه من مملكة الحج وسواها، ثم القدر الزائد من كل ذلك لا يذبح وإنما تدفع أثمانها حسب السعر الحالي للفقراء في منى وسائر الحرم وسواه، تقديماً للأقرب فالأقرب، وهذا هو ما ﴿ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ حيث لا يمكن في صورة الذبح، انتقالاً إلى أثمانها العادلة.

وإن ثمن الهدي كله للفقراء، دون استثناء لما تأكلون حين تذبحون حيث السماح مختص بخصوص اللحم دون الثمن، وإذا اختلفت الأثمان حسب تصاعد السوق وتنازله فالقسم العادل بين الأثمان هو العدل المستحق للفقراء، فـ «انظروا إلى الثمن الأول والثاني والثالث ثم تصدقوا بمثل ثلثه»[(١)].

هذا - وبأحرى من فقدان الأضحية فقدان من يأكلها من الفقراء أم عدم إمكان إيصالها إليهم فليتصدق عليهم أثمانها العادلة المعتدلة.

فما أمكن إيصال لحومها إلى الفقراء فالذبح يوم النحر، وإلا فإلى أيام أُخر حتى آخر ذي حجة الحرام، ومن ثم تنتقل الأضاحي إلى أثمانها، رعاية في كل المراحل الثلاث كامل حقوق الفقراء، دون أن ينتقص منها شيء ولا نقير، إلا ما يشارك في أكلها مع الفقير، لحماً دون بديله الثمن، وكلّ ذلك تشمله ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ وللتفصيل يراجع آيتها.

وقد نتساءل كيف نخرج من الإحرام دون ذبح بتلك الأعذار؟

والجواب بصورة عامة إن الضرورات تبيح المحظورات، وخصوص

(١) الوسائل ١٠ : ١٧٢ ح ١ محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الله بن عمر قال: كنا بمكة فأصابنا غلا في الأضاحي فاشترينا بدينار ثم بدينارين ثم بلغت سبعة ثم لم توجد بقليل ولا كثير فرفع هشام المكاري رقعة إلى أبي الحسن عليه السلام فأخبره بما اشترينا ثم لم نجد بقليل ولا كثير فوقع: انظروا . . . ورواه الصدوق بإسناده عن عبد الله بن عمر والشيخ بإسناده المتصل الصحيح أيضاً عنه.

النصوص فيمن لم يجد الأضحية بدفع ثمنها، أم توديعه عند من يذبحها بعد ذلك أم في سنة قادمة[١] فهل يبقى الحاج محرماً حتى السنة المقبلة حيث تذبح عنه، وليس من الممكن في ظروفنا الحالية الذبح الصالح في عشرات من السنين المستقبلة.

ذلك، وهل هنالك عذر عن الذبح أكثر من هدره هضماً لحقوق الفقراء العزّل المظلومين؟!

ولأن التقسيم عند الذبح ثنائي حسب النص ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ - ﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فلا نصيب إذاً لغير الفقراء جيراناً وأصحاباً، لا سيما وأن أصحابك من غير الفقراء لهم أن يأكلوا من أضحياتهم، فالتقسيم الثلاثي، ولا سيما الأثلاث المتساوية، يجعل نصيب الأغنياء ثلثي نصيب الفقراء، وهذا منكر من القول وزور من الفتوى، المخالفة لنص الكتاب والسنّة[٢] وقضية الحال في الهدي وطبيعتها أنه - فقط - للفقراء.

ولم يسمح للأغنياء إلا مشاركتهم في أكلة اليوم مواساة معهم ونقضاً لسنّة جاهلية قاحلة، ثم وفي الأثلاث حيث يحسب القانع والمعتر اثنين، لا

---

(١) وسائل الشيعة ١٠ : ١٥٣ باب أفرد لذلك فيه أربعة أحاديث ومنها صحيحة حريز عن أبي عبد الله عليه السلام في متمتع يجد الثمن ولا يجد الغنم؟ قال: يخلف الثمن عند بعض أهل مكة ويأمر من يشتري له ويذبح عنه وهو يجزي عنه فإن مضى ذو الحجة أخّر ذلك إلى قابل من ذي الحجة.

(٢) المصدر ١٠ : ١٤٢ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا ذبحت أو نحرت فكل وأطعم كما قال الله: فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر، فقال: القانع الذي يقنع بما أعطيته والمعتر الذي يعتريك والسائل الذي يسألك في يديه والبائس الفقير، ومثلها صحيحة سيف بن تمار قال أبو عبد الله عليه السلام : إن سعيد بن عبد الملك قدم حاجاً فلقي أبي فقال: إني سقت هدياً فكيف أصنع؟ فقال له أبي: أطعم أهلك ثلثاً وأطعم القانع والمعتر ثلثاً وأطعم المساكين ثلثاً فقلت: المساكين هم السؤال؟ فقال: نعم وقال: القانع الذي يقنع بما أرسلت إليه من البضعة فما فوقها والمعتر ينبغي له أكثر من ذلك هو أغنى من القانع يعتريك فلا يسألك.

يعني ثلثك واقع الثلث المحدد، وإنما قسم من الثلاثة يكفيك أم ولأهلك يومك، وكما فعل الرسول ﷺ أتراه اختص بنفسه وأهليه اثنين وعشرين من هديه الستة والستين، ثم البقية لسائر الفقراء والمساكين[١]؟

والرواية القائلة بالأثلاث، وإن منه صديقك أم جارك[٢] مؤولة بالصديق أو الجار الفقير، أم مطروحة بخلاف نص القرآن. كما والقائلة بهدية ثلث قد تعنيها لغير البائس الفقير، من قانع أو معترٍّ[٣].

ونص القرآن لا يسمح بالأكل منها إلا في الهدي، وأما الكفارة فهي - فقط - للفقراء حسب الضابطة العامة وكما في روايات مستفيضة[٤].

فمن المضحك المبكي جداً دمج كفارات الإحرام - التي هي من خالص حقوق الفقراء - في هدي الأضحى هدراً في هدر، رغم التوسعة القطعية في مكانها وزمانها[٥].

---

(١) الوسائل ١٠ : ١٤٢ ح ٢ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام أنهما قالا : إن رسول الله ﷺ أمر أن يؤخذ من كل بدنة بضعة فأمر بها رسول الله ﷺ فطبخت فأكل هو وعلي وحسوا من المرق...

(٢) المصدر ١٠ : ١٤٥ صحيحة أبي الصباح الكناني قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لحوم الأضاحي فقال: كان علي بن الحسين وأبو جعفر يتصدقان بثلث على جيرانهم وثلث على السؤال وثلث يمسكانه لأهل البيت.

(٣) المصدر عن شعيب العقرقوفي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام : سقت في العمرة بدنة فأين أنحرها؟ قال: بمكة، قلت: أي شيء أعطي منها؟ قال: كل ثلثاً واهد ثلثاً وتصدق بثلث.

(٤) المصدر (١٤٣) صحيحة عبد الرحمن عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الهدي ما يأكل منه أشيء يهديه في المتعة أو غير ذلك؟ قال: كل هدي من نقصان الحج فلا يأكل منه، وكل هدي من تمام الحج فكل، وفيه عن السكوني عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال: إذا أكل الرجل من الهدي تطوعاً فلا شيء عليه وإن كان واجباً فعليه قيمة ما أكل.

(٥) الوافي ج ٢ ص ١١٩ ب ٨٧ من أبواب الحج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من وجب عليه هدي في إحرامه فله أن ينحره حيث شاء إلّا فداء الصيد فإن الله عزّ وجلّ يقول: هدياً بالغ الكعبة، أقول: وفي أحاديث عدة أن هدي الصيد إذا كان من العمرة فمكة وإن كان من الحج ففي منى، وأما كفارة غير الصيد فحيث شاء. وفي صحيحة إسحاق بن عمار عن أبي =

ولأن السلطة تمنع عن الذبح في منى بعد الأيام الثلاثة، وأن مكة - بل والحرم كله - منحر، يجوز الذبح في مكة وفي أي الحرم شاء.

ومن الراجح أو المتأكد جداً أن يشترك الحجاج، كل جماعة منهم في هدي واحد جمعاً في شعيرة الهدي، قدر الحاجة في منى، ثم ما تبقَّى عليهم، حكمه حكم المعذور كما قدمناه.

ثم «البائس الفقير والقانع والمعتر» هم شركاء ثلاثة في هذه اللحوم قدر حاجياتهم، وبعدما تأكل منها قدر يومك، فالبائس الفقير هو أحوجهم ومن ثم القانع والمعتر، ثم القانع هو «الذي يرضى بما أعطيته ولا يسخط ولا يكلح ولا يرتد شدقه غضباً، والمعتر المارّ بك تطعمه»[1] و«لا ينبغي له أكثر من ذلك هو أغنى من القانع، يعتريك فلا يسألك»[2].

وعلى أية حال فليكن التقسيم لحماً وثمناً عادلاً حسب الحاجة وقدر الأقدار، فالسائل بالكف يعطى أقل من غير السائل كـ «للفقراء الذين لا يسألون الناس إلحافاً يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف» فقد لا يسألون، وأخرى لا يجعلون أنفسهم معرض السؤال وهم أعفُّ من أولاء.

فالبائس الفقير الذي لا يسأل ولا يعرض نفسه معرض الحاجة والسؤال - فهو أخفهم سؤالاً وأكثرهم سؤلاً - يعطى أكثر ممن هو في معرض السؤال كالمعتر، أمن يسأل كالسائل بالكف، مهما كانوا على سواء.

فيا جماهير المسلمين، مقلَّدين ومقلِّدين، إلى كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ دون رعاية للشهرات وكل ما هو آتٍ خلاف الكتاب والسنّة، تطبيقاً للمُنى الإسلامية السامية في مِنى، رمياً على شيطان التبذير والإسراف سبعاً سبعاً، وتوزيعاً لحقوق الفقراء بينهم دون تبذير ولا تهدير.

= عبد الله عليه السلام قال: قلت له: الرجل يخرج من حجه شيئاً يلزمه في دم يجزيه أن يذبحه إذا رجع إلى أهله؟ فقال: نعم.

(١) نور الثقلين ٣: ٤٩٩ صحيحة سيف التمار عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث التقسيم. . . .

(٢) مضت هذه الجملة عن صحيحة سيف التمار الأخرى.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾
أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾
ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ
ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ
يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ
ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ
إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ
أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ
ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾
أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ
فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾
وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ
سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ
ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ
﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا

مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾:

إعلام صارخ في هذه الإذاعة القرآنية يطمئن الذين آمنوا في حياة المعارضة الدائبة بين كتلتي الكفر والإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فليدافعوا هم عن إيمانهم صامدين، دون تزعزع ولا تلكع في تلكم العقبات والعقوبات ودوائر السوء المتربصة بهم، حيث الله هو الدافع عنهم ما لا يستطيعون، وهو القائم بأمرهم ما لا يقدرون، شرط أن يوفوا بشرائط الإيمان، ويقدموا أشراطه جاهرين متجاسرين أمام الكفر الطاغي أياً كان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ وهو لا يدافع إلّا عمن يحب، ثم يذر من لا يحب في طغيانهم يعمهون، ويكلهم إلى أنفسهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

وليست هذه المدافعة الربانية - فقط - كما يزعمه البطّالون أن شرعة الله هي لله فهو الذي يدافع عنها، والمؤمنون بالله هم أهل الله، فهو الذي يدافع عنهم، دون أن تكون منهم دفاع.

إنها دفاع رباني بعد دفاعهم كما يستطيعون كما هنا بفاصل آية ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ...﴾ وفي البقرة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] ثم ونفس ﴿يُدَٰفِعُ﴾ دون «يدفع» لمكان المفاعلة حيث تقتضي فعل الدفاع من الذين آمنوا كما من الله، أن يدفع عنهم كما يدفعون، وكما الشياطين يدافعون عن غير المؤمنين كما يدفعون، وأين دفاع من دفاع، وأين مدافعة من مدافعة؟.

ثم و﴿كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تأييد ثالث بالتزام شريطة الإيمان الدفاع، فالمؤمن الذي حُمِّل أمانة الإيمان، عليه أن يؤديها سليمة فلا يخون، وأن يحوطه شاكراً لنعمته بنفسه ونفيسه فلا يكفر به كفراناً، إذاً فـ ﴿يُدَٰفِعُ﴾ قدر حفظ أمانته والشكر له، و﴿لَا يُحِبُّ﴾ قدر الخيانة والكفران، من أيٍّ كان مهما يدعي الإيمان و﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[2].

إذاً فعليك الحركة وعلى الله البركة، دون بطالة للإيمان وعُطالة لأهل الإيمان، متكلين كلياً على الله دون أن يأتوا بشرائط الإيمان، وبالصمود والحركة اللائقة في مجالات الامتحان: ﴿... وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.
(٢) سورة محمد، الآية: ١١.

بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾[(١)].

أجل وهذه قضية أمان الله لأهل الإيمان في هذه المعركة الصاخبة المستمرة بين قوى الخير والإيمان، وقوى الشر والطغيان، فالشر جامح مسلح، وهو يبطش غير متحرج، ويضرب غير متورع، ويسانده كل الطاقات الشريرة داخلية وخارجية، فلا بد - إذن - للإيمان من قوة تدفعه من بطشه، وتمنعه عن طيشه، وقاية للإيمان من فتنة الدوائر، وحراسة له من الأشواك في كل المحاور.

وليست قوة الإيمان في النفوس - فقط - لتكفي مكافأة ومكافاة، فللصبر حدٌّ وللاحتمال أمد، والله أعلم بما في النفوس من أصالة الضعف والطموس، فلذلك يعدهم - إن قاموا بشرائط الإيمان - أن يدافع عنهم قدر ما يدافعون، وأن ينصرهم كما ينصرون: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[(٢)].

ولقد صبر المؤمنون طيلة العهد المكي وقاية لكيانهم الجديد كي لا يهدر بدداً، لحدّ غلى مرجل اصطبارهم[(٣)] فكان يُطَمئِنُهم الله أنه هو ناصرهم وسوف ينصرهم، والآن وقد حان حين الدفاع الجاهر في العهد المدني، يجدد لهم وعد المدافعة، ثم يأذن لهم في الدفاع لأوَّل مرة، وهم في استعداد لائق للقيام بشروطات الدفاع، إذاً فـ :

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٦-١٦٨.
(٢) سورة محمد، الآية: ٧.
(٣) في المجمع كان المشركون يؤذون المسلمين لا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله ﷺ ويشكون ذلك إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر فأنزل الله هذه الآية بالمدينة وهي أول آية نزلت في القتال.
وفي الدر المنثور ٤ : ٣٦٣ - أخرج جماعة عن ابن عباس قال: لما خرج النبي ﷺ عن مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن القوم فنزلت هذه الآية.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾:

«لم يؤمر رسول الله ﷺ بقتال ولا أُذِن فيه حتى نزل جبرئيل بهذه الآية.. وقلده سيفاً[1] فهي أول آية نزلت في الدفاع والقتال، وكل حروب الإسلام مصبوغة بصبغة الدفاع مهما اختلفت صورها وظروفها وبواعثها، حيث يجمعها ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ طيلة العهد المكي، ومن ثم في العهد المدني، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ حين هم قلة قليلة، ولكنهم وهم خارجون عن مكة، قائمون على سوقهم في المدينة، «أذن لهم» حينئذٍ بالدفاع - فعلاً - دون الهجوم البدائي وإن لم يُظلموا بل حين ظُلموا وقوتلوا.

ذلك هو الذي يبرِّر خوضهم للمعركة حيث هم منتدبون لمهمة إنسانية كبرى، يعود خيرها إليها كلها، ولا سيما الكتلة المؤمنة المظلومة بين الكُتَل، ضماناً لحرية الأنفس والأعراض والعقائد والعبادات الإسلامية حيث ظُلمت وأُهينت في بداية عهدها، مستمرة حتى الدفاع الصارم.

فليس الدفاع الإسلامي صراعاً على عَرَض من أعراض هذه الأرض المتشجرة فيها الأطماع، دفاعاً وحرباً توسُّعياً لمكسب أكثر مُتعة في هذه الأدنى، وإنما هي عرض الإنسانية المؤمنة المظلوم في جو الظلامات.

هكذا ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ دفاعاً إذا ظلموا وقوتلوا دون إفراط المتوسعين المهاجمين، ولا تفريط التنابلة الكسالى القاعدين أولي الضرر باسترخاء، نظرة أن ينزل عليهم النصر والرخاء سهلاً هيناً بلا عناء، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويرتلون القرآن ترتيلاً، فإنها على فرضها ورجاحتها لا تؤهلهم وحدها لحمل دعوة الله وحمايتها وحياطتها.

---

(١) مجمع البيان وروي عن الباقر عليه السلام أنه قال: لم يؤمر.

ذلك، وقد ينمو الإيمان في ثنايا المعركة وهي في سبيل الله، كما ينمو اللاإيمان في ثناياها وهي في سبيل اللهو وزخرفة هذه الأدنى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ إذاً هم مضحّون في سبيله، فعليهم الحركة وعلى الله البركة وهم منتصرون قاتلين ومقتولين.

إذاً فالمدافعة الربانية عن الذين آمنوا إنما تتم عن طريقهم هم أنفسهم، دون لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء إلّا الدعاء.

إنها حين تذوب الغايات والحميات وإبداء الشجاعات ثم ليس كيانهم الدفاعي إلا «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1] فالمقاتلون المظلومون هم:

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾:

فـ ﴿أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ ذلك تصوير لغاية الظلم، وهم قبل الإخراج كانوا في العهد المكي في كل إحراج وارتجاج في كل متطلبات الحياة، فقد أحرجوهم حتى أخرجوهم مرة إلى الحبشة وأخرى إلى المدينة المنورة.

فالآن وقد ظُلموا من قبل حتى أخرجوا ثم ظلموا من بعد أن قوتلوا، أُذن لهم بدفاع صارم، حيث الصبر على الظلم مع إمكانية الدفاع، هو ضيم وظلم على ظلم، ظلم بالعقيدة وظلم بالمعتقدين وظلم بالآخرين حيث يعبَّد عليهم طريق الظلم فـ «لا يكون مأذوناً له في القتال حتى يكون مظلوماً ولا يكون مظلوماً حتى يكون مؤمناً ولا يكون مؤمناً حتى يكون قائماً بشرائط

(١) رواه الشيخان البخاري ومسلم في الصحيحين أنه سئل رسول الله ﷺ الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى فأيها في سبيل الله؟ فقال: . . .

الإيمان التي اشترط الله تعالى على المؤمنين والمجاهدين فإذا تكاملت فيه شرائط الله تعالى كان مؤمناً وإذا كان مؤمناً كان مظلوماً وإذا كان مظلوماً كان مأذوناً له في الجهاد»[١].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٠٢ عن الكافي في الصحيح عن أبي عمر الزبيدي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن الدعاء إلى الله والجهاد في سبيله أهو لقوم لا يحل إلا لهم ولا يقوم به إلا من كان منهم، أم هو مباح لكل من وحد الله عزّ وجلّ وآمن برسوله صلى الله عليه وآله وسلم ومن كان كذلك فله أن يدعو إلى الله عزّ وجلّ وإلى طاعته وأن يجاهد في سبيل الله؟ فقال عليه السلام: ذلك لقوم لا يحل إلا لهم ولا يقوم بذلك إلا من كان منهم، قلت: من أولئك؟ قال: من قام بشرائط الله تعالى في القتال والجهاد على المجاهدين فهو المأذون له في الدعاء إلى الله عزّ وجلّ في القتال والجهاد على المجاهدين فهو المأذون له في الدعاء إلى الله عزّ وجلّ ومن لم يكن قائماً بشرائط الله في الجهاد على المجاهدين فليس بمأذون له في الجهاد والدعاء إلى الله حتى يحكم في نفسه بما أخذ الله عليه من شرائط الجهاد بين لي يرحمكم الله. فقال فقال: إن الله عزّ وجلّ أخبر في كتابه الدعاء إليه ووصف الدعاة إليه فجعل ذلك لهم درجات يعرف بعضها بعض ويستدل بعضها على بعض - إلى أن قال - عليه السلام: ثم أخبر تبارك وتعالى أنه لم يؤمر بالقتال إلا أصحاب هذه الشروط، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠] وذلك أن جميع ما بين السماء والأرض لله عزّ وجلّ ولرسوله ولأتباعهم من المؤمنين من أهل هذه الصفة فما كان من الدنيا في أيدي المشركين والكفار والظلمة والفجار من أهل الخلاف لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمولّي عن طاعتهما مما كان في أيديهم ظلموا فيه المؤمنين من أهل هذه الصفات وغلبوهم عليه مما أفاء الله على رسوله فهو حقهم أفاء الله عليهم ورده إليهم وإنما معنى الفيء كلّ ما صار إلى المشركين ثم رجع مما كان غلب عليه أو فيه فما رجع إلى مكانه من قول أو فعل فقد فاء مثل قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦] أي رجعوا، ثم قال: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧] وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحُجرَات: ٩] أي ترجع ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ [الحُجرَات: ٩] أي رجعت ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجرَات: ٩] يعني بقوله: تفيء - ترجع فذلك الدليل على أن الفيء كل راجع إلى مكان قد كان عليه أو فيه، ويقال للشمس إذا زالت: قد فاءت الشمس حين يفيء الفيء عند رجوع الشمس إلى زوالها، وكذلك ما أفاء الله على المؤمنين من الكفار فإنما هي حقوق المؤمنين رجعت إليهم بعد ظلم الكفار إياهم فذلك قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحَج: ٣٩] ما كان المؤمنون أحق منهم.

=

. . . .

= وإنما أذن للمؤمنين الذين قاموا بشرائط الإيمان التي وصفناها وذلك أنه لا يكون مأذوناً في القتال . . . لقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ . . .﴾ [الحج: ٣٩] وإن لم يكن مستكملاً شرائط الإيمان فهو ظالم ممن ينبغي ويجب جهاده حتى يتوب وليس مأذوناً له في الجهاد والدعاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ لأنه ليس من المؤمنين المظلومين الذين أذن لهم في القرآن في القتال فلما نزلت هذه الآية في المهاجرين الذين أخرجهم أهل مكة من ديارهم وأموالهم أحل لهم جهادهم بظلمهم إياهم وأذن لهم في القتال.

فقلت: فهذه نزلت في المهاجرين بظلم مشركي أهل مكة لهم فما بالهم في قتال كسرى وقيصر ومن دونهم من مشركي قبائل العرب؟ فقال: لو كان إنما أذن لهم في قتال من ظلمهم أهل مكة فقط لم يكن لهم إلى قتال جموع كسرى وقيصر وغير أهل مكة من قبائل العرب سبيل لأن الذين ظلموهم غيرهم وإنما أذن لهم في قتال من ظلمهم من أهل مكة لإخراجهم إياهم من ديارهم وأموالهم بغير حق ولو كانت الآية إنما عنت المهاجرين الذين ظلمهم أهل مكة كانت الآية مرتفعة من الأرض عمن بعدهم إذ لم يبق من الظالمين والمظلومين أحد وكان فرضها مرفوعاً عن الناس بعدهم إذ لم يبق من الظالمين والمظلومين أحد وليس كما ظننت وكما ذكرت ولكن المهاجرين ظلموا من جهتين ظلمهم أهل مكة بإخراجهم من ديارهم وأموالهم فقاتلوهم بإذن الله لهم في ذلك وظلمهم كسرى وقيصر ومن كان دونهم من قبائل العرب والعجم بما كان في أيديهم مما كان المؤمنون أحق به منهم فقد قاتلوهم بإذن الله تعالى لهم في ذلك (٣).

بحجة هذه الآية يقاتل مؤمنوا كل زمان وإنما أذن الله للمؤمنين الذين قاموا بما وصف الله تعالى من الشرائط التي شرطها الله على المؤمنين في الإيمان والجهاد ومن كان قائماً بتلك الشرائط فهو مؤمن وهو مظلوم ومأذون له في الجهاد بذلك المعنى ومن كان على خلاف ذلك فهو ظالم وليس من المظلومين وليس بمأذون له في القتال ولا بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف لأنه ليس من أهل ذلك ولا مأذون له في الدعاء إلى الله تعالى لأنه ليس يجاهد مثله وأمر بدعائه إلى الله ولا يكون مجاهداً من قد أمر المؤمنين بجهاده وحضر الجهاد عليه ومنعه منه ولا يكون داعياً إلى الله تعالى من أمر بدعاء مثله إلى التوبة والحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه فمن كانت قد تمت فيه شرائط الله تعالى التي وصف بها أهلها من أصحاب النبي ﷺ وهو مظلوم فهو مأذون له في الجهاد وكما أذن لهم في الجهاد لأن حكم الله تعالى في الأولين والآخرين وفرائضه عليهم سواء إلا من علة أو حادث يكون والأولون والآخرون أيضاً في منع الحوادث شركاء والفرائض عليهم واحدة يسأل الآخرون عن أداء الفرائض عما يسأل عنه الأولون، ويحاسبون عما به يحاسبون.

ومن لم يكن على صفة من أذن الله له في الجهاد من المؤمنين فليس من أهل الجهاد وليس =

﴿أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، فإن القول ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ لا يُحق ذلك الإخراج الإحراج، فهو - إذاً - يستغرق سلب كل حق في ذلك الإخراج.

أترى ﴿أَن يَقُولُوا﴾ هو - فقط - قول بالأفواه والأعمال لاهية والقلب لاهٍ؟ ذلك القول الهازىء قولة المنافقين، وهي تتطلب الإفراج دون الإخراج، بل هو قول ينبئ عن عقيدة صارمة ظاهرة في الأفعال والأحوال على أية حال، حيث يحرج غير الموحدين لحدّ إخراجهم من ديارهم: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(١).

فإذن الله لهم بالدفاع دفاع، وأمرهم إياهم بالدفاع دفاع، ونصرته إياهم

= بمأذون له حتى يفيء بما شرط الله تعالى عليه فإذا تكاملت فيه شرائط الله تعالى على المؤمنين والمجاهدين فهو من المأذون لهم في الجهاد فليتق الله تعالى عبد ولا يغترَّ بالأماني التي نهى الله تعالى عنها من هذه الأحاديث الكاذبة على الله التي يكذبها القرآن ويتبرأ منها ومن حملتها ورواتها ولا يقدم على الله بشبهة لا يعذر بها أفإنه ليس وراء المعترض للقتل في سبيل الله منزلة يؤتى الله من قبلها وهي غاية الأعمال في عظم قدرها، فليحكم امرؤٌ لنفسه وليرها كتاب الله تعالى ويعرضها عليه فإنه لا أحد أعرف بالمرء من نفسه فإن وجدها قائمة بما شرط الله عليه في الجهاد فليقدم على الجهاد وإن علم تقصيراً فليصلحها وليقمها على ما فرض الله عليها من الجهاد ثم ليقدم بها وهي طاهرة مطهرة من كل دنس يحول بينها وبين جهادها ولسنا نقول لمن أراد الجهاد وهو على خلاف ما وصفنا من شرائط الله عزّوجلّ على المؤمنين والمجاهدين لا تجاهدوا ولكن نقول قد علّمناكم ما شرط الله تعالى على أهل الجهاد الذين بايعهم واشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجنان فليصلح امرؤٌ ما علم من نفسه من تقصير عن ذلك ويعرضها على شرائط الله فإن رأى أنه قد وفي بها وتكاملت فيه فإنه ممن أذن الله تعالى له في الجهاد وإن أبى أن لا يكون مجاهداً على ما فيه من الإصرار على المعاصي والمحارم والإقدام على الجهاد بالتخبيط والعمى والقدوم على الله عزّوجلّ بالجهل والروايات الكاذبة فلقد لعمري جاء الأثر فيمن فعل هذا الفعل أن الله تعالى ينصر هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فليتق الله امرؤٌ وليحذر أن يكون منهم فقد بيِّن لكم ولا عذر لكم بعد البيان في الجهل ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله عليه توكلنا وإليه المصير» أقول: الأرقام الأخرى راجعة إلى مقتطفات من الحديث فلتراجع.

(١) سورة البروج، الآية: ٨.

زاوية ثالثة من الدفاع قد يعنها كلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ...﴾ وهكذا الأمر ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ...﴾[(١)].

فذلك الدفع يجمع مثلثه تكويناً وتشريعاً، تطبيقاً منهم ونصرة من الله، لولاه لكان مسرح الحياة كله للشر والطغيان، دون أية مجالة للخير والإيمان ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٢)].

هنا ﴿دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ تعم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع والجهاد، فالناس الآخرون هم المؤمنون القائمون بشرائط الإيمان في الأمر والنهي والدفاع والجهاد، وليس كل الناس، فـ «لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه»[(٣)].

ثم لا تختص هذه الآية بزمن الرسول ﷺ ككل الآيات حيث تحلّق على العالمين إلى يوم الدين، و«لو كانت الآية إنما عنت المهاجرين الذين ظلمهم أهل مكة كانت الآية مرتفعة من الأرض»[(٤)].

«ويحجة هذه الآية يقاتل مؤمنو كل زمان»[(٢)] ولها مجالات متدرجة منذ حروب الرسول ﷺ إلى الإمام علي عليه السلام والحسين عليه السلام [(٣)] وإلى حروب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٣) نور الثقلين ٣: ٥٠١ في روضة الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٤٠] قال: نزلت في رسول الله ﷺ وعلي وحمزة وجعفر وجرت في الحسين عليهم السلام أجمعين وفي كتاب المناقب عنه عليه السلام في الآية قال: نحن - نزلت فينا.

(٤) المصدر في تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن مكان عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ...﴾ [الحج: ٣٩] قال: إن العامة يقولون: ي نزلت في رسول الله ﷺ لما أخرجته قريش من مكة وإنما هو القائم عليه السلام إذا خرج يطلب بدم الحسين عليه السلام وهو يقول: نحن أولياء الدم وطلاب العترة.

صالحة أخرى، حتى حرب القائم المهدي عليه السلام [٤] حيث تتحقق هذه الآية حقها وكمالها الشاسع دون إبقاء لكل خوّان كفور.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ... لَّهُدِّمَتْ...﴾ وذلك تهديم عميم لكل آثار الحق وأهله وذكر الحق وأهله:

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾:

تهديماً لأمكنة الذكر والصلاة لأهل الملل الثلاث وهم هامة أهل الكتاب بل وعامتهم، اليهود والنصارى والمسلمون.

فـ ﴿صَوَٰمِعُ﴾ هي الأمكنة الخاصة المنعزلة عن الناس لعبادة النصارى حيث تتخذ من البراري والجبال، ﴿وَبِيَعٌ﴾ معابد اليهود والنصارى، ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ هي معروفة للمسلمين فما هي «صلوات»؟

أهي العبادة المعروفة الخاصة بالمسلمين مقرونة بذكر أمكنتها «مساجد»؟ أم أنها صلوات كل الفرق الثلاث فإن لكلّ صلاة، فحين تذكر معابدهم ﴿صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ... وَمَسَٰجِدُ﴾ فلتذكر المعني منها كلها وهي «صلوات» فيعني تهديمها كما يناسبها من المنع عن إقامتها في محالها، أم في كل المحال مختصة وسواها، أم أنها من صلوات العبرانية، أماكن عبادة اليهود، أو الصابئين.

إنها قد تعني كل صلة بالله، ظاهرة وباطنة، ولأن الأمكنة الثلاثة أو الأربعة هي المحال والمحاور المعدة لعمودها الصلاة، لذلك أفردت بالذكر، وكلها تجمعها الصلاة كعبادة خاصة لكل شرعة، ثم «صلوات» تجمعها وكلّ صلة بالله، فردية وجماعية أما هيه، فإن دوائر السوء المستديرة على أهل الحق من طغاة التاريخ لا تبقي ولا تذر أية صلة بالله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بمختلف المدافع في مختلف الميادين والجبهات، عقائدية وثقافية وسياسية واقتصادية وأخلاقية وعسكرية أما هيه،

فـــــ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1]!.

هذه، ولا سيما الصلاة الإسلامية السامية، وقد قرنت «صلوات» بـ «مساجد» عناية لهذه المعنية بين كل الصلوات والمساجد عبر الشرائع طول التاريخ الرسالي.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ من ينصره في نفسه تخلقاً بأخلاق الله، وفي الحفاظ على دينه دفاعاً عن حرماته: مساجده وصلواته وكلّ صلاته، ذلك هو الذي ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ينصر كل قوي في إيمانه، عزيز في الدفاع عن إيمانه، وهم:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾:

وترى ما هو المعني ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حيث هو شرط الوجوب أو السماح لهذه الفروع الهامة من الشرائع كلها: «إقام الصلاة - إيتاء الزكاة - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»؟ إن تطبيق هذه الفرائض الثلاث - كسائر الفرائض والواجبات - مشروط بالإمكانية والتمكن.

وكما أنها مرحليات كذلك الإمكانيات طبقاً عن طبق، فلا تعني ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فقط تمكين السلطة الزمنية والروحية المحلِّقة على البلد الذي يعيشه المتمكنون فيه، فلا يجب - إذاً - إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من ليست لهم تلك السلطة! فنظراً إلى الواقع المستمر في التاريخ أن السلطات ليست إلا بأيدي النمردات والفرعنات تسقط هذه الواجبات الأصيلة عن المؤمنين العائشين تحت وطأة هذه السلطات!.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

وإنما تعني أن هذه الفرائض تقدَّر في تطبيقاتها المرحلية بقدر الإمكانيات، فإذ لا إمكانية لمرحلة علياً لم تجب على من لا يتمكنها، فإنما على كلٍّ كما يستطيع ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(١).

فهنالك مُكنة عامة تعم كافة المكلفين منذ بداية الرسالات إلى يوم الدين: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾(٢) فـ «إن» بالنسبة لذلك التمكين وصلية لا شرطية حيث الشرط لكل من يعيش على هذه الأرض حاضر ماثل أمامهم، مهما اختلفت إمكانياتهم في تطبيق واجباتهم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾(٣).

ثم مُكنة خاصة كما كان لذي القرنين ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ...﴾(٤) حيث مكن في مطلع الشمس ومغربها، ففرضه - إذاً - في مرحلة عليا قدر الإمكانية والمكنة ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾(٥).

وكما حصل ليوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾(٦) ومثلهما التمكين الموعود في الأرض للمستضعفين المؤمنين شرط أن يجنِّدوا طاقاتهم وإمكانياتهم للحفاظ على الإيمان: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾(٧).

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٩٥.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٨٤.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٥٦.
(٧) سورة القصص، الآيتان: ٥، ٦.

وذلك الوعد مستمر التحقيق للذين يطبقون شروطه في أنفسهم، وإلى يوم القائم المهدي عليه السلام حيث يمكّن الله له وللمؤمنين معه في الأرض كلها[(١)] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[(٢)] - ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[(٣)].

ثم وإقام الصلاة حقها له مراتب ودرجات حسب الإمكانيات، فإقامها كما تنهى عن الفحشاء والمنكر لفاعلها ومجتمعه الذي يعيشه هي القمة المعنية منها، وإيتاء الزكاة كما تكفي لمصلحة الدولة الإسلامية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث يحلقان على كل معروف متروك وكلّ منكر مفعول، هذه المرحلة من تلك الفرائض القمة تقتضي الإمكانية القمة بتمكين مكين في الأرض كلها، ثم وما دونها لما دونها، وكما أن هذه الثلاث مفروضة كذلك المحاولة للتمكن من تطبيقها حسب المستطاع مفروضة، وكما الله ينصر من ينصره في الدفاع عن حوزته، كذلك ينصره - وبأحرى - في خلق جوٍّ فيه يتمكنون من ذلك الدفاع والتطبيق لشرعته ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ - ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ دون المتخاذلين البطالين والتنابلة المهملين.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٠٦ في تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في آية التمكين، فهذه لآل محمد إلى آخر الآية والمهدي وأصحابه يملكهم الله مشارق الأرض ومغاربها ويظهر الدين ويميت الله به وبأصحابه البدع والباطل كما أمات الشقاة الحق حتى لا يرى أين الظلم ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

أجل - إنه النصر القائم على أسبابه ومقتضياته، المشروط بتكاليفه وأعبائه، والأمر بعد ذلك لله ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ بسردٍ من نظائرهم من المكذبين السبعة كالسبعة من أبواب الجحيم المفتَّحة طول التاريخ الرسالي على المرسلين، ذلك تسلية لخاطر الرسول الأقدس ﷺ، فهؤلاء هم أشد المكذبين للمرسلين إلا أن طبيعة الرسالة الإلّهية في هذه الأدنى أن تجتاز هذه المعاريض، وهي سليمة لا تزداد إلا تشعشعاً وتلألؤاً فلست أنت بدعاً من الرسل في سنّة التكذيب فإنها مطردة عبر الرسالات كلها.

ثم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ تنديد شديد بهؤلاء الأغباش الأنكاد، وقد كانوا من سبقوهم أشد منهم وأقوى، أخذ شديد بعد إملاء وإمهال مديد، وأمدَّهم قوم نوح ثم فرعون ثم إخوانهم «إن أخذ ربك لشديد».

ولماذا يفرد موسى في جملة خاصة بتكذيب مجهول دون «قوم موسى»؟ لأنه كذبه القبط الفرعوني كأصل، مهما كذبه قومه أحياناً عن جهالة وغباوة دون فرعنة وعناد، كذبه هؤلاء وأولاء رغم آياته البينات التي هي أكثر من آيات الرسل الذين قبله! وضخامة الأحداث التي صاحبتها، فعليك بالتصبُّر يا حامل الرسالة الأخيرة لتجتاز كل العقبات وتتحمل كل العقوبات فإنك موعود بالنصر كمن سبقوك من حملة الرسالات، والمكذبون موعدون بالأخذ النكير ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟: نكراني عليهم عملياً في هذه الأدنى وهي ليست دار جزاء، فويلاهم إذاً من الأخرى، وإنه هنا نكير

الطوفان والغرق والتدمير، والخسف والهلاك والزلازل والعواصف والترويع ما يعجز عنه التعبير.

فتلك مصارع الغابرين المذكورين في صحائف التاريخ أمام الحاضرين والآتين، إنذاراً للمكذبين وتبشيراً للمؤمنين، ولهم نظائر دونهم أو أمثالهم:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾:

قرى كثيرة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ مساكن بساكنيها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أهلها، لحد كأنها هي الظالمة بجوّها، ﴿أَهْلَكْنَاهَا... فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ والعروش هي كل السقوف القائمة على الجدران، والأشجار الجنات القائمة على العمدان، وعرش السلطان أم أياً كان من سقوف العمران، والخاوية هي الخالية كالمنزل الخاوي، وهي الساقطة كالنجم الخاوي، فمنها ما هي خالية عن ساكنيها على بقاء عروشها، ومنها ما هي ساقطة على عروشها حيث خوت وتهدمت فخلت من ساكنيها.

ثم وكأين «من بِئْر مُعَطَّلَة»: لا يستفاد منها حيث هلك أهلوها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مجصّص بألوان الجصّ وأشكاله، وهي كسائر عروشها بين ساقطة مهدومة وخالية محرومة.

مناظر موحشة كئيبة تدعو إلى التأمل في صورها الخاوية وربوعها الخربة، تستجيش للعبرة، وإلى جوارها الآبار المعطلة المهجورة الخواء، والقصور الخالية البواء، تطوف بها الرؤيا والأشباح والذكريات والأطياف، والله من أهلها براء!.

وقد يجري ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ في الإمام الصامت أو الغائب ﴿وَقَصْرٍ

مَّشِيدٍ﴾ في الإمام الناطق(١) أهلكت هذه القرى وفيها حجج الله صامتة تتقي أم ناطقة تهدي أم غائبة تُرتجى.

والمعنيان معنيان في ظاهر التفسير وباطن الجري والتأويل، تنديداً بمن يهلكون عطاشاً وعندهم بئر، ويسكنون بواءً دون ظل وعندهم قصر مشيد، فليهلكوا - إذاً - بقريتهم ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾!

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾:

ويلهم! إن مصارع الغابرين أمامهم ماثلة، وحيالهم شاخصة موحية، تتحدث بالعبر، ما بين مرئية بالبصر ومسموعة بالخبر، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سيراً تاريخياً وسيراً جغرافياً، سيراً في أرض الحياة الغابرة والحاضرة، أم ساروا دونما سمع ولا بصر من إيحاءات الأرض بآثارها من الصالحين والطالحين، ليروا عواقب أولاء وهؤلاء هنا في الأولى، فضلاً عن الأخرى.

(١) نور الثقلين ٣: ٥٠٦ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: البئر المعطلة الإمام الصامت والقصر المشيد الإمام الناطق ومثله في معالي الأخبار بإسناده إلى إبراهيم بن زياد عنه عليه السلام وثالثة فيه عن نصر بن قابوس عنه عليه السلام ورابعة في الكافي موسى بن القاسم البجلي عن علي بن جعفر بن أخيه موسى عليه السلام وفيه عن تفسير القمي قال: هو مثل لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحجّ: ٤٥] هو الذي لا يستقي منها وهو الإمام الذي قد غاب فلا يقتبس منه العلم إلى وقت ظهوره ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحجّ: ٤٥] هي المرتفع وهو مثل لأمير المؤمنين عليه السلام والأئمة منه صلوات الله عليهم وفضائلهم المنتشرة في العاملين المشرفة على الدنيا وهو قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقد قال الشاعر في ذلك:

بئر معطلة وقصر مشرف ... مثل لآل محمد متطرف
فالقصر مجدهم الذي لا يرتقى ... والبئر علمهم الذي لا ينزف

فالسير في الأرض تحرِّياً عن نبهات واعتبارات يكون لمتحريها قلباً به يعقل، وأذناً به يسمع، آيات آفاقية بين مسموعة ومبصرة، تنضم إلى أخرى أنفسية، فتكمل الحجة بما تتبين المحجة، أرض معروضة للسامعين الذين يعقلون، والعقلاء الذين يسمعون، أرض التكوين، وأرض التدوين وأفضلها القرآن(١) فإنه معاريض لكل غابر ومستقبل وحاضر، وهو خير تأريخ يخبر عن أخبار الماضين وأرض الرسالات وفاعلياتها، وأرض المرسل إليهم وإنفعالاتهم، أم أي أرض هي عرض لمن يستعرض.

هناك قلوب لا يُعقل بها، مقلوبة عن أن تعقل إنسانياً، وآذان لا يُسمع بها، صُماً أن تسمع إنسانياً، فأصحابها لا يهتدون بهدي آياتهم الأنفسية، فليسيروا في الأرض، في معرض الآيات الآفاقية ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ قلوب تعقل ما تراه من حقائق، أم إذا لا تعقل في أنفسها بالمعاقل الآفاقية، فـ ﴿ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ممن يعقل، فإنما الأصل أن تعقل الحقائق بالقلوب البصيرة، غير المقلوبة العمي الحسيرة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الشاهدة لمشاهد الأرض، حيث أبصار العيون فاتحة ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ: ليس الأعمى من يعمى بصره ولكن الأعمى من تعمى بصيرته»(٢).

فالأعمى البصر الذي له بصيرة يبصر ما لا يبصره من ليست له بصيرة،

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٠٧ في كتاب الخصال وسئل الصادق عن قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ [يوسف: ١٠٩] قال: معناه أوَ لم ينظروا في القرآن.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٦٥ - أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو نصر السجزي في الإبانة والبيهقي في شعب الإيمان والديلمي في مسند الفردوس عن عبد الله بن جراد قال: قال رسول الله ﷺ.. وفي نور الثقلين ٣: ٥٠٨. عن روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: وأعمى العمى عمى القلب، وفيه قال أبو جعفر عليه السلام: إنما الأعمى عمى القلب.

كما الأصم المفتوح أذن قلبه له سمع ليس لمن يسمع بأذنه، فإنما العمى عمى القلب حيث لا ينفع معها بصر العين، والبصر هو بصيرة القلب التي لا تضر معها عمى العين.

وإنما الأصل في سير الأرض أياً كان آفاقياً، وسير النفس، وهو بصيرة القلوب التي في الصدور، فالقلوب العمي هي ميتة مقلوبة لا تنفع معها الأبصار والآذان، حيث تسمع كحيوان وتبصر كحيوان، وهذه من صفات الدنيا «من أبصر إليها أعمته ومن أبصر بها بصرته» فأصحاب القلوب العمي يبصرون إليها كغاية ونهاية فيركنون إليها، وأصحاب البصيرة يبصرون بها إلى غايتها الأخرى ونهايتها فلا يركنون إليها.

والقرآن يعبر عمن ليست له بصيرة كما هنا ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ وأنهم صم عمي: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[1] ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾[2] وأحياناً يزيد عليها البكم ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[3].

هذا - ولكنما أصل البلاء في ذلك الثالوث المنحوس هو «العمى» ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ حيث السمع مدخل لتبصّر القلب، واللسان مذياع لما يعتقده القلب، فالقلوب العمي التي لا تحن إلى البصيرة، لا مدخل إليها سمعاً فأصحابها ﴿صُمٌّۢ﴾ ولا مذياع لحق فيها فأصحابها ﴿بُكْمٌ﴾! فقد «تاه من جهل واهتدى من أبصر وعقل»[4] «ولا

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٣.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٤٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨.
(٤) نور الثقلين ٣: ٥٠٧ - في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام . . . فإنها لا تعمى. . . . وكيف يهتدي من لم يبصر وكيف يبصر من لم يتدبر، اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وأقروا بما نزل من عند الله واتبعوا آثار الهدى فإنهم علامات الأمانة والتقى.

يصح الاعتبار إلا لأهل الصفا والبصيرة»[١]: و«إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه فيشاهد بها ما كان غائباً عنه»[٢].

فقلب مقلوب واه، ذاهل عن التفكر في آيات الله فلا يعقلها، إنه أعمى «وشر العمى عمى القلب»[٣].

وهنا معنى عجيب وسر لطيف في ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ حيث لا يعني نفي العمى عن الأبصار جملة، فقد تعمى وقد لا تعمى، وإنما يعني أن الأبصار إذا كانت معها آلة الرؤية من سلامة الأحداق واتصال الشعاعات لم يجز ألّا ترى ما يُرى، ولكن القلوب هي على خلافها، إذ تكون فيها آلة التفكر والنظر وهي معذلك لاهية عن النظر، متشاغلة عن الفكر، إلا من هدى الله.

وهنا ﴿فِى ٱلصُّدُورِ﴾ بيان لعنوان القلوب ومكانها من الأرواح، فالعقل الأول مكانه المخ، والثاني المغربل الأصفى مكانه الصدر وهو برّاني القلب، والثالث المصفَّى مكانه القلب، فكما أن قلب الجسم هو محور حياة الجسم، كذلك قلب الروح المستكن في قلب الجسم الكائن في صدره، إنه محور حياة الروح، ولا يحيى الروح إلا ببصره وبصيرته، فإذا عمي فالروح ميت إنسانياً وإيمانياً، مهما كانت له أحظى حظوة الحياة حيوانية.

---

(١) المصدر في مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام . . . قال الله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وقال عز من قائل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الحج: ٤٦]. . فمن فتح الله عين قلبه وبصر عينه بالاعتبار فقد أعطاه منزلة رفيعة وملكاً عظيماً.

(٢) المصدر في عوالي اللآلي وقال صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) المصدر علي بن إبراهيم في خطبة لعلي عليه السلام وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى وشر العمى عمى القلب.

وفيه عن الخصال عن علي بن الحسين عليهما السلام حديث طويل يقول فيه: إن للعبد أربع أعين عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه وعينان يبصر بهما أمر آخرته فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته وإذا أراد به غير ذلك ترك القلب بما فيه.

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ لا عقول أم صدور يعقلون بها، رغم أن العقل هو الذي يعقل في البداية، فقد يعقل العقل والصدر ضيق لا ينشرح به ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[1] فإنه استيقان العقول فقط.

أم يعقل الصدر وينشرح بما عقله العقل، والقلب بعد غير عاقل كما يحق، فهو عوان بين الكفر والإيمان، فقد يفسق وقد لا يفسق.

وأما إذا عقل القلب ما عقله الصدر عن معقول العقل، فهنالك الإيمان القمة المرموقة، سواء أكان عقله ما عقل ظناً فهو من أصحاب اليمين، أم علماً فهو من السابقين والمقربين: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[2] وذلك ظن القلب عقلاً راجحاً فيه، دون ظن الصدر أو العقل! فلأن أبصار القلوب هي قلوب الأبصار، لذلك اختصرت هنا فيها كأنها احتصرت، فما تفيد سائر الأبصار فوائدها المرغوبة منها إلا إذا انتشأت من أبصار القلوب، فما يبصره البصر أو يسمعه الأذن يتنقل إلى بصيرة العقل، وما يبصره العقل في نفسه أم ببصر العين أو الأذن يتنقل إلى بصيرة الصدر، ومن ثم إلى بصيرة القلب ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ عيناً وسمعاً وعقلاً وصدراً ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ التي لا تنفع معها سائر الأبصار، مهما كانت أبصار العقول أو الصدور فضلاً عن أبصار العيون.

فالمعرفة ما لم تصل شغاف القلب فهي متقلبة، مهما اختلفت الدرجات، فإذا وصلت إلى القلب وأخذ شغافه فهنالك البصيرة التامة الطامة دون تزعزع ولا تلكع.

بل وعمى القلوب تصد الصدور عن الانشراح، والعقول عن التعقل،

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

كما الإبصار عن الأبصار، فتعطّل في عماها كل الأبصار عن الإبصار ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾! اللهم أنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، ولا تجعلنا ممن لهم ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾(١) فإنها عميت وكلّت يوم الدنيا ثم ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٢).

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾:

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(٣):

وترى كيف تتجاوب الآيتان هاتان وآية المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ...﴾(٤)؟ فأين ألف سنة من خمسين ألف سنة! علَّ المعني من ألف الحج أنه في شدة العذاب كألف سنة مما تعدون أي ٣٥٥٠٠٠ ضعفاً، فلماذا يستعجلون العذاب وكلّ يوم منه عند ربك في شدته كذلك الضعف الهائل.

ثم وألف السجدة - علّه - هو واحد الزمان لعروج الأمر إليه عند الساعة، فقد يعني أنه يعرج أمره إليه في واحد من الزمان قدر ما كان يفعله يوم الدنيا من تدبير الأمر في ألف سنة مما تعدون، فألف الحج يصوِّر شدة العذاب، وألف السجدة تصوير لسرعة النفاد، وعلّ الألفين - كل فيما يعنيه

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٨، ٩.
(٢) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٥.
(٤) سورة المعارج، الآيات: ٤-٨.

- هما تصويران للكثرة الهائلة، والألف تعبير عن الكثرة، دون تحديده بحده، أم وبهذا الاعتبار يعني أن ﴿يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ - و - كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ على سواء حيث الزمان لا يبعِّد له قريباً ولا يقرب بعيداً، فسواء استعجل في عذابهم أم استأجل فهما عنده سيان.

أم لأنهما سيان عنده في قدرته وعلمه فإن أخَّركم ألف سنة مما تعدون فكأنه أخركم يوماً، فإن بُعد الزمان ليس بعيداً عنده، فلماذا تستعجلون في العذاب؟

وخمسون ألف المعارج مفصلة في المعارج بتفصيل منقطع المثيل في الفرقان قدر المستطاع من التحصيل، وعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾[1]! وعلى أية حال فذلك الاستعجال ليس من صالحهم أو تعجيزاً لرب العالمين فلماذا يستعجلون؟

وليس الله ليُعجِّل باستعجالهم أم يؤجِّل باستئجالكم، وإنما يعجل من يخاف الفوت، وليس إملاءه الظالمين إلا امتحاناً ومزيد بلاءٍ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾:

فلماذا يعجل وهم في قبضته وإليه مصيرهم عاجلاً أم آجلاً على سواء: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؟!

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٩﴾﴾:

لست رباً ولا أن الأمر بيدي حتى تستعجلوني بالعذاب لم تستأجلون و﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ﴾ من ربي كما أنذر ﴿مُّبِينٞ﴾ في إنذاري كما أبين فماذا تطلبون؟

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

إنما أنا رسول وليس لي من الأمر شيء! ممحّض كياني بالنسبة للكل إني نذير، ثم للمهتدين بشير، ومن بشارتي ونذارتي:

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾:

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله عما أخطأوا ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو جنة النعيم ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾ مسرعين ﴿فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ يصارعونها سراعاً لإبطالها بكل سرعة ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾:

هذه الآية من معارك الآراء بين المفسرين المسلمين وسواهم من مستشرقين طاغين بها وبأضرابها من متشابهات في ذلك الدين المتين ورسوله النبي الأمين، فقد أثاروا حولها عجاجة من القيلات التي هي ويلات على هذه الرسالة السامية وعلى كل الرسالات، وسانده جماعة من المسمِّين مسلمين ظاهرين بمظاهر المفسرين والمحدثين[١] حيث تناقلوا مختلقات وثنيات، أم إسرائيليات وكنسيات جهلاً أو تجاهلاً، قصوراً أو تقصيراً بحق القرآن العظيم.

ولو أن هذه الفرية الجاهلة القاحلة على هذا الرسول ﷺ ثبتت أنه قال: تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى، تجلّباً لخواطر المشركين، اختلاقاً وثنياً يناقض جذور الرسالة التوحيدية، لكانت إذاً فاشية في كافة

(١) لقد أحدث رواة من الفريقين أحدوثة كاذبة حول الآية، فرواة من العامة تناقلوا حديث الغرانيق، وآخرون من الشيعة تناقلوا حديث «محدَث» في الآية كأنها ساقطة عنها، والكل محجوجون بالقرآن والسنّة.

الرسل والنبيين، حيث الآية تعم مادة الفرية المتخيلة لكل رسول ونبي دون إبقاء.

ولكن الآية نفسها، بعسكر مجنَّد من آيات سواها وبراهين أخرى معها، تذود هذه الوصمة الوقحة عن ساحتها وساحة الرسالة السامية، لو أن الناظر إليها تأملها كما هيه، دون تحميل للآراء والروايات عليها.

فالذي يبدو أولاً من وجه الآية صارحة أنها تعرض سنّة رسالية شاملة لا تشذ عنها أية رسالة صغيرة ولا كبيرة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ وطبيعة الحال في السنّة الرسالية على أية حال أن تكون بمصلحة الدعوة، دون خصوص الداعية، أو مصلحية الرعاية لناكريها المعارضين، فإنها ليست تجارة تحلِّق عليها المصلحيات الخاوية من مكائد وأكاذيب واحتيالات، فإنها تملك من البراهين القاطعة أقواها ومن السبل الجادة أعبدها وأصفاها، دونما حاجة إلى سياسات زمنية تحوم حولها شيطنات وإغراءات، فلا تجد في قاموس الدعوات الرسالية شيئاً من هذه المصلحيات القاحلة التي يعبدها أصحابها كأصنام، وهي من الأخطار الهامة في الدعوات الحقة إنحرافاً عن نهجها السليم المستقيم غير الملتوي، وانجرافاً إلى هوَّات السياسات الإبليسية التي يلعب بها الساسة الزمنيون.

فلا مسايرة في الرسالات الإلهية ولا أنصاف حلول بجعل البلد شطرين، والدعوة في واجهتين، فإنما هي شطر واحد منذ بدايتها إلى ختامها، صدقاً صارماً دونما خليط، حتى في لفظة قول مهما كانت ثورية وتقية، وإليكم البحث والتنقير حول ألفاظ الآية:

﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ وهما هنا مرسلان ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ ذلك دليل افتراقهما في بعض الشؤون مع الاشتراك في أصل

الرسالة، وذكر ﴿نَّبِيٍّ﴾ بعد ﴿رَّسُولٍ﴾ مما يجعله في قمة أعلى من أصل الرسالة وكما في آيات عدة: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[1] في موسى وإسماعيل، و﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾[2] في محمد ﷺ.

ولو كان كل رسول نبياً لكان ذكر «نبياً» بعد «رسولاً» زائداً بائداً، إلا أن تكون النبوة مرحلة راقية من الرسالة وكما تلوح من آياتها.

وعلّ الروايات المعاكسة بينهما تعني النبوءة من النبإ، دون النبوَّة من النّبوة والرفعة: «نبي مُنَبَّىء في نفسه لا يعدو غيره»... وحين يخاطب يا نبيء الله يرده قائلاً: لست أنا نبيء الله، أنا نبي الله.

إذاً فـ ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ يحلِّق على كل أصحاب الرسالات بدرجاتهم، من مرسل دون كتاب أو بكتاب، من رسالة هامشية بكتابها كغير أولي العزم أم رسالة أصلية كهؤلاء الذين دارت عليهم الرحا وهم أصول النبوات وقواعد الرسالات.

إذاً فـ ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ تشملهم كلهم في التمنيات الرسالية، التي تحصل أحياناً منها دون كل أدوارها لمكان «إذا».

ثم التمني هو تقدير وجود المحبوب، وصورته قبل حصوله عند المتمني هي أمنيته وأصله المَنْيُ: التقدير، وتمنيات الرسل هي بطبيعة الحال التمنيات الرسالية تقوية لها وتطبيقاً بعد حصولها، وتلك التمنيات بما هي مصحوبة بمحاولات لتحققها تُعرقَل في مسيرها ومصيرها بإلقاءات الشيطان من جن وإنسان، وكما تعرقل أصل الرسالات منذ بزوغها، وكلما ازدادت انتشاراً وتقبلاً وازدهاراً ازدادت ضدها العرقلات ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ في تمنيات ودعوات أو كتابات الرسل ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الملقاة فيها ما

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

يناحرها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ تلك الإلقاءات ﴿حَكِيمٌ﴾ في تحقيق تمنيات الرسل نسخاً لما يلقي الشيطان.

ولقد حصلت هذه الإلقاءات الشيطانية كلها في كل الرسالات، خلقاً لأجواء معرقلة دونها، وتضليلاً لمن لا يحن إلى الإيمان تمام الحنان، وإلقاءً في كتاباتهم تحريفاً وتجديفاً، ولكن الشرعة الأخيرة سليمة من ذلك الأخير.

إذاً ففي ذلك العرض الشامل تسلية لخاطر الرسول الأقدس ﷺ أن الله هو الذي ينسخ ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته.

وهكذا نرى كل كتاب رسالي ينسخ التحريفات التي ألقيت فيما قبلها من كتاب[١] حتى وصل الدور إلى القرآن فأصبح مهيمناً على كافة كتب الوحي.

ونرى أن الأجواء المضلِّلة الملقاة من الشياطين تتبدل صالحه هادية زمن الرسل وبعد كل رسول برسالة تالية وتأييدات ربانية، والقلوب المزعزعة بهذه الإلقاءات تثبت على ما كانت من الإيمان واليقين شرط أن تنحو منحى الإيمان واليقين، وذلك هو النظر الموعود للرسل والمؤمنين:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[٢].

---

(١) تفسير البرهان ٣: ١٠٢ - عن الاحتجاج للطبرسي في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: فذكر عز اسمه لنبيه ما يحدثه عدوه وفي كتابه من بعده بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا...﴾ [النّساء: ٦٤] يعني أنه ما من نبي يتمنى مفارقة ما يعانيه من نفاق قومه وعقوقهم والانتقال عنهم إلى دار الإقامة إلا ألقى الشيطان المعرض بعداوته عنه - عند فقده - بعده في الكتاب الذي أنزل إليه ذمه والقدح فيه والطعن عليه فينسخ الله ذلك من قلوب المؤمنين فلا تقبله ولا تصغي إليه غير قلوب المنافقين والجاهلين ويحكم الله آياته بأن يحمي أولياءه من الضلال والعدوان ومتابعة أهل الكفر والطغيان الذي لم يرض الله أن يجعلهم كالأنعام حتى قال: بل هم أضل سبيلاً.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.

فليست أمنية الرسل هي فقط آيات الوحي الرسالية حتى يفسَّر إلقاء الشيطان فيها بزيادة عليها، فإنها حاصلة دفعة واحدة أم تدريجية طيلة كل رسالة دون حاجة إلى تمنٍّ، فـ «تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى» ليست من تلك الإلقاءات في آيات الوحي المحمدي، بل هي من إلقاءاته على مختلقيها، مردودة إليهم ومضروبة عرض الحائط، حيث تُضاد طبيعة الرسالة ولا سيما هذه الأخيرة السامية.

وتراه كيف ينطق هكذا عن أضل الأهواء الشركية ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[١] تصون تنطقاته كلها كتاباً وسنَّة عن كل هوى حتى العقل، حاصراً لها في وحي يوحى؟!

أم كيف يتقول على الله هكذا ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾[٢] ولم نره حيناً مّا مقطوع الوتين أو مأخوذاً باليمين، إلا في مزيد من التأمين المكين، والتأييد الرصين!: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ﴾[٣] ثم ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾[٤] هذه، تجتث عنه جذور هذه الفتن، والمسايرة بها ليتخذوه خليلاً كما افتراه عليه مختلقو الغرانيق العلى!.

ثم الله ضمن له ألَّا ينسى الوحي فلا يزيد عليه ولا ينقص منه، ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[٥] وليست أمثال قصة الغرانيق إلا من سلطان الشيطان شر سلطان،

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.
(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٦.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٥.
(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ٧٣، ٧٤.
(٥) سورة الأعلى، الآية: ٦.

وليس إلا على الغاوين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[(١)] ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾[(٢)] ومحمد ﷺ هو من أخلص المخلَصين، وهو أول العابدين.

وفرية الغرانيق تعارض هذه الآيات وطبيعة الرسالات، وتكذب هذه التضمينات والصيانات لأبعاد الرسالات، فهي باطلة متناً مهما كثرت فيها الروايات، كما هي ضعيفة سنداً، حيث رواها المطعون فيهم، وحتى لو صحت أسنادها فهي كاذبة المتون لمعارضة القرآن، وإن الآية نفسها لا تتحملها.

هؤلاء المختلقون هم من أعداء الرسل وكما قال الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾[(٣)] ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)﴾[(٤)] والأفئدة هنا هي القلوب المتفئدة بنيران النكران حيث تستزيد نكراناً على نكران.

فإيحاء زخرف القول غروراً منهم هو - فقط - إلقاءهم، سواء في الأجواء والقلوب، أم في كتب السماء، والقرآن مصون عن ذلك الإلقاء، ثم لا تصغى إلى زخرفاتهم إلا ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾[(٥)].

ولماذا ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[(٦)] ثم الله لا يصد عن ذلك الإلقاء الزخرف؟:

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٢.
(٢) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣١.
(٤) سورة الأنعام، الآيتان: ١١٢، ١١٣.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٣.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ...﴾[١].

فذلك - إذاً - بالنسبة للقاسية قلوبهم والمرضى الناكرين للآخرة، امتحان الامتهان ليزدادوا مرضاً على مرض ونكراناً على نكران، وكما ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٢].

وهو في نفس الوقت مزيد علم وإيمان لأولي العلم والإيمان ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أكثر مما كان ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ إيماناً فوق إيمان، حيث الإيمان يتبلور بالامتحان، فلما يرى المؤمنون تلك العرقلات الشيطانية ضد الدعوة القرآنية وأضرابها، يتأكدون أكثر مما كان ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

إذاً فليس ما يلقي الشيطان فتنة إلا للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم والذين لا يؤمنون بالآخرة، ولو كان ذلك الإلقاء مثل ما يفترى على رسول الهدى من قصة فرية الغرانيق لكان هو ﷺ نفسه من هؤلاء المرضى الكافرين، خارجاً عن الذين أوتوا العلم! بل هو خارج عن القبيلين حيث المرسلون هم ملء العلم والإيمان والإخبات إلى ربهم، لولاها لما أرسلوا إلى العالمين، فلقد اجتازوا مراحل الإخلاص من العلم والإيمان بالله والإخبات لله حتى أخلصهم الله واصطفاهم على علم على العالمين: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[٣] ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[٤] ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٥.
(٤) سورة ص، الآية: ٤٧.
(٥) سورة الدخان، الآية: ٣٢.

إنهم عليهم السلام كلهم خارجون عن ذلك الثالوث المنحوس، وحتى عن أولي العلم المتدرجين إلى إيمان الإخبات، فهم في قمة الإسلام بعدما اجتازوا درجات الإيمان والإخبات إلى ربهم فاصطفاهم ربهم على العالمين.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ بينهم وبين الحق، فليسوا ليكتفوا بنفاقهم العارم وكفرهم الصارم، فيستزيدون نفاقاً على نفاق وكفراً على كفر بما يلقي الشيطان، صاغية إليه أفئدتهم ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[1] - ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[2] فـ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[3].

فـ ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم مرضى القلوب لعدم استقامتها في التعقل، فلا تذعن بما به يذعن إذا استقامت وصحت القلوب، ثم تقسو لحدّ لو أرادت الإذعان لما تيسر لها حيث ختم الله عليها بكفرهم وهم ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ويجمعهما ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ حيث تصغى إلى ما يلقي الشيطان وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم هؤلاء الصاغون إليه ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[4] غارقون فلا ينجون، وأصحاب الشقاق القريب قد ينجون، ثم الرفاق للحق المحتارون الفاحصون عنه أولئك هم يؤمنون:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾:

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٦.

إن المهديين إلى صراط مستقيم هم الراسخون في العلم، ويتلوهم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ حيث الامتحان يستدرجهم إلى الرسوخ في العلم فإلى صراط مستقيم، حيث العلم هنا هو الإيمان على بينة فإنه مغزى المعرفة بالله دون العلم فقط، وهكذا ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ...﴾[1] ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[2] ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[3] ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[4].

ذلك هو العلم الذي يزيد في الإيمان ويحقِّق الإخبات إلى الرب و«أنه» ما يتمناه الرسل وهي مادة الرسالة أصلاً وتطبيقاً وخيرها أُخراها وهي الرسالة الأخيرة. ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لا سواه، وإن ما يلقي الشيطان هو الباطل ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ بالحق «فتخبت له لله ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ حيث يصبحون لهم رفاقاً في أمنياتهم دون فراق ولا شقاق، متسابقين إلى مزيد الإيمان في ميدان السباق ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾! وهنا في محتملات المراجع لضمير الغائب «أنه - به - له» وجوه عدة، فقد يرجع الأول إلى ما يتمناه الرسل ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟﴾ بالحق «فتخبت له»: الحق الرب ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ أم إلى خير ما يتمنونه وهو الوحي الأخير «القرآن» ماثلاً فيه الحق كله، ممثلاً لكل أمنيات الرسالات ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾:

القرآن ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ﴾ القرآن - أو - منزِّله ﴿قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قد يقوِّم كون المرجع هو الصراط المستقيم، فإنه أمنية الرسل كلهم، فـ «إنه الحق» نفس الصراط المستقيم، ﴿فَيُؤْمِنُوا۟

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٩.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٦.
(٤) سورة المجادلة، الآية: ١١.

بِهِۦ﴾ بالصراط، أم - ويأحرى - صاحب الصراط وهو الله ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أو أن نسخ ما يلقي الشيطان أو جعل ما يلقي الشيطان فتنة ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

أجل إنه ليس للشيطان إلقاء إلا بإذن الله تخييراً دون تسيير امتحاناً للمكلفين ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[1].

كما وأن نسخه بعد سماح الإلقاء ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ إلقاءَ ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ...﴾ وإلقاءَ ونسخ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ...﴾.

ولأن قرآن محمد ومحمد القرآن هما الصراط المستقيم القمة، تعريفاً بالله ومعرفة بالله وتجسيداً لشرعة الله، فالحق من ربك هو القرآن ورسوله، وإخبات القلوب ليس إلا إلى الرب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[2] ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[3].

هذه قضية العلم والإيمان في كتلة العلم الإيمان، أن ما يلقي الشيطان لا يزيدهم إلا نوراً:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾:

هؤلاء في مزيد الإيمان وإخبات القلوب، وأولاء ﴿فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: الحق - أياً كان، فإنهم في شقاق بينهم وبين الحق أينما حلَّ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ وهي ساعة الموت ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وهو ساعة القيامة الكبرى، والآخرون هم الذين تقوم الساعة في حياتهم الدنيا، والأولون في حياتهم البرزخية، فهذه الكتلة الكافرة لا يزالون في مرية منه

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٢) سورة هود، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الحج، الآية: ٣٤.

حتى تأتيهم قيامتهم الصغرى أو الكبرى، وهم في هذه الساعات أحياء لم تفدهم حياة التكليف إيماناً إلا مرية.

فـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا هم عامة كفار التاريخ الذين ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١] في حياة التكليف ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ بمباغتة الموت حيث لا ينفع الإيمان ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وهو اليوم الآخر.

فتفسير الساعة بالقيامة تفسير عقيم، إذ لا تبقى المرية حتى القيامة لمن مات قبلها ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٢]! حيث تكشف الحقائق فلا تبقى أية مرية إلا زالت مهما لم ينفع الإيمان لمن لم يؤمن من ذي قبل.

فإنما الساعة هي ساعة انقضاء التكليف بقيامة صغرى هي الموت، أم كبرى هي الكبرى، وقد يعني ﴿عَقِيمٍ﴾ أنه لا ينفع فيه عمل ولا إيمان، ولا يوم بعده فإنه اليوم الأخير خلاف اليومين الأولين، وأنه لا رجوع فيه عنه إلى حياة التكليف، وقد كان بالإمكان من قبل وإن بصورة خاصة كما يرجعون يوم الرجعة وقد رجع قبلهم أفراد وجماعات.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾:

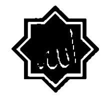
﴿الْمُلْكُ﴾ كله، ظاهره وباطنه، إذ كان لهم الملك قبل ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ استخلافاً ظاهراً وعارية مضمونة ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[٣] ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ . . .﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٢) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

ظاهر كأن يتظاهر لأهل الظاهر أنه لمن يملك ظاهراً وباطناً، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعلمون أنه كان لله ولم يكن لهم إلا ظاهر مستخلف فيه ابتلاءً وامتحاناً.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ حين انقضاء التكليف برزخاً وقيامة، إذاً فـ «جنات النعيم وعذاب مهين» تعم النشأتين مهما اختلفت جنات عن جنات وعذاب من عذاب.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

تتمة سورة طه

سورة الأنبياء

سورة الحج